www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

ميشيل زيفاكو

الفارس اليتيم

دار البحار

الفارس اليتيم

شاب يتيم تربّى في مدرسة داخلية، لم يكن يعرف عن الغش والخداع شيئاً، وقد رمت به الأقدار في خضم أحداث جسيمة لم يكن قد استعد لها،وذلك في فترة مضطربة من تاريخ بلاده.

أحسنت إليه فتاة من العائلة المالكة في إحدى المقاطعات الإيطالية فأبى إلا أن يرد الجميل وكما أنقذت حياته،فقد عمل المستحيل كي يعيد إليها وإلى أخيها حقوقهما وينقذهما من براثن مؤامرة رهيبة كانا هدفاً لها.

لقد عانى في سبيل ذلك كثيراً وتحمّل تنكر من وضع حياته في خدمتها، ولكنه لم يأبه على عادة النفوس الكبيرة.

وأخيراً حقق أحلامه ووعده الذي قطعه على نفسه وكانت جائزته أفضل جائزة يمكن أن ينالها إنسان... الحب.

دار البحار

الفصل الاول

على أبواب العالم

امضى بلاريون طفولته وحتى شبابه في المدرسة الداخلية وتوفر على المطالعة والدراسة حتى اتسعت له ثقافة غريزة وعلم واسع جمع بين الفلسفة وفنون الحرب . ولما استوعب هذه المصادر تاقت نفسه إلى ان ينهل من موارد اخرى تروي تعطشه إلى العلم والمعرفة . .

فغادر (سيليانو) ، وسعى إلى مدينة (بافيا) تحقيقاً لهذه الغاية السامية . .

وهناك سبب آخر عجل بهذه الرحلة . فان مداومة الدرس وادمان التفكير كادا يفسدان صلاح عقيدته ، فاصبح يرى انه ليس في الدنيا شيء اسمه الشر والخطيئة . . وعبثاً حاول معلمه الذي أحبه كثيراً ان ينزع من نفسه هذا الاعتقاد الضال . . فقد تأصل في وجدانه ونزل منه منزلة اليقين . . ولما خشي معلمه

الطيب أن يفشو هذا الزيغ في جو الميتم ويفسد على أهله إيمانهم وسكينتهم قرر ان يعجل برحيل الشاب إلى (بافيا) لعل التعميق في الدرس يبرىء نفسه من هذا الانحراف .. وكذلك رحل بلاريون من (سيليانو) في أحد أيام شهر اغسطس عام ١٤٠٧ .

وقد تقرر ان يقطع بلاريون هذه الرحلة سيراً .. ولم يكن يحمل في حقيبته سوى رسالة بخط رئيس الميتم ، وخمسة جنيهات أنعم بها عليه وقت الرحيل .. ولم يملك من الدنيا فوق ذلك سوى ردائه الأخضر الخشن ، ومدية تدلت من حزامه لكي يقطع بها اللحوم ويدافع بها عن نفسه أذى الحيوان والإنسان .. أما ذخيرته الكبرى الروحية فكانت هذه البركة الكريمة التي منحه إياها معلمه لكي تصاحبه في سهول إيطاليا الشمالية ، وهذه الدموع الحارة التي ترقرقت في عيني معلمه الشيخ الذي تعهده منذ السادسة من عمره .. ولم يفت رئيس الميتم ان يذكره في آخر لحظة بما في الحياة من سكينة وسلام وما في الدنيا من شرور ومطامع .

وقد بدأت هذه الشرور بعد ان جاوز مدينة (ليفورنو) بمسافة تربى على الميل .. فقد ضل الطريق وهو يجتاز احدى الغابات ليلاً ولما رأى من العبث مواصلة السير في هذا التيه المظلم قرر ان يمضي سواد الليل حيث هو وان ينتظر شروق الشمس

حتى تهديه الى الطريق المنشود . وهكذا بسط بلاريون عباءته وتمدد فوقها واستسلم لسلطان النوم .

ولما استيقظ الفى أشعة الشمس تغمر الغابة ، وشاهد شيئاً آخر ادعى الى الاهتمام .. فقد رأى رجلاً طويل القامة في ثياب راهب مبتديء على قيد خطوات منه .. وآنس من حالته ما أثار عجبه . اذ كان الراهب آخذاً في الابتعاد عنه ولكنه التفت الى النائم وكأن يقظته الفجائية اوقفت حركته .

ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة .. فان الراهب واجه بلاريون ثانية مشبكاً يديه في كمي ردائه الفضفاض ، وحياه فرد بلاريون تحيته وهو يتفرس في سحنته المريبة ذات الفم الحيواني المهدل والعينين الضيقتين واللون الشاحب المغبر . على انه لم يلبث ان ترفق في حكمه على هذا الرجل حين ادمن النظر الى معالم وجهه الذي شوهته آثار الجدري وتركت فيه من الاخاديد ما اكسبه هذه السمات المريبة .. ولما تدبر بلاريون هذه الحقيقة ونظر الى الرداء الكهنوتي الذي لا يقترن في رأيه الا بالخير ، سارع إلى تصحيح الاثر الذي انطبع في نفسه لاول وهلة لدى رؤية هذا الرجل ، وقال له بلهجة عذبة :

— اني احمد العناية الالهية التي ارسلتك إلى مسافر مسكين ضل طريقه ..

فلما سمع الراهب هذا الكلام زالت من عينيه آثار الخوف التي شابتها لحظة ، وسرى عنه ، وقال وهو يضحك عالياً :

www.liilas.com/vb3 RAHEEN

– يا الهي . ! ما كان اشد غباوتي وجبني حين اوشكت على الابتعاد عنك مسرعاً ظناً مني انك لص نائم .. ان هذه الغابة مأوى اللصوص ومعقلهم.. وهي تكتظ بهم كأنها جحرارانب.

– إذن لم تغامر بالسير فيها ؟.

– آه ؟ . أم حزامي ؟ . لا .. لا يا اخي . لا شيء يدعوني الى الخوف من اللصوص .

– ومع ذلك فقد خفت مني حين طننتني من اللصوص ؟!.

تلاشت ابتسامة الرجل .. ولاحت عليه علائم القلق . ثم قال اخيراً في تؤدة ورصانة :

– اني خفت ذيول خوفك مني . ان الخوف عاطفة رهيبة ، سواء في الانسان أو الحيوان .. وهي تدفع الرجل احياناً الى القتل وسفك الدماء .. فلو انك كنت حقاً ذلك اللص الذي حسبتك ثم استيقظت فجأة ووجدتني بجانبك ، لتوجست شراً مني .. ومن السهل ان تتكهن بما كان يتلو ذلك .

أومأ بلاريون ايجاباً .. ولم يجد ثغره في هذا التعليل.. وآمن بأن هذا الرجل حكيم مفكر فوق صلاحه واستقامته .

وقال الراهب : الى اين تقصد يا أخي ؟ ..

فأجاب بلاريون : إلى (بافيا) .. عن طريق (سانتا تندا)

فقال الراهب : (سانتا تندا) ! . ذلك طريقي ايضاً. على الأقل حتى قرية (اغسطين) في (سيريا) . . انتظر مكانك يا ولدي وسنسير معاً . فمن الخير أن يصاحب الإنسان رفيقاً في رحلته . . انتظر قليلاً ريثما استحم ، فإن ذلك سبب

مجيئي إلى الغابة . ولن أبقيك هنا طويلاً .

وسار الرجل بخطوات واسعة . فناداه بلاريون . قائلاً :

– واين تستحم ؟ .

فاجاب الرجل وهو يواصل سيره :

– هناك غدير صغير على مسافة وجيزة . لا تبتعد عن هنا يا ولدي حتى استطيع ان اهتدي اليك .

على ان بلاريون آثر ان ينتفع بما هذا الغدير الذي اشار اليه الراهب. وسرعان ما نهض وتناول عباءته وسار في اثر الراهب حتى ادركه . فقال هذا وهو يلهث :

– لا تزال امامنا مسافة إلى الغدير ..

– مسافة .. لكنك قلت ..

– نعم .. نعم.. اني اخطأت .. فان المواقع متشابهة في هذه الغابة .. واكاد اعتقد اني ضللت الطريق مثلك .

وقد سار الاثنان زهاء ميل حتى بلغا اخيراً جدولاً صغيراً اغتسلا في مائه .. ثم اخرج الراهب من كيس معه رغيفاً من خبز الشوفان وقطعة من اللحم المجفف فاقتسمها مع بلاريون الذي شكر له هذا الكرم وآنس ميلا اليه..ولما فرغا من الطعام اقترح الراهب على صاحبه ان يجد في السير حتى يدركا مدينة (كازالي) قبل اشتداد الحرارة..فحبذ بلاريون هذا الرأي ونهض لاستئناف السير وهو ينفض الفتات عن حجره .. وفيما هو يفعل لمست يده الكيس الصغير المدلى من حزامه .. فهتف مشدوهاً .. وجعل يتفقده من جديد . فسأله الراهب :

– ماذا جرى يا أخي ؟

وفي هذه الاثناء فتش بلاريون الكيس وقلبه باطناً وظاهراً فكشف عن حوجه .. وقال للراهب وهو ينظر اليه في جزع وارتياب ..

– لقد سرقت ! .

– سرقت ؟ اني لا اقل عنك دهشة يا بني ! . الم اقل لك ان هذه الغابة حاشدة ومأوى باللصوص ؟ . ولو انك كنت اعمق نوماً لفقدت حياتك ايضاً .. لتشكر الله الذي تبدو رحمته حتى في الضراء .. لانه ما من ضر يصيبنا إلا كانت لنا فيه عظة وعبرة ان كان يستفحل ويتفاقم .. لكن لك في هذا عزاء يا ولدي .

فقال بلاريون في تبرم دون ان تنمحي من عينيه دلائل الارتياب .

– نعم ! . نعم ! . من السهل ان يتفلسف الانسان في مصائب الغير ..

– يا لك من طفل ! . وما هي مصيبتك ؟ وماذا فقدت حقاً

– فأجاب بلاريون في شراسة :

– خمسة جنيهات ، ورسالة ! ..

فقال الراهب وهو يبسط كفيه معترضاً

– خمسة جنيهات؟ . وهل تكفر لاجل خمسة جنيهات .

– اكفر ؟ .

– اليس كفراً منك هذا الهياج النفسي ، وهذا الغضب العنيف

لما ضاع منك وقد كان يجدر بك ان تشكر الله لما ابقى عليك ومنك ؟ . بل كان يجدر بك ايضاً ان تحمد هذه العناية الربانية التي ساقتني اليك في ساعة محنتك .

فقال بلاريون في لهجة الارتياب :

– وهل تريدني أن أشكرك على ضياع مالي ؟

فتبدلت ملامح الراهب ولاحت على وجهه سيماء الحزن الرفيق .. وقال :

– اني اطالع خواطرك يا بني ، وارى الارتياب يجسمانيها .. هل ترتاب في حقاً ؟. يا للجنون ! . هل مثلي ينقلب لصاً حقاً ؟ هل اعرض نفسي للخسران الابدي لاجل خمسة جنيهات زهيدة ! الا تعلم اننا معشر الاخوان (الفرنسكان) نحيا كالطيور في الجو ، لا نفكر في الامور المادية ، ونضع ثقتنا في عناية الله ؟ . وماذا اصنع بخمسة جنيهات ، أو خمسمائة ؟. في وسعي بغير مال قل او كثر ، وبلا اكثر من جلبابي وعصاي ، ان ارحل إلى (القدس) غير معتمد إلا على احسان اهل البر والمروءة .. لكن هذا التوكيد لا يكفي العقول التي سممها الشك وافسدها الارتياب .. تعال يا ولدي ! . تعال فتش في ملابسي عن جنيهاتك الخمسة ! . تعال ! .

وبسط الراهب ساعديه .. فتورد وجه بلاريون وغض نظره خجلا .. وقال بلهجة ملتوية :

– لا .. لا حاجة الى ذلك .. ان في ردائك ابلغ ضمان .. أرجو ان تغفر لي هذه الخواطر الآثمة يا أخي .

فانزل الراهب ذراعيه بتؤدة .. وعادت الى وجهه ابتسامته .

ووضع يده ذات الاصابع الشبيهة بالمخالب على ذراع الشاب قائلا :

– قد عفوت عنك يا ولدي . لا تفكر بعد الآن فيما اضعت. وسأعوضك عما فقدت . سنرحل معاً .. ولن تحتاج الى شيء حتى نصل الى (بافيا) ..

فتطلع اليه بلاريون شاكراً وقال له :

– حقاً ان العناية الربانية قد ساقتك الي .

– الم اقل لك ؟ . وها انت ذا تقرر بنفسك !

واستانف الاثنان سيرهما .

الفَصْل الثاني

الراهب

اهتدى الاثنان الى الطريق الرئيسي بمعونة الراهب الذي قدم نفسه الى بلاريون باسم فراسو لبيزيو وراح هذا ينهال على بلاريون بالاسئلة قائلاً :

– قلت انه كانت معك رسالة سرقت مع الجنيهات ؟

فاجاب بلاريون بمرارة :

– نعم وهي تساوي اضعاف هذا المبلغ ..

– تساوي اضعافه ؟ . ما نوع هذه الرسالة ؟ .

راح بلاريون يردد مضمون الرسالة التي كان يحفظها عن ظهر قلب كلمة كلمة .. فلما فرغ ، حك فراسو لبيزيو رأسه في حيرة ظاهرة وقال :

– اني اعرف من اللغة اللاتينية ما يلزم لمهنتي .. لكن ليس

بالقدر الذي ينهض بي لفهم هذه الرسالة ..

ولما رأى بلاريون يتفرس في وجهه ، استطرد في لهجة الصدق .

- نحن معشر (الفرنسسكان) لم نشتهر بالتبحر في العلم . ان العلم يقلل من تواضع النفس .

فتنهد بلاريون وقال :

- اصبت .. وهذا ما اختبرته بنفسي .

وراح يترجم الرسالة المفقودة من اللغة اللاتينية قائلا :

- « حامل هذا ولدنا المحبوب بلاريون الذي تربى في هذه الدار ، وهو يقصد إلى بافيا لزيارة محصوله من العلوم الانسانية. ونحن نستودعه الله ونوصي به إخواننا لكي يؤوه ويقدموا له ما يحتاج في رحلته من عون ومساعدة ، ونستمطر البركات على كل من يرعاه ويشمله بعنايته »

فاومأ الراهب دلالة على استيعابه مضمون الرسالة . وقال :

- كان يمكن ان تكون الخسارة فادحة حقاً . . لكني سأؤدي الدور المسطور في الرسالة طالما بقيت معك ، وسأعمل قبل افتراقنا على تزويدك برسالة مماثلة من رئيس ميتم (اغسطين) في (سيزيا)

اعرب بلاريون عن شكره بحرارة . واستمر الاثنان في سيرهما صامتين بعض الوقت .. ثم عاود الراهب سؤال بلاريون

عن احواله وتاريخه .. فعمل بلاريون برغبته . واخذ يسرد عليه تفاصيل حياته الماضية.

قرر بلاريون أنه لا يذكر من طفولته سوى انه كان صبياً في السادسة من عمره في اسرة فقيرة مؤلفة من أب مخمور وأم شرسة الطباع جامحة الاخلاق واخوة متعددين.. وكانوا يقيمون في دار حقيرة في بلدة لا يذكر اسمها .. وفي ذلك العهد كان النضال على اشده بين انصار البابوية ومؤيدي الامبراطورية ... وذات ليلة غزا الامبراطوريون بلدتهم واعملوا فيها القتل والتذبيح والسلب والنهب . واستطاع هو ان يفر وان ينجو بحياته إلى خارج البلدة.. ثم اشتد به الاعياء والح عليه الخوف، فسقط مغمياً عليه .. ولما افاق رأى ضوء النهار منتشراً ، والفى بجانبه رجلا ملتحياً مدرعا بالفولاذ والجلد من رأسه إلى قدميه مترجلا عن جواده ، وحوله طائفة من الجنود حملة الرماح .

ورغم شراسة الرجل البادية ومظهره المخيف فانه جعل يلاطفه حتى سرى عنه .. ثم جعل يسأله عن حاله فكان يجيبه اجوبة مفككة مبهمة وقدم له الطعام والشراب حتى يذهب عنه الروع ويسكن جزعه واضطرابه .

ولما رأى الرجل عجزه عن تحديد موطنه والارشاد الى ذويه قرر أن يرعاه ويتكفل به .. فاردفه على جواده الضخم وسار به مع رجاله الى بلدة كان أهلها ينظرون اليهم بعين الرهبة والخوف .

وظل هذا الفارس يشمله برعايته زهاء شهر . ثم دعته دواعي الحروب والغزوات إلى العمل . . فعهد بالصبي إلى ميتم (سيليانو) . . وعني معلمو الميتم به عنايتهم بأمير لا بغلام شريد ضال هائم على وجهه . وكان الفارس يتردد على الميتم بين وقت وآخر في غضون ثلاثة أعوام أو أربعة . ثم كف عن الإختلاف إليه . . ولم يره الغلام بلاريون بعد ذلك . . وأعتقد أنه لقي حتفه أو فقد اهتمامه بالطفل الذي أنقذه وشمله برعايته . . وقد عكف أهل الميتم على تربيته وتهذيبه آملين ان يصبح ذات يوم واحداً منهم . . وحاولوا مرات ان يهتدوا إلى موطنه وأهله . بيد انهم لم يوفقوا .

تلك هي القصة التي سردها بلاريون الراهب عن تاريخ حياته . وحوالي الظهر وصل الاثنان الى مزرعة تحوطها الكروم حيث كان أصحابها يقطفون العناقيد وهم يغنون . . وما كاد

أسدهم يرى الراهب حتى دعاهما إلى تناول الغداء مع أفراد الاسرة ، وقرر أنه هو صاحب الدار . . فأدرك بلاريون كيف ينال الفرنسسكان المساعدة والإحسان دون أن يطلبوهما . ولبى كلاهما الدعوة شاكراً .

وقد جلسا الى مائدة كبيرة مع أفراد الاسرة . . وكانت مؤلفة من الفلاح الشيخ وزوجته وسبعة أبناء بينهم ثلاث فتيات حسان كن يرحبن بالشاب بلاريون ويقدمن له أطايب الطعام .

وبعد الغداء أعلن الراهب حاجته إلى الراحة . . فقاده رب الدار إلى احد الغرف لكي يصيب بعض النوم في وقت القيلولة . . وراح بلاريون يتجول بين الكروم في رفقة فتيات الفلاح اللاتي كن ينهلن عليه بحديث لم تسغه نفسه . . وشد ما كان عجبه حين لمح الراهب ينصرف من الدار وحده بعد نحو ساعة قبل أن يستوفي قسطه من النوم ، وكأنه عدل عن مصاحبة الشاب . .

ولما سارع بلاريون إلى اللحاق به أبدى الراهب تبرماً وسخطاً . على أنه علل ذلك بقوله انه لم يكد ينال كفايته من الراحة والنوم .

وراح الراهب يسرع في خطواته بعد ابتعاده عن الدار . وكان يتلفت خلفه بين حين وآخر . ولما نوه بلاريون بان مدينة (كازالي) لا تبعد كثيراً وانه لا مبرر لهذا الاسراع ، اجابه الراهب في جفاء .

— اذا كنت تعجز عن متابعتي ، ففي وسعك ان تتبعني على مهل .

وقد خطر لبلاريون أن يعمل بهذه المشورة لكن العناد والارتياب حملاه على التغلب على كبريائه . فقال الراهب :

– لا .. لا يا أخي . اني سأوفق بين خطواتي وخطواتك ..

فكان جواب الراهب زمجرة غريبة .. ورغم أن بلاريون حاول مرات أن يستأنف الحديث مع فراسو لبيزير ، فأنه أعرض عنه ولم يتكلم الا الماماً حتى وصلا إلى أسوار (كازالي) عاصمة ولاية (مونتفيرا) ..

ودخلا المدينة من باب (سان استفانو) مجتازين القنطرة المتحركة القائمة عبر الخندق .. واذن لهما الحراس بالدخول من غير تدقيق إذ كان العهد عهد سلم ومهادنة .. واتفق ان كان حضورهما يوم السوق ، فاخترقا شوارع حاشدة بالناس حافلة بالسلع والمعروضات .. ولما حان موعد العشاء قاد الراهب صاحبه بلاريون إلى مطعم في (ساحة الكاتدرائية) ..

لكن الشاب اعترض وقرر انه لا يليق بهما أن يلتمسا العشاء في مكان عام .. فرد الراهب اعتراضه قائلاً :

ان (ينفنوتو) صاحب المطعم ابن عمي .. وسيحتفي بنا ويبسط لنا مائدته .. وسأقف منه في نفس الوقت على انباء اهلي واحوالهم .. افليس من الطبيعي اذن ان اسعى اليه ؟ .

فلم يسع بلاريون الا ان ينزل على رايه مكرها واعترف في نفسه انه ما من مرة خامره الريب في افعال الراهب إلا بادره بالجواب المقنع والتعليل المعقول .

الفصل الثالث

الباب المنفرج

احتفى صاحب المطعم بهما حقاً . وافرد لهما خواناً خاصاً في اقصى الغرفة قرب نافذة طويلة مفتوحة ، بعيداً عن سائر النزلاء الذين كانوا خليطاً من الفلاحين وارباب الحرف واهل الطبقة الدنيا وقدم لهما طعاماً كان افخر ما فيه دجاجة نحيلة .

ولكن بلاريون كان جائعاً فأصاب من الطعام ما ملأ فراغ معدته .. وقد ضاق اول الأمر بضجيج الحديث ودوي الضحك الذي كان يتردد في جوانب المطعم ويكاد يصم الآذان .. وأكثر ما صدر هذا الضجيج من مائدة غير بعيدة جلس حولها أربعة جنود وامرأة ملطخة الوجه بالاصباغ كانت شديدة المرح تضحك ضحكاً مدوياً وصفه بلاريون بأنه ضحك أهل الجحيم .. بيد

انه لم يلبث ان الفت أذناه هذه الأصوات وخف تأثيرها بمضي الوقت في سمعه

ولما شبع بلاريون أحس بثقل في أطرافه وخدر في حواسه . .

واشتد احساسه بتعب السير الشاق المتواصل . . فليس عجيباً اذا غالبه النعاس واطبق جفنيه ، بينما كان الراهب منهمكاً في حديث خافت متصل مع صاحب المطعم .

ولما استيقظ بلاريون بعد نصف ساعة وجد الراهب واقفاً بيد انه لمح شيئاً آخر اثار اهتمامه . . فقد رأى وجهاً يطل من النافذة خلف الراهب . . وعرف فيه وجه الفلاح الذي أضافهما في ذلك اليوم . . على ان هذا الوجه ما لبث ان اختفى فجأة كما ظهر قبل ان يستطيع بلاريون ان يصيح أو يفوه ببنت شفة . .

ولما فطن الراهب إلى نظرات بلاريون دار في مكانه ونظر حوله . . ولكن بعد فوات الاوان . . فان فراغ النافذة كان خالياً .

وقال في لهجة تشف عن الخوف :

– ماذا جرى ؟ ماذا رأيت ؟

وما كاد بلاريون يجيبه حتى لاحت على وجهه دلائل الغضب وبانت في عينيه أمارات القسوة والوعيد . . ودار على عقبيه كأنما يهم بالرحيل ثم وقف في مكانه على الأثر .

فقد ظهر الفلاح في مدخل المطعم يتبعه آخرون .

وتهالك الراهب في مقعده وتوسل بالهدوء . . وقال الفلاح وهو يتقدم :

– هاهو ذا الراهب الشرير جالس هناك ! . هاهو ذا اللص ! .

في هذه اللحظة خيم على القاعة صمت عميق . وتقدم خلف الفلاح شاب طويل القامة تغطي رأسه وعنقه قلنوسة من الفولاذ ، ويتدلى من حزامه سيف وخنجر ، وتعلو قلنوسته ريشة قرمزية هي شارة الضابط القضائي في مدينة (كازالي) وكان يتبعه اثنان من رجاله سلح كلاهما برمح قصير .

وتقدم الفلاح إلى حيث يجلس الراهب . ودس وجهه في وجهه صائحاً :

– هذا هو ! . هذا هو ! . والآن يا شقي .

لكن فراسو لبيزيو قاطعه قائلاً في دهشة ووداعة :

– هل تكلمني يا أخي؟ هل تقول اني شقي ؟ . أنا؟ . اعترف لك بأني مذنب حقاً . فنحن جميعاً سواء في الخطايا والذنوب . . لكني لا أعرف اني اذنبت نحوك يا أخي وقد غمرتني هذا اليوم باحسانك !

تحير الفلاح السادج ازاء هذا الهدوء . ووقف لحظة لا يحير قولا ولا عملاً . فدفعه الظابط جانباً وسأل الراهب :

– ما اسمك ؟.

فتطلع اليه الراهب معاتباً . وهتف : يا أخي ! .

لكن الضابط صاح فيه قائلاً :

– التفت الي . ان هذا الرجل يتهمك بالسرقة .

– بالسرقة ؟ . اني لم اغضب من هذا الاتهام يا اخي .. فهو مجرد حماقة .. وكلام موجب للضحك .. وما الذي يحملني على السرقة وانتمائي إلى (الفرنسيسكان) يهيء لي ان اسأل فاجاب الى مطالبي المتواضعة ؟. وما فائدة المتاع الدنيوي لمثلي؟ ولكن ماذا يزعم اني سرقت منه ؟ .

فتولى الفلاح الجواب قائلا :

– اربعة جنيهات .. وسلسلة ذهبية .. كانت جميعاً في درج الخلافة التي استرحت فيها .

تذكر بلاريون في هذه اللحظة كيف تسلل الراهب خفية من بيت الفلاح ، وكيف كان يتطلع خلفه بين حين وآخر وتبين له الآن ان رفيقه لص شرير ، وانه هو سارق جنيهاته الخمسة .. وآلى على نفسه ان يصدق وحي غريزته والا ينخدع بما يمليه عقله . وفي أثناء ذلك راح الراهب يجيب قائلا :

– اذن فانا لست متهماً بالسرقة فقط ، بل بمقابلة الاحسان بالاساءة ! . هذه تهمة ثقيلة يا أخي . وهي قائمة على التهور ! .

ما كاد الراهب يفوه بهذه الكلمات حتى صدرت من الحضور غمغمة تشف عن العطف ، فقد كان بينهم كثير من الخارجين على القانون الذين يبادرون الى مناصرة أندادهم في أمثال هذه المواقف .. ثم بسط الراهب ساعديه قائلا :

– اني لن اتحول عن سنة التواضع في فورة الدفاع عن

نفسي .. ولن أقول شيئا .. هلم يا سيدي وفتش في ملابسي عن هذا المتاع الذي يزعم هذا الرجل اني سرقته ، وان كان دليله الوحيد على ذلك هو مجرد دخولي غرفة نلت فيها قسطا من الراحة .

وارتفع من بين الحضور صوت يقول في غضب :

ايتهمون قسيسا ؟

وغمغم الحضور عطفا .. فلاحت على وجه الضابط سيماء الطرب وادار على عقبيه قليلا لمواجهة المتكلمين..وقال ساخرا :

– قسيس !

ثم التفت إلى الراهب ورماه بنظرة صارمة ، وقال له :

– أين رتلت القداس لآخر مرة ؟

وسرعان ما لاحت على الراهب دلائل الحيرة .. وعاجله الضابط قبل ان يفيق من حيرته بسؤال ثان :

– وما اسمك ؟ .

– اسمي ؟. اني لن اعرض نفسي لاساءة المسيئين..وسأريك دليلا كتابيا على هذا الاسم .. انظر .

وأخرج الراهب من جلبابه رقما مكتوبا دسه تحت نظر الضابط فتأمله هذا لحظة . ثم تطلع الى الراهب قائلا :

– كيف يمكن ان اقرأه وهو مقلوب ؟

وسرعان ما ادار الراهب الرق بيدين مرتعشتين . وفي هذه اللحظة وقف بلاريون على أمرين : الأول ان الرق كان موضوعا

في الوضع الصحيح في المرة الاولى .. والثاني ان هذا الرق هو رسالته المفقودة فقد شاهد فوقها ختم رئيس الميتم واضحاً .

واستخلص بلاريون من ذلك ان الراهب هو السارق الذي سطا على كيس نقوده ، وان محاولته انتحال شخصية لا تمت له بسبب دليل على خطورة موقفه ، وان زعم الضابط ان الرق مقلوب لم يكن إلا مجرد حيلة للتحقيق من معرفة الراهب القراءة وهي حيلة وقع في شباكها في غباء وتخبط .

وقد ضحك الضابط عالياً لنجاح حيلته .. وقال للراهب ساخر :

– كنت أعرف انك لست من أهل العلم .. ومهما تنكرت في زي الرهبان فان شخصيتك لا تخفي عني .. انت (لورنزاشيو داتورينو) يا صديقي .. وان حبل المشنقة ينتظر عنقك .

أحدث ذكر هذا الاسم تأثيراً في نفوس الحضور ، فزادوا التفافاً حول الخوان القريب من النافذة .. وكان صاحب الاسم معروفاً بانه مجرم خطير ذائع الصيت في ولايتي (مونتفيرا) و (سافوي) ..

ولكن بلاريون كان في شغل عن ذلك برسالته .. فهتف :

– ان هذا الرق لي .. وقد سرقه هذا الراهب الزائف مني في صباح اليوم .

تحولت الانظار إلى بلاريون فوراً . وما لبث الضابط ان ضحك ضحكة أسخطت بلاريون .. ثم قال :

– اذا اختلف اللصان ظهر المسروق ! ومن الطبيعي ان ينقلب حليف اللص ضحية متى وقع الاستاذ في الشرك ! . هذه خدعة عتيقة يا صاحبي ، ولا تجوز هنا في (كازالي) .

تصلب بلاريون حين سمع هذا الكلام .. وتكلف الوقار والرصانة وقال :

– قد تندم على كلامك يا سيدي ! . أنا صاحب الاسم المذكور في هذا الرق ، كما قد يشهد بذلك رئيس ميتم (سيليانو) .

فقال الضابط ساخراً : لا داعي لمضايقة جنابه .. متى تذوقت حبل العذاب سارعة بقول الحقيقة .

جزع بلاريون وساوره الخوف .. وفي هذه اللحظة تعاقبت الحوادث بسرعة .. فبينما كان اهتمام الضابط موجهاً إلى بلاريون تسلل الراهب الزائف إلى النافذة .. ولمح الفلاح هذه الحركة الخفية وفطن إلى مدلولها .. فصاح قائلاً :

– امسكوه ! ..

ووثب نحو (لورنزاشيو) لاعتقاله .. وسرعان ما برق جسم في يد المجرم واستقرت مدينه في يد الفلاح .. فهوى المسكين بين يدي الجنديين وعاق حركتها بضع لحظات كانت كافية لوثوب (لورنزاشيو) إلى حافة النافذة المفتوحة .. ثم اختفى عن الانظار ..

وساد المكان هرج شديد تلاشت فيه صيحات الضابط .. وتلقى احد الجنديين الفلاح الجريح بين يديه .. بينما عالج صاحبه

الوثوب من النافذة في أثر المجرم الهارب .. لكنه كان دونه خفة وقوة .. وارتد عنها خائباً ..

اما بلاريون فقد وقف في مكانه مروعاً جازعاً وجعل يتطلع مشدوهاً إلى الفلاح الذي أيقن من حالته ان اصابته قاتلة .. وفجأة شعر بيد تجذب كمه برفق . وما كاد يلتفت حتى رأى المرأة المصبوغة الوجه التي روعه ضحكها المدوي تنظر اليه مشفقة قلقة .. وغمغمت في اذنه قائلة :

– ابتعد !.. ابتعد !.. هذه فرصتك !.. تحرك !..

اشتد ذهول بلاريون .. وشعر لاول وهلة بنفور من هذا التحريض وتملكه عناد للثبات في مكانه والدفاع عن نفسه والاصرار على ان تجري العدالة مجراها .. بيد انه ما لبث ان أدرك ان الظواهر كلها ضده .. وان هذه المرأة واصحابها ينصحون له بسلوك السبيل الوحيد الذي ينبغي ان يسلكه الرجل العاقل .. ثم جعلت المرأة تلح عليه قائلة :

– أسرع يا طفل .. اسرع وإلا ضاعت الفرصة !..

التفت بلاريون حوله ، فرأى الجميع يدعونه بنظراتهم إلى النجاة بنفسه ، ولمح صاحب الحانة في غمارهم يشير له نحو الباب اشارة لم تخف عنه دلالتها .. وما كاد عزم بلاريون يستقر على الافلات حتى أفسحوا له طريقاً بينهم ثم التأمت صفوفهم حالما نفذ منها .. وفي اثناء ذلك كان الضابط يصيح بالجنديين يأمرهم بايقاف الهارب .. وجعل يهيب بسائر الجنود الموجودين في

الحانة ان يمدوا لتابعيه يد المساعدة .. لكن الجميع أصموا آذانهم وتشاغلوا بالعناية بالجريح والتفجع لمصابه والرثاء لحالته .. وما ان وصل الجنديان إلى باب المطعم حتى اختفى بلاريون في أول منعطف صادفه في طريقه .

راح بلاريون يركض بكل قواه وهو لا يدري إلى اين يذهب ولا ما هي غايته من هذا الهرب .. وتذكر في هذه اللحظة كلمات رئيس الدير حين ودعه وذكره بما في حياة الميتم من سكينة وسلام وما في الدنيا من شرور ومطامع .. وود لو يعود الآن إلى الدير بعيداً عن هذه المتاعب التي الت به من حيث لا يحتسب .

على ان غريزة التشبث بالحياة والحرية طغت على كل اعتبار آخر ..

واستمر بلاريون يركض في الازقة والمنعطفات وهو يسمع خطوات مطارديه تخفف شيئاً فشيئاً حتى خيل اليه انه ضللهم وتخلص منهم . ووقف في حارة ضيقة تحف بها جدران عاليه لكي يتنفس ويتدبر في أمره .. وفيما هو يجفف عرقه خيل اليه انه يسمع خطوات مطارديه تدركه من جديد .. فسقط في يده . واستند بظهره إلى باب من خشب البلوط رآه في الجدار وجعل يفكر في مآله .. وشد ما كانت دهشته حين رأى الباب يتحرك بثقل جسمه وترنح بلاريون إلى داخل ممشى تكتنفه الحشائش واحواض الورود وتحف به حواجز نباتية كثيفة منسقة .

www.liilas.com
RAYAHEN

خيل اليه كأن معجزة تمت .. وان هذا الباب قد فتحته قوى خارقة لانقاذه . فلم يتردد في اغـــلاقه خلفه ، وجذب المزلاج في موضعه وجلس على عتبة الباب الداخلية يستمتع بلذة الشعور بالامن والطمانينة . لكن هدوءه لم يدم طويلا .. فقد طرق سمعه وقع اقدام متعددة تركض ، مقترنا بأصوات متحادثين يلهثون نصبا وجهداً .

ابتسم بلاريون وجعل ينصت .. وقدر انهم لن يفطنوا إلى وجوده خلف هذا الباب المحكم الايصاد . وانهم سيواصلون السير في غير طائل وقد يستطيع ان يمضي سواد ليله في هـــذا المكان حتى اذا طلع النهار وفتحت ابواب المدينة تسنى له ان يغادرها غير آسف ولا نادم .

وفيما هو مسترسل في هذه الخواطر وقفت الاصوات فجأة عند الباب . فوقف قلبه معها . وقال صوت أجش :

– انه وقف في هذه النواحي . انظروا إلى أثر قدميه في الأرض ..

انصت بلاريون وقد كتم انفاسه اشفاقاً . فسمع آخر يقول:

– وهل لهذا أهمية؟.. وهل نقف بينما هو يمعن في الهرب؟. هلموا بنا .. نحن نعلم انه ذهب من هذه الناحية .

فقال صاحب الصوت الأجش :

– قف يا غبي ! . انه جاء إلى هنا . لكنه لم يجاوز هذا المكان .. كفى لا تجادلني يا رجل . وافتح عينيك ! .. ومن

السهل ان ترى .. ليس هناك من جاوز هذا الباب في يومنا وهو هنا .

واقتربت هذه الكلمات بلطمة على الباب من أسفل الرمح اوقفت بلاريون على قدميه .. بينما قال الثاني :

– لكن هذا الباب مغلق دائمـــاً . ولا يمكن ان يكون تسلق الجدار .

– اقرر لك انه موجود هنا .. فلا تجادل . ليحرس اثنان منكم هذا الباب لئلا يخرج منه . وليـــأت الباقون معي إلى القصر .

قال صاحب الصوت الأجش بهـذه الكلمات في لهجة آمرة فلم يعقب على كلامه احد . وسمع بلاريون وقع اقـــدام تبتعد بسرعة في الحارة .. بينما بقي رجلان لحراسة الباب . وجعل بلاريون يتساءل هل يجديه الدعاء وهو كل ما كان يملك في هذا الموقف .

الفصل الرابع

ملجأ

سار بلاريون في الممشى محاذراً حتى وصل الى فرجة رحبة في الحاجز النباتي الكثيف وقف ينظر منها الى ما وراءها ..

شاهد بحيرة تتلألأ مياهها .. شيد فوقهـــا مبنى من المرمر الناصع على هيئة المعابد الرومانية ، يوصل اليه بقنطرة مقوسة تتدلى فوق حواجزها ورود زاهية ..

وكانت الأرض فيا وراء البحيرة والمعبد تتدرج في الانتفاض حتى تنتهي إلى رحبة تتخللها احواض الورود والازاهير وتزينها التماثيل المرمرية الرائعة .. وفي هذه البقعة لمح بلاريون اشباح رجال ونساء يسيرون الهوينا في ارجائها وهم في اردية زاهية وزينة باهرة .. وسمع عزف قيثارة رقيقة يتردد عذبا رخيماً على اجنحة نسيم المساء العليل ..

ومن وراء هذه الرحبة رأى بلاريون شرفة بارزة عن الأرض يقوم فوقها قصر منيف جمع بين فخامة البناء وحصانة القلاع .

وفيا كان بلاريون يتأمل هذه المشاهد سمع فجـأة خطوات متلصلصة خلف الحاجز النباتي الذي استتر في ظـــله . وفي اللحظة التالية القى نفسه وجهاً لوجه امام امرأة ظهرت فجأة في الفرجة التي تشطر الحاجز .

وقفا يتبادلان النظر بضع لحظات . وكتب على بلاريون في هذا الوقت الا تبرح صورة هذه المرأة ذاكرته مدى الحياة . فقد كانت متوسطة الطول نحيلة القد ترتدي ثوباً من الحرير الارزق موشى بالذهب ولها شعر ذهبي يتموج فوق محيا صغير شاحب ياخذ جماله بالالباب وقد راحت تتطلع اليه بعينيها الواسعتين العسليتين متسائلة .. فقال متلعثماً :

— سيدتي ! . اني اطمع في مروءتك ! . هم يطاردونني ! .

فتقدمت نحوه خطوة وقد لاحت في عينيها دلائل القلق . وقالت :

— يطاردونك !.

فاردف بلاريون لكي يزيد في عطفها عليه :

— ومن الجائز ان اشنق اذا امسكوني .

— ومن يطاردك ؟ .

— ضابط وجنوده .

وهم بلاريون ان يضيف كلاماً آخر وان يخبرهـا انه رجل ذهب ضحية الظواهر الخادعة . لكنها لم تكن في حاجة إلى

ذلك فقد القت خلفها نظرة إلى ما وراء العرجة . وقالت له .

– تعال ساخفيك ..

ثم ساورها القلق فجأة . فاردفت :

– اذا وجدوك هنا ضاع كل شيء . اختفي واتبعني

فقد تبعها بلاريون وهو يكاد يزحف على يديه وقدميه حتى وصل إلى قاعدة القنطرة المرمرية المؤدية إلى المعبد. وقالت له :

– انتظر . يجب ان نكون على تمام الحذر .

وادارت رأسها ونظرت إلى الحديقة المنخفضة . وسرعان ما شاهدت بريق اسلحة ورجالاً قادمين مسرعين من ناحية القصر . ومع ان بلاريون لم ينظر ما رأت فقد فهم حقيقة الموقف من دلائل الخوف التي ارتسمت في عينيها . وقالت له على الأثر :

– فات الوقت !. اذا صعدت الآن إلى القنطرة رأوك ..

واخبرته عن قدوم الجند. ثم برهنت له ذكائها وسعة حيلتها حين استطردت بعد قليل ..

– اصعد انت اولاً على يديك وقدميك . وسأتبعك حتى اجعل من نفسي ستاراً يحجبك عن الانظار . وارجو الا يروك.

فقال بلاريون وهو منبطح عند قدميها :

– هذا امل ضعيف يا سيدتي . واحسب اني وجدت وسيلة افضل .

تطلعت اليه عابسة . وقالت :

– وسيلة افضل ! . وما هي اذن ! .

كان بلاريون في هـذه الأثناء قد استخدم عينيه . فرأى لساناً من الأرض يمتد خلف المعبد تنبت فوقه طائفة من الأشجار المتشابكة الأغصان المدلاة أفرعها فوق المياه وقال بلاريون وهو يزحف متجهاً إلى حافة البحيرة .

– هذا الطريق ..

فهتفت الفتاة بحدة :

– الى أين تذهب ؟. الماء في البحيرة شديد العمق . هو يزيد عن قامتين ..

فقال بلاريون : هذا أفضل ولن يبحثوا عني هنا ..

وتنفس بلاريون بضع مرات استعداداً للغوص في مياه البحيرة . بينما هتفت الفتاة في قلق :

– آه .. انتظر ! اخبرني على الأقل ..

لكنه انسل الى الماء في هدوء ولم يبق من اثره سوى موجة أخذت تتلاشى رويداً ..

ووقفت الفتاة محتبسة الأنفاس تترقب رؤية الهارب يطفو رأسه فوق سطح المياه .. لكن تعاقبت الدقائق ولم ير شيئاً .. وفي هذه الأثناء كان الجنود يزيدون اقتراباً وقد جاء في اثرهم أولئك الرجال ذوو الملابس الزاهية الذين يتنزهون في أرجاء الحديقة السفلى . وفجأة سمعت الفتاة أحد الطيور المائية يرفرف بجناحيه مذعوراً قرب لسان الأرض المظلل بالأشجار المتشابكة ثم خيم السكون .. وخف جزع الفتاة بعد أن فهمت مغزى

هذه الأصوات ..

وضمت الفتاة حول كتفيها رداء رقيقاً واتجهت الى القادمين مستطلعة .. وكانوا أربعة من الجند يتقدمهم ذلك الضابط الشاب الذي غزا من قبل (حانة الغزال) . فقالت الفتـــاة في نبرات جافة وكأنما ساءها اقتحامهم لحديقتها :

– ما هذا ؟ عم تبحثون هنا ؟

فأجاب الضابط وهو يلهث :

– عن رجل يا سيدتي .

فتخطته الفتاة بنظرها وتطلعت الى القادمين في أثر الجنود. وكانوا خمسة يتقدمهم ثلاثة رجال في أرديـــة فخمة .. وقالت موجهة حديثها اليهم :

– رجل ؟ لا أتذكر اني رأيت مثل هذا النذير السيء هنا منذ أيام .. :

ضحك اثنان من هذا التعريض . اما الثالث فقد تورد وجهه وظهرت عليه دلائل الاستياء . وكان فتى في السادسة عشرة من عمره يشبه الفتاة في قسمات وجهها وإن كانت تنقصه قوة العزم التي كانت تبدو جلية في محياها .

كان هـذا الفتى هو المركيز (جيان جياكومو باليولوجو) أمير ولاية (مونتفيرا) .. أما صاحباه فأحدهما يدعى السيد (كورساريو) مربي الأمير ، وهو في الخامسة والثـــلاثين من عمره تلوح عليه أمارات المكر والخبث ..

والثاني هو السيد (كاستر وشيو دافنستر يللا) رفيق الامير ، وكان في الخامسة والعشرين من عمره زنبقي العينين وسيم الوجه شاحبه .

وقد التفت الامير الى رفيقه وقال له ساخطاً :

– هل تضحك يا كاستر وشيو ؟

وفي هذه الأثناء كان الضـــابط يصدر أوامره الى رجاله قائلاً :

– ليذهب اثنان منكم للتفتيش في الحديقة المجاورة للباب الخلفي وليتبعني الآخران .

ثم التفت الى الفتاة قبل أن تجيب شقيقها الامير . وقال لها:

– ألم تري أحداً يا صاحبة السمو ؟

فقالت الأميرة : أو لم أكن أخبرك إذا رأيت أحد ؟

– لكن من المحقق ان رجلا دخل هنا منذ بضع دقائق من باب الحديقة .

– هل رأيته يدخل ؟

– رأيت دلائل واضحة تشير إلى دخوله .

– دلائل ؟ وما هي ..

فأخبرها الضابط . فقالت الأميرة :

– هذا مبرر واه لاقتحامك هذا المكان يا سيد (برنابو) .

فلاحت على وجه الضابط علائم القلق . وقال :

– انك تخطئين تقـــدير الدوافع التي حملتني على الدخول يا صاحبة السمو .

فأدارت له الأميرة كتفيها قائلة: أرجو أن يكون ما تقول.

والتفت الضابط الى الجنديين الباقيين قائلا : الى المعبد ! .

فواجهته الاميرة غاضبة وقالت : بغير اذني ؟ ان هذا المعبد يا سيدي هو حرمي الخاص .

فتردد الضابط وسقط في يده .. ثم قال :

– ليس في الوقت الحـــالي يا صاحبة السمو .. فهو الآن في أيدى العمال .. وقد يكون هذا الرجل مختبئاً فيه .

– لا يمكن أن يكون في المعبد دون علمي . فأنا الآن قادمة من هناك ..

– لقد خانتك الذاكرة يا صاحبة السمو . فقد رأيتك قادمة من ناحية الحديقة المقفلة .

تورد محيا الأميرة . ثم قالت بعد لحظة :

– إن لك نظرا شديد الحدة يا (برنابو) . ولن أنسى لك هذا الموقف ، موقف الشك في كلامي .

ثم أردفت بلهجة الازدراء : تفضل فتش دون أن تهتم بي .

وقف الضابط لحظة مترددا .. ثم انحنى أمامها متصلبا .. وأومأ الى الجنديين وارتقى الثلاثة القنطرة المرمرية قاصدين الى المعبد .

وبعد دقائق عاد الضابط خائباً مع رجاله الاربعة . فقالت له الاميرة فاليريا ساخرة :

– إذن فقد عدت صفر اليدين !.

فقال الضابط في لهجة السخط : اراهن بحياتي انه دخـــل الحديقة .

– لن تخسر شيئاً ذا قيمة .

فتجاهل الضابط تهكمها ومـــا أثار من ضحك رفاقها .. وقال :

– لا بد ان يكون قد لجأ الى صاحب السمو .. هل تؤكدين يا صاحبة السمو انك لم تري أحداً ؟

– ويحك يا رجل ! هـل تجسر بعد على استجوابي ؟ . ومع ذلك مـــا دمت بهذه الثقة ، فعلام إضاعة الوقت في السؤال ؟ استمر في تفتيشك .

فالتفت الضابط الى رفاق الأميرة قائلا :

– سادتي وسيداتي .. ألم ير أحدكم هذا الشقي ؟ هو شاب طويل القامة يرتدي ثوباً أخضر اللون .

فهتفت الاميرة فاليريا: ثوب أخضر؟ هذا طريف في الواقع! ربما كان عفريت الغابة ! أو ربما كان أخي !

فهز الضابط رأسه قائلا : هذا غير ممكن .

وقال المركيز الفتى : لست أرتـــدي ثوباً أخضر .. ولم

أغادر هذه الحديقة..هي تسخر منك يا سيد برنابو وهذا غرامها بالمزاح اللعين ! نحن لم نر أحداً ..

فقال الضابط موجهاً حديثه الى المربي آملا أن يظفر عنده بالجواب الرصين :

– ولا انت يا سيد كورساريو ؟

فأجاب مربي الامير : كلا .. لكننا كنا على مسافة من هنا كما لاحظت .. على ان الاميرة التي كانت في هذه المنطقة تؤكد انها لم تشاهد أحداً ..

فقال الضابط في إصرار : آه وهل سموها تؤكد ذلك حقاً ؟

فتخطته الاميرة فاليريا بنظرها وقالت بازدراء :

– انكم جميعاً سمعتم ما قلته .. وليس في الاعادة افادة ..

فقال الضابط مستنجداً بهم : هل رأيتم !

فانبرى شقيق الاميرة لنجدة الضابط قائلا :

– لم لا يكون جوابك قاطعاً يا فاليريا : لم تحاولين دائماً أن تكوني لبقة ؟.. لم لا تقولين « لا » صراحة ؟..

– لاني قد أبديت جوابي قبل الآن واضحاً صريحاً ، فلم يلق آذاناً واعية ولن أهيء للسيد برنابو فرصة أخرى لتكرار إهانة لن أنساها .. ثم انثنت حولها وأردفت :

– تعالى يا ديونارا .. وأنت يا ايزوتا .. ان الطقس يميل الى البرودة ..

وقصدت الاميرة الى الحديقة السفلى والى القصر .. تتبعها وصيفتاها ..

ووقف الضابط يفرك دقنه متحيرا .. فقال له كاستروشيو مؤنباً :

– من الحمق يا برنابو ان تثير غضب الاميرة .. وفوق ذلك ، فمن هذا الذي تبحث عنه وتطارده بمثل هذا الالحاح ؟..

فأجاب الضابط وقد شحب وجهه استياء :

– هو شقي كبير ومجرم خطير .. هو من رفاق لورنزاشيو داورينو ، وقد أفلت من أيدينا منذ ساعة ..

فهتف كورساريو ذهولا : يا للشيطان !..

ثم أردف وهو يضحك : وهـــل تتصور ان الاميرة فاليريا تخفي مجرماً ؟

– وهل يتصور أحد ما تفعله الاميرة فاليريا ؟

فقال كاستروشيو رفيق الامير :

– اني أتصور شيئاً واحدا هو ان الاميرة ستفقأ عينيك إذا وجدت السلطة الكافية ..

فضحك الامير طربا من كلام رفيقه .. أما الضابط فقـــد تأملها لحظة ثم قال :

– سادتي .. سأستأنف التفتيش ..

وواصل الضـابط بحثه في أرجاء الحديقة حتى خيم الظلام دون أن يفوز بثمرة .: واستخلص آخر الامر انـــه اخطأ في

اعتقاده ان الهارب قد التجأ الى هذه الحديقة ، او ان ذلك الشقي قد اهتدى الى منفذ الى الخارج وبات الآن بعيدا عن متناول يده .

وهكذا انصرف الضابط ورجاله يجرون أذيال الخيبة بين سخرية النبلاء الثلاثة وتهكمهم . ثم دلف هؤلاء الى القصر لتناول طعام العشاء .

الفصل الخامس

الاميرة

وخرج بلاريون من البحيرة في حالة محزنة بعد ان امضى ساعتين غائصاً في مياهها حتى عنقه حاجباً رأسه بين أغصان الاشجار المتشابكة .. على انه لم يبتعد عن لسان الارض الممتد خلف المعبد المرمري ، بل جلس هناك على تمام الاستعداد للانغمار في البحيرة مرة أخرى حالما تبدو له بوادر الخطر .

وفيما هو يفكر في امره ويقدح ذهنه للخلاص من هذا المأزق الذي قادته اليه مرافقته لراهب زالف ارتاب في امره منذ اللحظة الاولى إذا به يسمع أصواتا نسائية تدنو منه ، ثم لمح في ضوء القمر الذي بزغ منذ قليل سيدتين ترتقيان درجات القنطرة المرمرية .. حتى إذا بلغتا أعلاها وقفتا تتأملان قليلا مياه البحيرة تحت أقدامها وتتبادلان الحديث بأصوات خافتة . ثم

هبطتا الدرجات القريبة واختفتا في داخل المعبد .. وما هي إلا لحظات حتى ظهرت إحداهما على لسان الأرهى حيث جلس بلاريون . وراحت تناديه قائلة :

– يا هذا .. يا هذا ..

فعرف فيها على الفور شخص الأميرة فاليريا . وفي اللحظة التالية برز أمامها فجأة كأنما انشقت الأرض الرخوة عنه .. فعالجت الاميرة كتمان صرخة كادت تبدو منها .. وعرفته . وقالت له في صوت رقيق ينم عن القلق :

– لا بد انك شديد الابتلال والبرد يا سيدي .

فقال بلاريون بصراحة : أنا مبتل كالغريق .. وبارد مثله أيضاً .. ليتني اطمئن الى انهم سيدعونني أجف قبل أن يشنقوني؟

فضحكت الاميرة ضحكة رقيقة من دعابته وقالت له :

– لا .. اننا جئنا بالوسائل التي تهيء لك ان تنال الجفاف والراحة . لكن كان تهوراً منك أن تدخل هنا قبل ان تستوثق من انهم لا يراقبونك .

– انهم لم يراقبوني يا سيدتي . وإلا فلتثقي بأني ما كنت أدخل .

فقالت في نبرات تشف عن القلق :

– لم يراقبوك؟ومع ذلك. آه! ان هناك ما كنت أخشاه.. لكن تعال .. لقد جئناك بملابس جديدة .. ومتى ارتديتها كان لك ان تقص علي كل شيء .

وقادته الأميرة الى داخل المعبد المرمري المكون من غرفة واحدة كانت الوصيفة ديونارا تنتظر بداخلها . وكان بالمتبدد ضوء يسير ينبعث من مصباح وضع فوق طاولة مرمرية تتوسطه. وبه فوق ذلك بضعة مقاعد مكسوة بقماش خشن وصندوق ضخم على هيئة التابوت ذو نقوش ملونة .. وكانت أرهى المعبد المرمرية في شكل مزولة نقشت في دائرتها أرقام الساعات .. وفي سقفه فتحة مستديرة تسقط منها أشعة الشمس بنظام خاص، فيكون لها ظل متحرك يبين ساعات النهار على الأرهى المرمرية الناصعة .

ورأى بلاريون حول الجدران وقرب السقف منصات خشبية ادرك منها ان هناك اصلاحات تجري في المعبد لتجديد طلائه ونقوشه . وشاهد فوق المائدة المرمرية لفافة من الملابس الحمراء قررت له الاميرة انها جاءته بها خصيصاً لكي يرتديها فيتخلص من ملابسه المبللة ويضلل مطارديه الذين يعرفونه بملابسه الخضراء.. وأخبرته انها ستخرج مع وصيفتها وتنتظرانه في الحديقة ريثما يبدل ملابسه ، حتى إذا سمع عزف قيثاره فهم من هذه الإشارة ان هناك خطراً يوشك ان يحل به ، وما عليه إلا أن يحمل الملابس ويطفىء المصباح ويختفي في داخل التابوت بعد أن ينزع المفتاح من قفله ويوصد مزلاجه من الداخل فيأمن كل خطر .. وفي وسعه ان يتنفس من فتحة القفل إذا قضي عليه حقاً أن يلجأ إلى ظلام التابوت . فاذا لم تلجئه الضرورة إلى

ذلك كان عليه أن يبدل ملابسه في غصون مهلة غايتها عشر دقائق . ثم يدس الملابس المبللة في التابوت حيث تعدم فيما بعد .

وانصرفت الأميرة فجأة بعد أن لقنته هذه التعليمات . وما كاد بلاريون يصير وحده حتى سارع الى نزع ملابسه المبللة وتدليك جسده حتى تجري الدماء في عروقه وقد كادت تجمد من البرد . ثم ارتدى الملابس الحمراء الفاخرة وهو يحمد لهذه السيدة الكريمة مروءتها وحضور بديهتها . وفجأة أقبلت عليه بلا استئذان كما خرجت بعد أن أتم زينته . وقالت له بلا مقدمات :

والآن يا سيدي . علي برسالتك ؟

فتطلع اليها بلاريون في دهشة وقال بتؤدة :

— رسالتي ؟

فقالت في تبرم يسير : نعم . رسالتك . ماذا حدث ؟ ماذا جرى للسيد (حيفريدر) ؟ لم لم يتصل بي منذ اسبوعين ؟. وما الذي عهد اليك السيد (باربارسكو) لإبلاغي إياه ؟ تكلم يا سيدي لا داعي للتردد . لا ريب انك تعلم اني أنا الأميرة فاليريا اميرة (مونتفيرا) ؟

لم يدرك بلاريون من كل هذا الحديث سوى انه في حضرة أميرة جليلة ، هي شقيقة امير (مونتفيرا) . وقال لها في شيء من التبلد :

— لست أفهم يا سيدتي . أنا لست رسولاً . و..

فدفعت رأسها الى الأمام وقالت وقد لمعت عيناها :

— لست رسولاً ؟ ألم تكن موفداً إلي ؟ أجب يا رجل !. أثم ترسل إلي ؟

— إنما أرسلتني عناية ربانية رحيمة أرادت أن تدخرني لغاية أخرى غير الإعدام شنقاً .

جعلت الاميرة تتفرس فيه بنظرات غامضة ثم قالت بعد صمت طويل :

— إذن لم جئت إلى هنا ؟.. الكي تتجسس ؟.. لا.. لا.. لست جاسوساً .. لو كنت جاسوساً لاتخذت خطة أخرى.. من أنت إذن ؟

— ما أنا إلا طالب بائس في رحلة لدراسة الحياة عن كثب دراسة كانت أعجل مما يقوى على هضمه ؟ أما كيف جئت إلى حديقتك ، فدعيني أقص عليك قصتي .

وسرد عليها بلاريون أحداث يومه الحافل في دقة تامة .. وما كاد يفرغ من قصته حتى تلاشت من محياها إمارات الغضب ولاحت ابتسامة يسيرة على زاويتي فمها .. فأدرك بلاريون انها وإن كان قد آوته خطا فليس في نيتها أن تغلظ في معاملته لما سبب لها من خيبة أمل .

وقالت له : وكنت أظن ..

وكفت عن اتمام جملتها وهي تضحك ضحكة كانت مزيجاً من الطرب والمرارة .. ثم أردفت ؟

– لقد كانت هذه فرصة طيبة لك يا حضرة الهارب.. ماذا أصنع بك الآن ؟

فأجابها، لا بلهجة طالب بائس مغمور يخاطب اميرة جليلة، ولكن بأسلوب الند للند .. اسلوب شاب يخاطب شابة :

– إذا كنت يا سيدتي ما يدل عليه وجهك، فلعلك تدعينني انتفع بهذا الالتباس الذي لن يكلفك سوى هذه الملابس .

فقاطعته قائلة : وما قيمتها عندي ؟

ثم عبست وقالت : لكني تفوهت بأسماء معينة أمامك .

– أحقاً ؟ اني نسيت هذه الأسماء .. ان الذاكرة الجيدة يا سيدتي تتمثل جودتهـا في المقدرة على النسيان كمقدرتها على التذكر .. وإن لي ذاكرة جيدة حقاً .. وحالمـا أخرج من الحديقة فلن أذكر اني كنت فيها أبداً ..

فقالت في تؤدة بعد صمت :

– لو كنت أستطيع أن أثق بك .

وكفت عن اتمام جملتها .. فقال بلاريون باسماً :

– إذا لم تكوني واثقة حقاً فخير لك أن تدعي الجنود الى هنا .. لكن إذا فعلت فكيف تطمئنين الى اني في هذه الحالة لن استعيد ذكري هـذه الأسماء التي نطقتها أمـامي ، والتي نسيتها ؟

– آه ! هل تهدد ؟

فاهت الأميرة بهذه الجملة لاهثة وقدرفعت يدها الى صدرها.

فأدرك بلاريون ان استنتاجه قد مس وتراً حساساً .. وان هذه الأميرة غارقة في مؤامرات سرية .. فبادرها قائلا :

كلا يا سيدي .. اني أبين لك فقط انه لا بد لك من الثقة بي .. لان ارتيـابك في أمري يعني عجزك سواء في اعتقالي أو في إطلاق سراحي .

– أراك يا سيدي أكثر دهاء مما يكون عادة لانسان نشأ في الدير !

– ان الانسان يتعلم نصيباً موفورا من الدهاء في الاديرة يا سيدتي . على أنـك إذا وثقت بي فقد يكون في وسعك أن تنتفعي بي ، وهكذا تنالي جزاءك .

– انتفع بك ؟

– كرسول .. في مكان ذلك الذي كنت تنتظرين .. ذلك إذا كانت عندك رسائل تحبين توجيهها ، كما هو اعتقادي .

– هل تظن ذلك ؟

– مما قلته ..

فنالت في ارتياب ظاهر : أنا لم أقل شيئاً يذكر .

– لكني استخلصت أمورا كثيرة .. دعيني أسرد عليـك استنتاجاتي .. فقـد كنت تنتظرين رسولاً من شخص يدعي السيد (باربارِيـكو) .. وقد تركت باب الحديقـة الخلفي منفرجاً لكي تسهلي دخوله متى جاء .. وكنت تراقبين وصوله وحدك .. وكانت وصيفتاك في الحديقة السفلى تشاغلان السادة

www.liilas.com/vb3 KAKAHEENA

وتحولان دون وصولهم الى الحديقة المقفلة حيث كنت تنتظرين.. ومن هذه الدلائل استخلص من حركاتك دليل القلق والرغبة في التكتم .. وقد أثار قلقك انك لم تتلقي رسالة مـــا طوال الاسبوعين الماضيين وان السيد جيفريدو الرسول المعتاد لم يتصل بك .. وكأني بـــك خفت ان يكون السيد باربارييسكو او الرسول جيفريدو قد حل بهما سوء . وهذا دليل على ان الأحمال التي هذه الرسائل نتيجة لها هي من لون خطر .. فهل ترينني وفقت في الاستنتاج يا سيدتي ؟

– بل أحسبك أكثر توفيقا مما تصور نفسك .

– ذلك لانك لم تألفي الاستدلال المنطقي يا سيدتي.. وهذه عملية نادرة .

فقالت بازدراء : الاستدلال المنطقي ؟ هل تعرف يا سيدي ما الذي يؤدي اليه استدلالي الخاص : هو يؤدي الى نتيجـــة واحدة .. وهي انك أوفدت خصيصا لإيقاعي في شرك .

فابتسم مطمئنا .. وهز رأسه قائلا :

– هذا استدلال غير موفق .. هل كنت أطارد الى هنا لو انني أوفدت لهذه الغاية ؟ أو لم أكن أجيء مزودا بأيـة رسالة حتى تطمئني الى انني ذلك الرسول الذي سارعت لحسباني إياه؟

اقتنعت بهذا القول .. بيـــد انها لم تتغلب على ترددها .. وقالت :

– لكن إذا صح كلامك ، فما الذي يدفعك الى خدمتي ؟

– هو الرغبة في ابداء شكري لمن أنقذت حياتي .

– لكنني فعلت ذلك تحت تأثير التباسي وما كان ذلـــك ليوجب شكرك ..

– أحب أن أعتقد يا سيدتي انك كنت تبدين هذه المروءة ذاتها حتى لو لم يقع هذا الالتباس .. ثم هناك هـــذه الملابس الجميلة التي أحب ان أوفي ديني لأجلها .. وفوق هذا كله فهناك الرغبة في خدمة سيدة محتاجة الى هذه الخدمة .. تلك الرغبة التي لا تستغرب في أي انسان ذي مروءة .

جعلت الاميرة تتأمله لحظة .. ثم قالت له :

– إن هذه الخدمة قد تقتضيك من المجازفة والتعرض للخطر ما يفوق ما تعرضت له هذه الليلة .

فأجاب بلاريون : ان المجازفة تحبب الأعمـال .. والذكاء يبدد أخطارها .

فابتسمت ابتسامة عريضة وقالت له :

– ان لك ثقة كبرى بذكائك يا سيدي .

– لعلك تشيرين الى خيبتي في أحداث هذا اليوم .. لكن ثقي ان العبرة المستفادة منهـا ستكون درسا لا ينسى .. ولن تخدعني الظواهر بعد اليوم .

فقالت الأميرة : لا بأس .. اليك رسالة لاختبارك

ولقنته رسالة كانت مثال الحرص ولا يمكن أن ينالهـا منها سوء إذا افتضح أمرها . فكان عليـــه أن يسعى لمقابلة السيد

باربارسكو الذي لم تقل من أمره سوى أنه يقيم في دار قائمة خلف الكاتدرائية يستطيع أن يستدل عليها من أي عابر سبيل. حتى إذا اجتمع بـــه استفسر عن صحته وقرر له ان ركود الانباء يثير قلقها .. أعطته نصف جنيه مكسور ليكون دليلا على ايفاده من عندها واختتمت حديثها معه قائلة :

– ستجد باب الحديقة الخلفي منفرجاً في مساء الغد في مثل الساعة التي جئت فيها اليوم .. وسأكون في انتظارك .

الفصل السادس

تصاريف القدر

كان (لورانزشيو دانرينو) مسئولا عن ادماج بلاريون ظلماً في زمرة الخارجين على القانون .. وعن ايفـــاده في هذة المهمة التي تنتهي ولا ريب الى غاية تختلف كل الاختلاف عن تلك الغاية التي كان يسعى اليها حين غادر ميتم سيليانو قاصداً الى جامعة (بافيا) للتضلع في العلم ودراسة اللغة الاغريقية واسترداد ايمانه بريئاً من كل شوائب الزيغ والانحراف ! .

وقد خرج بلاريون من باب الحديقة الخلفي بعد ان استوثق من خلوه من الرقابة .. وسار مسرعـــاً حتى وصل إلى ساحة الكاتدرائية . ولما القى نفسه فجأة ازاء طائفة الشرطة الليليين تكلف الترنح في مشيته ، وراح يغني بصوت مرتفع .

وقد حسبه رئيس الشرطة سكيراً معربداً . فنهره وانذره الا يعكر سكون الليل .. وسأله عن هويته ، ومن اين جاء ، والى اين يقصد .

لم يكن بلاريون يتوقع هذه المفاجأة .. بيد انه استعان بحيلته ودهائه .. فقرر انه جاء من (سيليالو) برسالة من رئيس الدير الى رئيس دير (اوغسطين) الذي دعاه الى تناول العشاء معه .. وانه نازل عند ابن عم له يدعى السيد (باربارسكو) ولكنه يجد عناء في الاهتداء الى داره نظراً لوصوله اليوم فقط. الى (كازالي) : فاقتنع رئيس الشرطة بقصته وتطوع بارشاده الى الدار اما شفقة عليه أو طمعاً في المكافأة .

ولما وصل الجميع الى الحارة الممتدة خلف الكاتدرائية وقف رئيس الشرطة امام أحسن دار فيها وقرع بابها عالياً . فصدر من احدى نوافذها العليا صوت يستفسر عن الطارق . فاجاب رئيس الشرطة :

— هو ابن عم فخامتكم عائداً إلى البيت . عجلوا بفتح الباب.

وقد سمع همس صادر من أعلى الدار . ووقف بلاريون ينتظر النتيجة التي كان يترقبها مشفقا . ثم صاح صائح :

أي ابن عم هذا ؟ . لست في انتظار ابن عم مـا في هذه الساعة ! .

فقال بلاريون لرئيس الشرطة :

— هو غاضب مني لاني كنت قد وعدته بالعودة مبكراً

لتناول العشاء معه .

ثم رفع بلاريون رأسه وقال في صوت عال متزن :

— ولو اني عدت في ساعة متأخرة يا ابن العم . فارجوك ان لا تدعني انتظر هنا . ادخلني وسافسر لك كل شيء . كما أرجو ان تحضر معك جنيهاً لمكافأة هؤلاء الرفاق الطيبين . فاني قد وعدتهم بجنيه وليس معي سوى نصف جنيه فقط . ويا له من نصف جنيه ؟! فهو مكسور أيضاً ! .

راح الشرطة يتبادلون الابتسام ازاء هذا الكلام الفارغ الذي عزوه إلى سكر صاحبهم . وخيم الصمت لحظة . ثم قال المتكلم في النافذة : انتظر .

واغلق مصراعها ..

وما هي إلا لحظات حتى أزيح المزلاج وفتح الباب الضخم وبدا لهم رجل قوي البنيـة في رداء نوم قرمزي . وكان يحمل بيده شمعة كشف ضوءها عن وجه مورد ممتلىء وانف مقوس وعينين زرقاوين . وسارع بلاريون قائلا :

أرجو ان تقبل عذري يا ابن العم . وكان يجدر بي ان أعود مبكراً . ان هؤلاء الرفاق الطيبين ابدوا نحوي رفقاً مشكوراً في هذه المدينة الغريبة عني .

كان بلاريون يتقدم الشرطة قليلا . فشفع هذه الكلمـات بغمزة من طرف عينه . ثم استطرد :

— امنحهم الجنيه مكافأة لهم على تعبهم يا ابن العم . ودعهم

يعودوا في رعاية الله .

والظاهر ان صاحب الدار أو ابن العم المزعوم جاء مستعدا. فانه قال لرئيس الشرطة :

– اشكر لك يا سيدي مساعدتك لابن عمي إذ هو غريب منا ..

ثم دس جنيها في يد رئيس الشرطة الممدودة ، وتنحى قليلا عن مدخل الدار قائلا :

– ادخل يا ابن العم ..

على ان صاحب الدار ما كاد يقف وحده في الممشى مع زائره حتى تبدلت لهجته ، وقال له :

– من انت بحق الشيطان ؟ . وماذا تريد ؟

فابتسم بلاريون ابتسامة عريضة وتلاشت من هيئته دلائل السكر وأجاب :

– لو لم تكن تعرف الجواب عن هذه الاسئلة سلفاً لما ادخلتني دارك ، ولما اضعت جنيهك يا سيدي . انا من عرفتني بذكائك . وقد زعمت للشرطة اني ابن عمك ، واني نازل عندك في زيارة لهذه المدينة . ولكي لا تناقض أقوالي فاني ذكرت نصف الجنيه المكسور ككلمة السر وشعار المرور .

فقال باربارييسكو مزمجرا : لقد كان هذا براعة منك .. من أوفدك ؟ .

– يا الهي ! . ما أعجب هذه الاسئلة التي لا لزوم لها ! . هي

الاميرة فاليريا التي اوفدتني بالطبع . انظر .

وأخرج بلاريون من جيبه نصف الجنيه المكسور وأراه لصاحب الدار فتناوله هذا وفحصه في ضوء الشمعة ثم رده إلى بلاريون . ودعاه للصعود معه . وقاده إلى غرفة منخفضة السقف تربة الأرض اضاء شموعها فكشف الضوء على اثاث عتيق يسير يعلوه الغبار . ثم جذب مقعدا إلى خوان تناثرت فوقه الأوراق وادوات الكتابة . ودعا ضيفه إلى الجلوس في مقعدا وسأله عن اسمه . فأجابه :

– بلاريون .

– انا لم اسمع عن اسرة بهذا اللقب .

– ولا انا ايضاً . لكن هذا لا يهم . فهو اسم يؤدي الغرض كأي اسم آخر !

فتقبل باربارييسكو هذا الجواب بلا تعليق . ثم قال :

– ورسالتك ؟

– لم اجيء برسالة ما . وانما جئت لتلقي رسالة من عندك . ان سمو الاميرة جازعة لانقطاع الانباء من عندك ، ولان السيد جيفريدو لم يتصل بها منذ اسبوعين رغم انتظارها المتصل .

لم يكن بلاريون يعرف من هو جيفريدو هذا . لكنه أيقن ان مجرد ذكر اسمه سيكسبه ثقة باربارييسكو به واطمئنانه اليه . وفوق ذلك فهو قد اعتزم ان يتجاوز حدود المهمة التي عهدت اليه الاميرة بها ويعرف ما يستطيع معرفته . بينما اجاب

صاحب الدار .

ان جيفريدو خائف . فهو مخلوق ضعيف القلب . وهو قد توهم انهم رأوه حين غادر القصر من باب الحديقة الخلفي لآخر مرة ولم ينفع اي اغراء في حمله على الذهاب مرة أخرى .

استخلص بلاريون من هذا الكلام انه مهما كان لون هذه المؤامرة فهي لا تمت إلى الغرام بسبب . ولم يكن جيفريدو سوى مجرد رسول واستبعد ان يكون باربارِيسكو يقوم بدور العاشق وهو يناهز الخمسين من عمره .

وقال بلاريون : ألم يكن ايفاد رسول آخر بدله ؟ .

ليس ايجاد الرسول بالامر اليسير يا صديقي . وفوق هذا فانه لم يحدث جديد في غضون الاسبوعين الماضيين حتى نبلغ سمو الاميرة شيئاً .

— لا ريب انه كان من الضروري ابلاغ سمو الاميرة حتى هذا اليسير ، تسكيناً لقلقها الطبيعي ! .

مال باربارِيسكو في مقعده إلى الخلف . وتفرس في وجه بلاريون برصانة وقال له : اراك عليما ببواطن الأمور يا سيدي الشاب . فما هي صفتك حتى تظفر من سمو الاميرة بهذه الثقة ؟

فاجاب بلاريون وكان متأهبا لهذا السؤال :

— انا احد الكتاب في القصر ، وقد استوجبت طبيعة عملي ان اكون وثيق الاتصال بسمو الاميرة .

كانت هذه كذبة جريئة . لكن باربارِيسكو اومأ برأسه

متباطئا . وقال :

— وما هو مدى اهتمامك بسمو الاميرة ؟

— كل ما هنالك هو رغبتي في خدمتها .

وابتسم بلاريون ابتسامة غامضة . فقال باربارِيسكو :

— ان لك مطامع اذن !. لا بأس . ان المطامع هي أكبر حافز على العمل !.

وابتسم باربارِيسكو بدوره ابتسامة ملتوية . فادرك بلاريون من فوره انه امام رجل نفعي . وارتاب في حسن طويته منذ اللحظة الاولى . لكن بلاريون كان من الدهاء بحيث يخفي ما يدور بخاطره بل انه ابتسم مثل ابتسامته حتى يشعره بانه صنو له في نفعيته ثم جازف بالقاء الجملة التالية :

— ان ما تطمع سمو الاميرة في ان اجيء لها بتفسيره هو .. ركودك .

أثارت هذه الكلمة غضب باربارِيسكو . فقال في صوت مختنق .

— ركود !.

وهكذا راح بلاريون يستدرج باربارِيسكو بمختلف الاساليب الجدلية حتى استطاع ان يستخلص منه الحقيقة ويقف على مدى المؤامرة التي تدبرها الاميرة فاليريا بمساعده طائفة من نبلاء (مونتفيرا) على رأسهم باربارِيسكو نفسه .

علم بلاريون ان ولاية (مونتفيرا) يحكمها في الوقت الحالي

المركيز تيودور كوصي على العرش بالنيابة عن ابن اخيه جيان جيا كومو أمير الولاية الشرعي القاصر . وان هذا المركيز رجل واسع الحيلة عظيم الدهاء أراد ان يستأثر بعرش الولاية حين يبلغ أميرها سن الرشد ..

وقد توسل لهذه الغاية بخطة تشف عن مبلغ دهائه ومكره. فجعل يتظاهر امام اعين الشعب بالغيرة على مصالحهم والتفاني في خدمته والاستمساك باهداب الفضائل والعدالة حتى اكتسب محبة الناس وتعلقهم بشخصه واطرائهم لحكمه . وفي نفس الوقت راح هذا الوصي الماكر يعمل على تنفير أفراد الشعب من اميرهم الشرعي واظهاره أمام انظارهم بمظهر الغافل عن مصالحهم المنهمك في اشباع شهواته الخاصة . حتى اذا حان وقت التخلي عن العرش عند بلوغ الأمير سن الرشد اندفع الشعب بمحض رغبته إلى استبقاء الوصي ونبذ الأمير الشرعي ، وهكذا يفوز المركيز تيودور بغايته بغير اهراق دماء .

ومن سوء حظ الأمير الشرعي انه كان بطبعه ضعيف الارادة سهل القياد . فاستغل المركيز تيودور هذا الضعف الطبيعي ووضع الأمير تحت رعاية مرب فاسد الخلق عديم الضمير هو كورساريو سالف الذكر . وقد عمل هذا المربي على قتل مواهب الأمير وافساد مداركه حتى كان مثال الجهل والخلال الاخلاق. كما ضم اليه شاباً خليعاً ماجناً هو كاستروشيو بوصفه وصيفاً للأمير وصديقاً له . ومن السهل ان يتصور القارىء بعد هذا كله

كيف استوجب الأمير ازدراء الشعب له واستخفافه بأمره واعراضه عنه .

★★★

وهكذا استطاع بلاريون ان يعرف أغراض المركيز تيودور ومطامعه ويقف على مدى المؤامرة السرية التي تدبر لاحباط لواياه .

وكانت الأميرة فاليريا قلب المؤامرة وباربارسكو رأسها المدبر . وكان الغرض من هذه الحركة هو اقصاء المركيز تيودور عن الوصايا ووضع مقاليد الحكم في هيئة أيدي مجلس وصاية حتى يبلغ الأمير سن الرشد . وفهم بلاريون ان باربارسكو يرشح نفسه لرئاسة هذا المجلس.

وقال بلاريون يعرب عن ارتيابه في المستقبل :

— ان العقبة الكبرى هي ان المركيز تيودور يستأثر بمحبة الشعب واحترامه .

فرفع باربارسكو رأسه ودفع صدره إلى الامام قائلاً :

— ان عين الله ترعى كل غاية شريفة ومقصد نبيل عادل .

— ان ارتيابي ينصب في الواقع على الأسباب المادية التي في متناول أيدينا .

لكن باربارسكو رأسه مال إلى التحفظ في اقواله وراح يجيب اجابات غامضة لولبية . وكل ما قرره في هذا الصدد انهم

يعملون في الوقت الحالي على كشف أغراض المركيز الحقيقية واظهار خطته على وجهها السافر المجرد . وان هناك طائفة من النبلاء قد انضموا تحت لواء هذه الحركة الجديدة وهم يعملون الآن على نشر الحقيقة واذاعتها بين الناس . ودعا باربارسكو بلاريون إلى ان ينقل هذه التأكيدات إلى الاميرة حتى تزيد اطمئناناً لكن بلاريون كان يريد ان ينفذ ببصره إلى لب المؤامرة الحقيقي فقال له :

– ان هذا لا يضيف شيئاً إلى ما تعلمه الاميرة في الوقت الحالي ولا يمكن ان يهدىء قلقها أو يسكن مخاوفها . وهي تريد بيانات أوفى وأكثر تحديداً .

فاستاء باربارسكو ودعا الاميرة إلى الاستمساك بحبل الصبر والثقة بهم . ولما رأى الحاح بلاريون وعده غاضباً ان يجمعه في الغد بزعماء المؤامرة حتى يقف منهم على التفصيلات التي يريد الوقوف عليها نيابة عن الاميرة فاليريا .

ولما ظفر بلاريون بهذه النتيجة وطابت نفسه بما وصل اليه ، التمس من النبيل أن يبقيه في داره هذه الليلة . فقاده إلى غرفة رثة باليه الاثاث أمضى فيها بلاريون سواد الليل وهو يفكر في قصة هذا الوصي الخبيث الطوية والغلام الطائش الأرعن ، والاميرة الكريمة النفس الباسلة الفؤاد التي اقدمت على عمل ضخم قد يقضي بها وبشقيقها إلى الدمار .

الفصل السابع

خدمة

جمع باربارسكو في داره في ضحى اليوم التالي استجابة لالحاح بلاريون (ممثل) الاميرة فاليريا طائفة من النبلاء المشتركين معه في التآمر على المركيز تيودور . وكان بينهم أربعة أقصاهم الامير عن الولاية ، ولكنهم جاءوا خفية بايعاز من باربارسكو .

ومع انهم تبسطوا في الحديث فانهم التزموا الغموض والتحفظ في صدد الخطة العملية التي يتوسلون بها لتنفيذ غايتهم . فانبرى بلاريون يجرأة لحملهم على الكلام قائلاً :

– سادتي . هذا كله لا يكاد يفضي بنا إلى نتيجة . وماذا أقول حقاً لسمو الاميرة ؟ . هل اقول لها ان بعض نبلاء مونتفيرا يعقدون مجرد اجتماعات للمناقشة في مساوىء شقيقها ؟ .

أهذا كل شيء ؟ .

راح الجميع يحدقون في بلاريون عابسين وأخذوا يتبادلون النظرات فيما بينهم . وأخيراً ضحك الكونت سبينو وهو شاب نحيل القامة صلب العود كان أشد الموجودين عداوة للمركيز تيودور وقال :

– انك على حق يا صديقي . اننا سنكون جديرين حقاً بازدراء الاميرة اذا كانت خطتنا لا تعدو مجرد .

وما كاد سبينو يصل إلى هذا الحد من الحديث حتى ارتفعت اصوات المتآمرين احتجاجاً . بيد انه تجاهل مزدرياً . وقال :

ان جندياً قام بالتدريب والتسلح سيتولى .

وسرعان ما تعالى صياح الغضب والاستنكار من أفواه المتآمرين حتى اضطر الكونت سبينو إلى السكوت . ثم قال باربارسكو محاولاً أن يزيل من نفس بلاريون ما يكون قد انطبع فيها من أثر هذا التصريح الخطير :

– لا تبال كلامه يا سيدي . فهو يغرينا أبداً باتخاذ الخطط المرسومة بالتهور والاندفاع . وهو قليل الصبر كثير التسرع . والتسرع هو اخطر سلاح ينال من هذه الشؤون .

لم ينخدع بلاريون بهذه الكلمات . وايقن ان سبينو أوشك ان يبوح بالخطة المرسومة لولا احتجاجهم وتدخلهم . بيد انه أدرك من ناحية أخرى انه لن يغادر هذا البيت حياً اذا ابدى لهم ما خامره من الارتياب في هذا الصدد . ولذا تظاهر بعدم

المبالاة . وقال وهو يهز كتفيه تبرماً :

– لكن الصبر في مجال كهذا انما يفضي إلى عكس الغاية المرجوة وانا أكثر تقديرا لمن يندفع مني لمن يلتزمون الصبر بينما يمر الوقت مر السحاب .

فقال باربارسكو مؤنباً : ذلك يا سيدي لانك في مقتبل العمر وسيختلف نظرك إلى الاشياء كلما تقدم بك العمر .

فقال بلاريون لكي يزيدهم اطمئناناً اليه :

– مهما يكن ففي رأيي ان رسالتكم إلى سمو الاميرة ليست بذات قيمة .

وتهالك بلاريون في أحد المقاعد وهو يتكلف التبرم .

ثم انفض المؤتمر بعد قليل . وتفرق المؤتمرون فرادي . واقتدى بلاريون بهم بعد ان وعد باربارسكو ان يعود اليه ليلا لكي يوافيه بما قد تحب الاميرة ابلاغه اياه . على انه قبل ان ينصرف القى عليه السؤال التالي :

– هل يمكنك ان تخبرني بمن يتولى عملية طلاء المعبد المرمري في قصر الاميرة .

عجب باربارسكو من هذا السؤال . بيد انه اخبره أن القائم بهذه العملية فنان يدعى جوبو . ووصف له مكانه .

وقد قصد بلاريون إلى هذا المكان رأساً . ولما استوثق ان الفنان جوبو هو الذي يتولى عملية طلاء المعبد المرمري حقا وان ولديه يباشران العمل في الوقت الحالي : قال له :

– ان العمل يسير ببطء متزايد ! .

فقال الرجل في استياء شديد :

– اننا نصنع رسوما دقيقة وجميلة . و . .

فقاطعه بلاريون قائلا : ان لديك في حاجة إلى مساعدة .

فبسط الفنان ذراعيه إلى السماء قائلا :

– مساعدة ! . وأين أجد المساعدين المهرة ؟

فأجاب بلاريون وهو ينقر بأصابعه على صدره : هنا .

جعل جوبو ينظر إلى بلاريون في دهشة وذهـــول . فدنا بلاريون منه وقال له بصوت خافت :

– سأكون صريحا معك يا سيد جوبو . يوجد سيدة في القصر سيدة من حاشية سمو الاميرة .

وألم بلاريون جملته بغمزة معنوية من عينيه . فابتسم الفنان بعد ان اشتم رائحة المغامرة الغرامية . وقال بلاريون وهو يبتسم بدوره :

ها قد فهمت انه يعني أن اتصل بهذه السيدة . وهناك شأن هام يجب ان احدثها فيه . ولن أثقل عليك بهذه المسائل وبسرد قصتي المحزنة . وكل ما اريد هو ان تسدي عملا مشكورا يعود عليك بالفائدة .

فقال جوبو في رصانة شديدة :

– اذا اكتشف امرك .

فقاطعه بلاريون قائلا : ثق ان هذا لن يحدث . واني أعدك بالتزام الحيطة التامة . وستنال في النهاية خمسة جنيهات .

– خمسة جنيهات ! .

– هيا يا صديقي ولا تضيع الوقت . أعرني الملابس اللازمة للقيام بدوري . واحتفظ لديك بملابسي هذه حتى أعود اليك واوافيك بالجنيهات الخمسة .

عرف بلاريون كيف يضرب على الوتر الحساس من نفس الفنان وبعد نصف ساعة خرج من عنده في زيه الجديد مزوداً برسالة إلى ولديه العاملين في القصر .

وفي أصيل اليوم توصل بلاريون إلى القصر في هذا الزي بغير ممانعة . وراح يمزج بعض الالوان للفنانين الشابين ، بارشادهما وفيما بعد هذا لم يعمل شيئاً وجعل ينتظر حتى انصرف الشابان قرب الغروب وتخلف عنهما في المعبد لكي يتولى تنظيفه .

وهكذا بينما كانت الوصيفة ديوانا تتجول قرب البحـــيرة نادها بلاريون فاذا هي ترى شاباً ملطخ بالطلاء يقول لهـــا وهو يشير بفرشاته إلى المعبد :

– هل تعطفت سمو الاميرة وجاءت لالقاء نظرة على ســير العمل فالقت الوصيفة نظرة شاحبة على هذا العامل الجرىء، وهمت ان تواصل سيرها . بيد انه اردف قائلا :

– وتتلقى في نفس الوقت أنباء من الشاب الذي شملته أمس بحمايتها ؟ .

وسرعان ما تبدلت هيئة الوصيفة حتى لم يتمالك بلاريون ان ضحك مبتهجاً .

وجاءت الأميرة فاليريا لمشاهدة النقوش بعد ان تركت الوصيفة ديونارا فوق القنطرة . ولما دخلت المعبد شاهدت (الفنان) الشاب معتلياً المنصة مدلى الساقين ممسكاً بيده فرشاة وبالاخرى اناء الالوان فنظرت صامتة . فقال بلاريون وهو يمسح عن وجهه بطرف كمه .

– ألم تعرفيني يا سيدتي ؟ .

– فهتفت : السيد بلاريون ؟ . هذا انت ؟

والمح بلاريون إلى الارض قائلا :

– لقد نهارا وليلة حافلين بالاعمال . وعندي من الاقوال ما لا يتسع الوقت لسرده اذا وصلت اليك عن طريق الحديقة المقفلة .

– هل جئت برسالة ؟ .

– ليس لهذه الرسالة قيمة تذكر . وكل ما هنالك ان الرسول جيمريدو وقد توهم انه مستهدف للمراقبة ولم يفلح أي اغراء في حمله على المجيء . وفي خلال هذه المدة لم يحدث جديد يذكر . وقد رغب الي السيد باربارسكو ان ابلغك ان كل شيء يسير سيراً مرضياً وهو ما افسره بأنه لا سير البتة ولا شيء سوى الركود .

وفي وسعي ان اتجاسر على القول بعد ان ظفرت أمس بضيافة السيد باربارسكو واجتمعت ببعض اصحابه من النبلاء

المساهمين في هذه المغامرة الحمقاء ، ان هذه المغامرة لن تتقدم خطوة واحدة على النحو الذي ترغبين . ولن تفضي الا إلى كارثة محزنة .

تورد وجه الاميرة غضباً . وقدحت عيناها شرراً . فانتظر بلاريون هادئاً ان تنفجر مراجل سخطها وحنقها ، بيد انها تمالكت وقالت في برود :

– سيدي ، انت تتجاوز مهمة الرسول ، وتتدخل فيما لا يعنيك فقال بلاريون في غير وجل :

اشكري المولى لذلك ، فقد حان الوقت لكي تجدي من يسمي الاشياء باسمائها الصحيحة دفعاً لسوء الفهم والالتباس ، هل تعرفين إلى اين يدفعك باربارسكو وأصحابه البلهاء ؟ هم يدفعونك إلى ايدي الغاصب .

فقالت الاميرة في سكون : ان كان هذا هو كل ما عندك يا سيدي فاني سأتركك ، لن أقف لكي اسمع شقياً وضيعاً أخاطبه بمحض الصدفة يسب اصدقائي النبلاء ويندد بهم .

فقال بلاريون في حماسة واخلاص :

– ليست صدفة يا سيدتي ، قد اكون شقياً وضيعاً كما قلت ، لكن وضاعتي لا تتجاوز منبتي ، هؤلاء الذين تثقين بهم وتنعتيهم بالنبل هم في الواقع اخساء بالطبع والسليقة . آه ! . انتظري ! . ليست هي الصدفة التي جاءت بي . سلي نفسك ما الذي يدفعني إلى العودة لكي افعل اكثر مما يطلب مني ، معرضاً حياتي

www.liilas.com

للخطر ؟ .

ماذا يعنيني من شؤونك . أو من شؤون ولاية (مونتنفيرا) لقد عرفت من انا وما هي غايتي فما الذي يحملني على التلكؤ هنا؟ ذلك لانه لا حيلة لي في الأمر ولا اختيار . ذلك لان الإرادة الالهية تسيرني وتوجهني في هذا السبيل .

تأثرت الاميرة برغمها باخلاصه وحرارته . على انها قالت له ساخرة :

– أرى ملاكاً في ثياب فتان ! .

– ذلك أقرب إلى الحقيقة مما تظنين . اصغي الي يا سيدتي . . ان هؤلاء الاغبياء الذين تثقين بهم يدفعونك في هذا السبيل لتحقيق مآربهم الخاصة . . هل تعرفين حقيقة المؤامرة التي يدبرونها ؟ . هم يتآمرون على اغتيال المركيز تيودور . .

حدقت الأميرة في ذهول . وقالت في نبرات تشف عن الذعر :

– اغتيال !!!.

فابتسم بلاريون ابتسامة تشف عن الكآبة وقال لها :

– هم لم يخبروني بذلك . فهم لا يجرأون . . بيد انهم كانوا من التهور والاندفاع إلى حد فضح نواياهم لي ، انا الذي لا يعرفون من امري سوى اني حملت اليهم نصف جنيه مكسوراً دليلاً على صدق رسالتي !. ترى ماذا كان يحدث لو اني كنت شريراً يبيع هذه المعلومات للمركيز تيودور الذي يدفع ولا ريب ثمناً كبيراً

لها ؟! . الا تزالين تصرين على القول بان الصدفة هي التي جاءت بي لكي اتدخل في شؤونك ؟ .

فقالت الاميرة لاهثة الانفاس ممتقعة الوجه جزعاً :

– لا يمكن ان اصدقك ! . لا يمكن ! . اغتيال ! .

فقال بلاريون ببرود : لو انهم نجحوا في تنفيذ خطتهم فان الأمر وقتئذ عمك ما يستحق ، ولتخلصت انت وشقيقك من مطامعه . . . والواقع ان هذه الخطة لا تروعني أصلا . . وانما الذي يروعني هو اني لا أرى أملا في نجاح هذه المؤامرة بأيدي مثل هؤلاء الاشخاص القصار النظر الضعاف الحيلة . . وانك بانضمامك اليهم تعجلين بتحقيق اطماع المركيز التي تتمثل في القضاء على اخيك . . اذا فشلت هذه المؤامرة وتسرب أمرها إلى مسامع المركيز لأصبح شقيقك تحت رحمته . . بل ان الشعب نفسه قد يطالب بحياة الأمير لمحاولته الاعتداء على حياة المركيز الذي عرف كيف يتقرب إلى نفوس الشعب ويظفر بثقته وتقديره . . اسمعي نصيحتي يا سيدتي ونفضي يديك من هؤلاء الرجال قبل فوات الأوان ، والا مهدت السبيل للمركيز لتحقيق اطماعه بضربة واحدة .

فقالت الاميرة في انفعال شديد :

– اني كنت أجزع حقاً لو لم اكن واثقة من افترائك فيما تزعم من أمر هذا الاغتيال . . انهم لا يقدمون على مثل هذا العمل بغير موافقتي . . ولن يحصلوا على مثل هذه الموافقة .

– ذلك لأنهم ينوون أن يجابهوك بالأمر الواقع .. ثقي بقولي يا سيدتي .. اني قد عرفت في خلال الأربع والعشرين الساعة الماضية الشيء الكثير عن تاريخ (مونتفيرا) من هؤلاء الرجال بل عرفت الكثير من تواريخهم ايضاً .. وادركت انهم جميعاً بين فقير يطمع في ثروة ، أو ضئيل يطمع إلى جاه .. بـــل انهم لم يتورعوا في حديثهم معي ان يتقاسموا سلفاً مناصب الحكم في الدولة .. وقد قرر لي باربارييسكو انه سيعمل على اشباع المطمع الذي توسمه في شخصي .. وحسب المسكين اني ، مثله ، من ارباب المنافع والاغراض لمجرد كونه يعجز عن ادراك الدوافع السامية التي قد تحرك الانسان إلى العمل والمخاطرة بحياته .

فقالت الأميرة : ان باربارييسكو مسكين ذهب ضحية العسف والمظالم .. وقد كان في عهد ابي اعظم رجل في الدولة .. لكن عمي جرده من مجده ومن ممتلكاته . فهل يمكن ان اتخلى عنه الآن ؟ وهل ..

وكفت الأميرة فجأة عن اتمام جملتها .. ثم تصلبت وقالت وهي تضحك ضحكة تشف عن الازدراء :

– ما هذا الذي اقوله لك ؟ .. كيف اصدقك وانت رجل غريب عني قد اعترفت بأنك مجرد طالب شريد وضيع منكور الاسم ؟ ..

– اني اتكلم كلاما قائمـــا على المنطق السديد والاستدلال الصحيح ..

– بل كلام قائم على الغرض والتحيز ..

– وهل من التحيز ان أقول لك انهم يدبرون جريمة القتل؟.

– انهم تنكبوا السبيل مدفوعين باخلاصهم وتفانيهم ..

– بل باطماعهم ومآربهم ..

فقالت وقد عاودها الغضب :

– لا اسمح لك ان تقول هذا عن اصدقائي .

ثم تمالكت واردفت : سيدى .. اني ارى دوافعـــك .. واشكرك .. واذا اردت ان تسدى الي خدمة اخرى فاقصد فوراً إلى السيد باربارييسكو وقل له عن لساني ان مؤامرة القتل هذه يجب ان تستبعد بتاتا . قل له ان ذلك هو ارادتي النهائية وعزمي الراسخ .. قل له ان طاعتي واجبة في هذا الشأن ، واني أفضل الف مرة ان افصح للمركيز تيودور نبأ هذه النية الآثمة من ان اكون شريكة فيها ..

– لا بأس يا سيدتي .. لكن اذا اطمأننت إلى هذا الحـــد وتحينوا الفرصة ..

فقاطعته قائلة : مهما يكن فسابلغ هذه الرغبة إلى السيد باربارييسكو سواء عن طريقـــك أو عن طريق سواك . ولن اضايقك بعد الآن .. وسأبقى شاكرة لك ما فعلت لاجـــلي .. فاذهب اذن في رعاية الله يا سيد بلاريون ..

– انا في حاجة إلى خمسة جنيهات .

ولما رأى عبوسها قال لها :

– انك مصرة على اساءة الظن بي رغم اني قررت لك من قبل اني لو كنت في حاجة الى المال لتنفقتي الخاصة لذهبت بهذه المعلومات إلى المركيز تيودور . ان المبلغ المطلوب هو للفنان جوبو الذي اعارني هذا الزى .

وسرد عليها قصته مع الفنان . فزال تجهمها وتفرست فيه برقة .

وقالت له :

– لعلك في حاجة إلى المال يا سيدى ؟ . يؤسفني اني .. ستنال عشرة جنيهات الا اذا كانت كبرياؤك تأبى عليك ان تأخذ هذا المبلغ .

– هل ترين في شيئاً من الكبرياء ؟ سآخذ العشر جنيهات لكي ابرهن لك عن تواضعي . فقد احتاج إلى الخمسة جنيهات الأخرى لأنفقها في خدمتك .

– ان هذه الخدمة ستنتهي يا سيدي بعد ان تبلغ رسالتي إلى السيد باربارسكو .

وقد تقبل بلاريون هذا الطرد وهو مقتنع بان الاميرة مخطئة في هذا الزعم وانها لن تلبث ان تقر بهذا الخطأ .

الفصل الثامن

في وكر المتآمرين

تناول بلاريون طعام العشاء على مائدة باربارسكو المتواضعة ولما فرغا من الطعام وانسحب الخادم الكهل الذي كان يقوم على خدمتها قال بلاريون في نبرات شديدة الرصانة أزعجت باربارسكو .

– لا بد لي معك من كلمة خاصة يا سيدي . فقد ابلغتك ان الأميرة لم تعهد الي برسالة جواباً على رسالتك اليها لكني كتمت عنك جانباً من الحقيقة . فانها قد عهدت إلي برسالة هي في الواقع نتيجة لبعض الشكوك التي أثرتها أنا في نفسها .

لاحت على وجه باربارسكو علائم الدهشة . بيد أنه تمالك وقال :

– ولم لم تقل هذا أول الأمر .

– آثرت أن أنتظر حتى لا أذهب بغير عشاء . وقد

يسوؤك في الواقع اني نقلت إلى سمو الأميرة بعض شكوكي وهو اجسي. لكن انقباض الأميرة لركود انبائك ، ورغبتي في انعاش خاطرها ، دفعاني الى أن أقر لها أنك لست مكتوف اليدين كما تحب أن تتظاهر بذلك .

فقال باربارسكو بشراسة : آه .. تكلم ! ما هو رأيك الذي قلته لها ؟

– لعلك تذكر ما قاله الكونت سبينو قبل أن أرغمتموه على السكوت . أي اشارته الى الجندي المسلح . ولعلك تذكر .

وتظاهر بلاريون بأنه قد تلعثم تحت النظريات النارية التي رماه بها باربارسكو . ثم أردف :

– وهكذا قلت للأميرة ، رغبة في انعاش روحها المعنوية أن أصدقاءها في (كازالي) سيصوبون ذات يوم سهامهم المسنون الى نحو الغريم .

فقال باربارسكو. وقد انكمش على نفسه كأنه يهم بالوثوب عليه :

– آه ! وماذا قالت ؟

– عكس ما توقعت. كنت أتوقع ابتهاجها . فجابهتني بالغم والانقباض. وعبثاً حاولت اقناعها بأن هذه هي الوسيلة الناجحة لإدراك الغاية . وانه لو لم تقرر هذه الخطة لكنت أول من يشير بها .

– آه ! هل رحت تقنعها بذلك . وماذا قالت ؟

– طلبت إلي أن أقول لك انكم إذا كنتم تفكرون في مثل هذه الخطة حقاً فيجب أن تعدلوا عنها . وانها لن تساهم فيها بنصيب وانها تفضل أن تفضح هذه النية للمركيز تيودور ..

فوثب باربارسكو على قدميه وصاح وقد احتقن وجهه ونفرت عروقه :

– رحماك يا ربي !

تأهب بلاريون للدفاع عن نفسه ، وإن تظاهر بالجمود. لكن هجوم باربارسكو تمثل في شكل ثورة كلامية . إذا صاح هادر.

– أيها المغفل الشائن ! أيها الأحمق المعتوه ! أيها النسناس الثرثار !. عد اليها أيها القرد الممسوخ وقل لها انه ليس هناك أدنى تفكير في مثل هذه النية !

فهتف بلاريون وهو يتكلف الحدق والدهاء :

– لكن ألم يوجد مثل هذا التفكير حقاً ؟ ان الكونت سبينو .

– أخذه الشيطان ! اصغ إلي. ابلغ سمو الأميرة هذه الرسالة.

فقال بلاريون في إصرار وهو ينهض :

– أنا لا أبلغ أقوالاً كاذبة .

فقال باربارسكو في صوت كالحشرجة : أقوال كاذبة !

فتشبث بلاريون بعناده قائلاً :

– نعم ، أقوال كاذبة . دعنا من هذا اللجاج . اني أعربت للأميرة عن شكوكي فيما هو في الواقع اعتقاد راسخ في نفسي .

ان الكلمات التي صدرت من الكونت سينو، ولهفتكم لامكاته، لا يتركان أي شك لمن أوتى حظاً من الذكاء . وانا كذلك بحمد الله إذا أردت ابلاغ الأميرة هذه الرسالة ، فعليك أولاً أن تبين لي ما هي الفائدة المرجوة من هذا التضليل ، وأن تهيء لي ، وأنا لا أقل عنكم وقوفاً على الحقيقة ، أن أحكم على صواب هـــذا العمل أو فساده .

تبدد غضب باربارييسكو أمام صلابة بلاريون وهدوئه . ثم تهالك في مقعده ، وقال وهو يلوي يديه :

– لو عرف الآخرون مبلغ علمك بالحقيقة لمـا تركوك تغادر هذا البيت حياً لكيلا تفعل ما فعلت .

– لكن إذا كنتم تفعلون ذلك لاجلها ولأجل شقيقها ، فلم لا تتعرفون رغبتها أولاً ؟

فقال باربارييسكو ساخراً :

– رغبتها ؟ ما أضيع الجدال مع أبله مثلك. لقد كان يمكن ان نطلق السهم ، دون أن يعرف أحد من أطلقه .. ولو أننـا أفضينا اليها بنيتنا من أول الأمر لكانت أول من يفضحنا .. وقد بلغ من حمقي ان أطلب إليك ان تعود وتصارحها بخطأ ظنونك وفساد مزاعمك .. فلو انك فعلت وقمت الخطة لأدركت أن أقوالك الأولى كانت صحيحة ! ولدفعنا رؤوسنا ثمناً .

وأسند باربارييسكو مرفقيه فوق الخوان واعتمد رأسه بين كفيه وقال متوجعاً :

– رباه ! يا لهذا الهدم الذي أتممته بيديك .

– الهدم ؟

– هدم آمالنا .. ألا ترى بعينيك ما فعلت ؟ ألا تفهم انك قضيت على نفسك فيما قضيت علينا ؟ ان من كان له مثل وجهك واتصالك بالأميرة كان جـــديراً بأن يرتقي في الدولة الى أعلى المراتب .

وقال بلاريون وهو يتنهد :

– لم أفكر في ذلك .

فقال باربارييسكو في حزن عنيف :

– ولم تفكر في أمري .. أو في أحد منا جميعاً .. لقد كان يمكن أن أتخلص من هذا البؤس الذي يخيم على حياتي .

ثم لطم الخوان بقبضة يده وقـــد انتابه غضب فجائي .. وأردف .

– ذلك ما فعلت ! ذلك ما هدمت من الآمال بهذه الثرثرة اللعينة ..

– لكن من الحمق يا سيدي ان هناك وسائل اخرى .

– لا توجـد وسائل أخرى .. أو على الاقل لا تملك هـذه الوسائل هل لدينا المال لتأليف الجيوش .. آه ! لم أتعب نفسي معك ؟ ستخبر الآخرين غداً ما فعلت .. وسترى رأيهم فيك .

كان البقـــاء في دار باربارييسكو حافلاً بالاخطار . لكن بلاريون تغلب على خوفه وصمم على البقاء حتى يستوثق ان كان

يمكن تخويف سائر المتآمرين كما خوف باربارييسكو . وقرر في نفسه ان حاجة الاميرة فاليريا اليه لم تنته بعد . وان لم يدر ماذا يحمله على الاهتمام بشؤون هـذه الاميرة وتعريض حياته للخطر من أجلها .

والواقع ان المتآمرين ما كادوا يعرفون مدى نشاط بلاريون ومساعيه حتى راحوا يطلبون دمه .. وهمّ ، (كازيللا) ان ينقض عليه بخنجره ، لولا ان وقف باربارييسكو بينهما وصاح قائلا :

– ليس في بيتي ! لا تقتله في بيتي !

وهكذا لم يكن خوفه على حيـاة بلاريون .. ولكن على نفسه .

فقال بلاريون بنذرهم في هدوء :

– ولا في أي مكان آخر ، إلا إذا كنتم تريدون الانتحار .

ثم ابتعد عن باربارييسكو وواجههم قائلا :

– لقـد نسيتم انكم إذا قتلتموني قدمتم للأميرة فاليريا الجواب المنشود . وهي لن تفضحكم يا حضرات السادة لاجـل هذه الجريمة فقط بل كذلك للتآمر على حياة المركيز تيودور .. اقتلوني .. فتقتلوا أنفسكم !

وابتسم بلاريون ابتسامة باردة في وجوههم المتقعة ..

فتحولوا الى الكونت سيبنو الذي خلق هذا الموقف بتهوره يصبون عليه جام غضبهم .. لكن الكونت جلس في مكانـه

ساخراً حتى تلاشت ثورتهم .. ثم قال بهدوء :

– بل احري بكم ان تشكروني إذ مهدت لكم الارض التي تقفون عليها . وفيما يختص بالموضوع نفسه ، فان النتيجة هي ما كنت أتوقـع .. من الخطأ الفاحش ان يشرك الانسان امرأة في مثل هذه المسائل ..

فقال باربارييسكو : نحن لم نشركها . وانما هي التي توجهت إلي بالرجاء لمساعدتها .

فقال كازيللا : والآن وقد أوشكنا ان نقدم لها هذه المساعدة فهي لا تجدها وفق ما كانت تشتهي ! أقرر لكم انه ليس لنـا ان نختار .. ان الآمال قد جاشت في صدورنا .. وقـد عملنا على تحقيقها .

وبمثل هذا الكلام راحوا يعبرون عن خواطرهم .. وكانت نفوسهم جميعاً تنصب على المطامع الشخصية والمآرب الذاتية .. ولم يسمع منهم بلاريون كلمة واحدة عن مصالح الاميرة فاليريا وشقيقها او عن مصالح الدولة .

وأخيراً تكلم الكونت بجرأته المعهودة قائلا :

– اسمع يا سيد بلاريون ! اسمع ما ينبغي ان تبلغه لاميرتك رداً على تهديدها ! قل لها اننا نحن الذين آلينـا على نفوسنا تخليص الدولة من رقبة الوصي الطاغية . لن نتراجع ! سنسير في طريقنا دون ان يثنينا وعيد أو تهديد ! اوضح لهـذه السيدة المتعجرفة انه لا يمكنها ان تفضحنا دون ان تفضح نفسها معنا !

قل لها ان أي مصير تهددنا به سيلحقها وينالها سواء بسواء !

فقال بلاريون : قـــد لا يبعد انها أدركت ذلك وقدرت الخطر الذي تستهدف له ..

ـ نعم . وافهمها أيضاً انها بذلك تقضي أيضاً على شقيقها..

ثم التفت الى رفاقه قائلا :

– ثقوا انها ستفهمت حقيقة الموقف فستكف عن مضايقتنا بوساوسها سواء في الوقت الحالي أو بعد انجاز هذه المهمة .

لم يكن بلاريون يجهل نقطة الضعف هذه في موقف الاميرة فاليريا . لكنه تحاشى عنها آملا ان تخفي عن أعين المتآمرين .. كلاعب الشطرنج الماهر يفطن الى لعبة موفقة في قطع خصمه ، ولكنه يتجاهلها آملا ان يغفل الخصم عنها .

ولمـــا انصرف بلاريون من دار باربارسكو راح يستنشق الهواء على ضفة النهر ويفكر في منفذ من هذه المآزق وفي دفع الخطر الذي يوشك ان يحل بالاميرة فاليريا .

الفصل التاسع

المركيز تيودور

اعتاد المركيز تيودور باليولوجو الوصي على عرش (مونتفيرا) ان يستقبل يوم السبت من كل اسبوع من يلتمسون مقابلته ، او يتلقى العرائض ممن يتقدمون بها .

وقد جاء سكرتيره بعريضة قدمها شاب طويل القـــامة يرتدي ملابس ارجوانية . ومـا هي الا خمس دقائق حتى عاد السكرتير إلى الشاب المنتظر وسأله قائلا :

– هل تدعى (كاني) يا سيدي ؟ .

فأومأ بلاريون برأسه ايجاباً وتبـع السكرتـــير إلى غرفة صغيرة انيقة تشرف على حديقة القصر التي يعرفها جيداً .. ولما

اغلق السكرتير الباب الفى بلاريون نفسه ازاء رجل طويل القامة موفور الصحة رغم انه في الخمسين من عمره، دقيق تقاطيع الوجه ، تشف عيناه عن المقدرة والدهاء .

كان الوصي على العرش جالساً في ردائه المخملي الرائع فوق مقعد مرتفع ذي مسندين مموهين بالذهب ، ورأى بلاريون بين يديه العريضة التي تظاهر بانه جاء لتقديمها .. وقال له المركيز في صوت هادىء منسق النبرات :

- من أنت يا سيد ؟ .

- اسمي بلاريون كاني .. وأنا ربيب فاشينو كاني الملقب بكونت بياندراتي ..

رأى بلاريون انه لا بد له من اتخاذ والد خطير الشأن قوي النفوذ يستطيع ان يستمتع بحمايته .. وقد شرف بهذا الاختيار ذلك القائد العظيم فاشينو كاني الذي كان حاكم ميلان في ذلك العهد .. والواقع انه لم يكد يفوه بهذا الاسم حتى لمعت عينا المركيز دهشة وقال :

- أنت ابن فاشينو ! اذن فقد جئت من ميلان !

- كلا يا مولاي .. بل جئت من دير سيليسانو حيث تركني والدي منذ سنوات حين كان يخدم في ولاية (مونتفيرا) . وقد كان المأمول ان اندمج في سلك الرهبنة . لكن عدم الاستقرار المتأصل في نفسي حملني على تفضيل العالم الدنيوي ..

وهكذا راح بلاريون يحرأة عجيبة يمزج الحقيقة بالكذب والافتراء .. بينما قال له المركيز :

- ولم اخترت (مونتفيرا) بالذات ؟ .

بفعل الصدفة وحدها .. وقد كنت أحمل توصيات خطية من رئيس الدير لمساعدتي في غايتي . وهكذا تعرفت بالسيد باربارياسكو .. وقد اهتم فخامته بامري ، واغلب الظن انه أراد أن يعهد الي باعمال معينة ، ولذلك رغب الي في البقاء .. وقد راح يغريني بأن الطريق هنا ممهد لتحقيق مطامعي ، واني اذا سلكته بغير تردد فقد أصل الى القمة .

فافترت شفتا المركيز الرقيقتان عن ابتسامة ذات مغزى وقال :

ولما أدركت الحقيقة ، رأيت ان هناك وسيلة أقرب إلى تحقيق مطامعك بفضح هؤلاء المتآمرين المساكين ؟ .

فتكلف بلاريون الاستياء وقال :

- معنى هذا يا صاحب السمو انكم تسيئون الظن بالدوافع التي حملتني على القدوم ..

- لعلك لن تنكر ان الوسيلة التي سلكتها تدل على الذكاء أكثر من دلالتها على الأمانة والوفاء .

- هل تنددون سموكم بي لنقص في وفائي نحو المتآمرين ؟ .

- وماذا يعنيك من خيانتهم ؟ . وأي حق لهم عليك في

وفاء أو الاخلاص ؟ . كل ما هناك انك رحت تنظر أين تكون منفعتك لا بأس انك أهل لكي تكون ولدا للشقي فاشينو ، سواء من صلبه أو بالتبني انك تحتذي مثاله وتنسج على منواله .. واذا نجوت من مخاطر هذه المغامرة فقد تبلغ الذروة ..

يا صاحب السمو ! اني جئت لخدمتك ..

صمتاً ! . إني أتكلم ! . إني أفهم كل الفهم الدافع في خدمتك .. وانا خبير بطبائع الرجال .. واذا قررت ان انتفع بك فلأن أملك في الغنم سيحملك على الاخلاص لي ، ولاني أعرف كيف أتوسم الخيانة وكيف أعاقب صاحبها .. انك تضطلع بخدمة حافلة بالمخاطر .. لكنك جئت الي طائعاً مختاراً .. وسأختبرك في غير لين ولا هوادة ، وعند كل خطوة تخطوها .. واذا خرجت من هذا الاختبار فائزاً وتغلبت على وضاعة نفسك الطبيعية ولؤمك الغريزي فستحمد لي كرمي وسخائي ..

تورد بلاريون بالرغم عنه ازاء نظرات المركيز المفعمة بالازدراء ونبرات صوته الباردة الدالة على الاحتقار .. ثم قال :

— ان لون الخدمات التي سأؤديها لسموكم ستحملكم على تصحيح هذا الحكم علي .

— هل تخطيء هذا الحكم ؟ . اذن فلعلك تبين لي ما يحملك على فضح أمر هؤلاء الرجال الذين صادفوك ؟

رفع بلاريون رأسه وتوهجت عيناه غضباً وتكلف الاهتياج

الشديد ! وقال بصوت مختنق :

— ارجو ان يأذن لي سمو المركيز بالانصراف .

فابتسم المركيز متلذذاً بقدرته على تعذيب النفوس .. وقال :

— ستذهب متى فرغت من أمرك .. والآن اخبرني يا سيد . هل تعرف أشخاصاً آخرين يعملون بالاشتراك مع هؤلاء الرجال الذين يتآمرون على اغتيال حياتي ، والذين ذكرت اسمائهم في عريضتك ؟ .

— اعرف انهم يسعون لاجتذاب غيرهم إلى صفوفهم .. اما من هم هؤلاء فهذا ما لست أعرفه .. ومن ذكرت هم زعماء المؤامرة ورؤوسها المدبرة .. ومتى سحق هؤلاء بقي الآخرون بغير قيادة توجههم .

فمال المركيز في مقعده إلى الامام ، وقال وهو يتفرس في وجه بلاريون :

— نعم .. نعم .. لكن ألم تسمع اسماء أخرى تذكر في مجالسهم اسماء أشخاص من المقربين الي ؟ .. فكر جيدا يا سيد بلاريون .. ولا تخف ان تسمي هؤلاء الاشخاص مهما سما مقامهم .

ادرك بلاريون خطر التزام التحفظ المطلق .. ولذا قال :

لما كانوا يزعمون انهم يعملون في سبيل المركيز جيان جيا كومو ، فمن الطبيعي أن يرددوا اسمه .. ولكني لم اسمعهم

مرة يؤكدون عليه بمؤامرتهم .

فقال المركيز في الحاح غريب :

— الم تسمع اسما آخر ؟ .

فتظاهر بلاريون بالسذاجة .. وقال :

— من تقصد يا مؤلاي ؟ .

ـ أنا من يسأل !

فاجاب بلاريون في حيرة :

كلا يا صاحب السمو .. لا اذكر اني سمعت اسما آخر ..

اعتدل المركيز في مقعده دون ان يتحول نظره عن بلاريون وما لبث ان ارتكب غلطة جسيمة لا تغتفر لمن كان في مثل دهائه فأمد بلاريون بالبيان الذي جاء يسعى اليه ، إذ قال له :

— انك لم تظفر بعد بثقتهم التامة بك .. عد الى مجالسهم واطلعني على كل ما يجد بينهم .. ابذل ما أوتيت من جهد ومقدرة وستجد مني سخاء عظيما .

فقال بلاريون في جزع حقيقي :

ـ هل ترجئون سموكم الضربة القاضية .

فقاطعه المركيز بصرامة : هل طلبت رأيك ؟ . لقد فهمت ما اريده منك .. فلك الآن أن تذهب .

— لكن يا صاحب السمو ! ان عودتي اليهم الآن بعد ان

جئت اليكم علناً لن تكون بغير خطر علي ! .

لكن المركيز لم يشاطره الانزعاج .. بل قال باسماً .

— لقد اخترت طريقاً محفوفة بالمخاطر كما قلت لك .. لكني سأساعدك .. فسأعلن اني تلقيت رسالة من فاشينو يلتمس مني فيها ان اشمل ربيبه برعايتي اثناء اقامته في (كازالي) .. ولا يسعني ان اتجاهل هذا الالتماس .. فان فاشينو شخصية ذات نفوذ كبير في ميلان في الوقت الحالي .. وسأبلغ حاشيتي هذا النبأ ولا يستغرب بعد ذلك ان اهيء لك حرية الدخول إلى قصري .. وعليك ان تخبر شركاءك انك ستستغل هذه الضيافة لفائدتهم .. ولا ريب ان هذا التفسير سيكفيهم ويرضيهم . وسأنتظرك هذا المساء .. فاذهب الآن في رعاية الله ..

* * *

خرج بلاريون من حضرة المركيز تيودور يتعثر في خطواته . فهو لم يصل الى الغاية التي كان ينشدها بعد ان وفق في أول المقابلة توفيقاً طيباً .. فقد كان يقدر واثقاً مطمئناً ان المركيز سيعمد إلى العمل العاجل لسحق المتآمرين وبذلك تنجو الاميرة فاليريا من هذا الخطر الذي يسوقها اليه جنونهم وتهورهم .. وبدلا من ادراك هذه النتيجة فهم من تسرع المركيز انه يعلم أمر المؤامرة ويعرف اشخاص مدبريها .. وهذا هو السبب في تصديقه قصة

www.liilas.com/vb3 PRAY AHEENA

بلاريون وايمانه بكلامه في غير شك ولا تردد.. والواقع انهذه البيانات التي ادلى بها بلاريون طابقت ما كان يعلمه المركيز فعلا ولذلك لم يساوره ادنى ريب في قصته ..

واذن فقد الفى بلاريون نفسه ابعد ما يكون عن تحقيق غايته وكل ما جناه من هذه المقابلة انه قدم نفسه للمركيز كأداة فعالة لكي يستعين بها في تنفيذ اغراضه وبلوغ مطامعه .

وهكذا عاد بلاريون وقت الظهر إلى دار باريباريسكو وهو يفكر مهموماً في هذه المخاطرة الشديدة التي زج بنفسه غمارها.

الفصل العاشر

تحذير

اقيمت حفلة راقصة في قصر المركيز تيودور وشمل الامير جيان جيا كومو بتحريض نديمه الفاجر كاستروشيو وارغم الكونتس رونسيكو الحسناء على مراقصته فامتثلت مكرهة منزعجة وراح الامير الطائش يجرها جراو هو يضحك لاهيا ماجنا مستهترا بينما وقف النديم يراقبه وتعلو شفتيه ابتسامة الخبث والدهاء .

وكانت الاميرة فاليريا في وسط حاشيتها تنظر إلى مسلك شقيقها حزينة متألمة وفيما هي كذلك استرعى نظرها شاب طويل القامة اسود الشعر مرتد ملابس ارجوانية نابية عن جو المكان يدنو منها في صحبة السيد (البيراندي) سفير ميلان ولما وقف

(البيراندي) امامها انحنى في رشاقة وقال لهـــا يقدم رفيقه الشاب :

– اسمحي لي يا صاحبة السمو ان اقدم اليك السيد بلاريون كاني نجل صديقي فاشينو كاني كونت بياندراتي .

وكان المركيز تيودور هو الذي اوعز الى البيراندى بتقديم بلاريون الى الاميرة بصفته (مواطناً) له في ميلان وقد اقتدى بلاريون بالسفير وانحنى امام الاميرة في تلطف ورشاقة فأومأت فاليريا برأسها رداً على التحية متظاهرة مثل بلاريون بانهـــا لا تعرفه وقالت في حفاوة رسمية .

– اهلا بك يا سيدى ..

ثم التفتت إلى البيراندى قائلة :

– لم اكن أعلم للكونت بياندراتي نجلا .

– ولا انا يا سيدتي ، حتى هذه اللحظة .. وان المركيز تيودور هو الذى عرفني به .

فاه السفير بهذه الجملة بلهجة تشعر بأنه يتنصل من هذه التبعة لكن الاميرة التفتت الى بلاريون . متوددة . وقالت بلهجة عذبة :

– اني عرفت الكونت بياندراتي في طفولتي ، واحمل له في نفسي اجمل الذكرى .. فهو كان في خـــدمة والدى كما تعلمون . ويسرني انه الآن يستمتع بالمجد والنفوذ .. ولعلك

يا سيدي تحدثني عن والدك فانني طالما تمنيت أن ألم بقصة مجـده وارتقائه ..

فقال بلاريون وهو ينحني ، أنا رهن إشارتك يا صاحبـــة السمو .

التف الحضور حولها لسماع هـــذه القصة الشائقة . لكن بلاريون لم يكن يعلم عنها كثيراً ولا قليلاً .. ولذا قال :

– أنا لست بالمحدث البارع .. وجدير بقصة الصعود الى النجوم ان تسرد تحت النجوم ..

– ليكن إذن ما تقول .. ان النجوم متلألئة في الشرفة .. ولعلك ترينى بينها نجم فاشينو ، وربما نجمك أيضاً ..

ونهضت الاميرة وأمرت وصيفاتها أن يتبعنها .. ولما وصلت الى باب الشرفة التي يغمرها ضوء القمر شاهدت شقيقها يترنح من فرط الثمـل وهو يجر الكونتس رونسيكو جراً .. فدعته الى الترفق بنفسه والاخلاد الى شيء من الراحة .. لكنه اعرض عنها وهو يضحك ساخراً منـددا .. فلم يسع الاميرة إلا أن تواصل سيرها وهي في أشد حالات الألم والضيق ..

وحين وصلت الى الشرفة أمرت وصيفاتها أن ينخلفن عنها .. ثم قادت بلاريون بعيدا عن مسمع الصوت .. وقالت له في صوت بارد :

– والآن يا سيدي هل لك ان تفسر لي هـــذه الشخصية

الجديدة ومعنى قدومك الى هنا ..؟

فأجاب بلاريون بهدوء : ان وجودي هنا يفسر نفسه متى أخبرتك ان سمو المركيز قد تقبل شخصيتي على علاتها.. والواقع ان بلاط (مونتفيرا) لا يمكن أن يتجاهل من كان ابناً لفاشينو كاني ..

– اذن لم كذبت عليّ حين ..

– كلا .. كلا . بل الكذب هو هـذه الشخصية الجديدة ، ان هذه الشخصية الزائفة كانت لازمة للوصول الى هنـا لزوم شخصية الفنان التي انتحلتها أمس ، وكلتاهما مكذوبة ..

فقالت في صوت مختنق غضباً :

– هل تريد أن أصدقك؟.. ان حواسي ترشدني الى حقيقتك. وتبين لي انك جاسوس أرسلت للقضاء علي ..

– ان حواسك لا تصدقك الحقيقة ، وإلا لما جئت معي الآن الى هنا ..

وسرعان ما تحلل جلد الاميرة تحت وطأة هـذا الجهد الذي تعانيه .. فهتفت :

– اواه يا ربي ! اني أكاد أفقد صوابي ! ان اخي ..

وأمسكت عن الكلام وهي تكاد تنتحب . فقال بلاريون بهدوء :

– هل لنا ان نعالج كل شيء في وقته ؟ وإلا فلن نفرغ أبدا

كما اني لن أبقى طويلاً معك .

– ولم لا ؟ انك تتمتع برعاية عمي الذي أرسلك .

فقال في صوت خافت : وبرغم ذلك ، فان عمك هو الذي اخدعه ، لا أنت ..

– ذلك ما كنت انتظر منك قوله

– يحسن بك ان تدعي الاستنتاج جانباً حتى تسمعني الى النهاية . ان الاستدلال يا صاحبة السمو ليس ميدانك .

وراح بلاريون يقص عليها في إيجاز كيف تلقى المتآمرون تبليغها ثم استطرد :

– لعلك ترين من اصرارهم على خطتهم انهم لا يخدمون إلا أنفسهم كما قررت لك من قبل . وما أنت وشقيقك إلا أداتين يتوسلون بهما لادراك مآربهم. ولم تكن هناك غير وسيلة واحدة لإحباط كيدهم .. وسيلة واحدة لخدمتك وانقاذك .. وقـد اتخذت هذه الوسيلة ..

فقاطعته قائلة : اتخذتها ؟ ومـا الذي يحملك على خدمتي أو انقاذي ؟ لو كان بوسعي أن أصدقك لعددتك متطفلاً .. انك لم تكن أكثر من رسول !

– وهل كنت مجرد رسول حين كشفت لك عن الاغراض الحقيقية لهؤلاء الاشخاص واوضحت ما ينالك من خطر الاتصال بهم ؟

فقالت ببرارة : نعم .. كنت أكثر من ذلك .. لكن ماذا كنت حقاً ؟

فأجاب ببساطة : كنت خادمك يا سيدتي .

– آه .. نعم .. نسيت .. خادمي .. الذي أرسلته العناية الالهية ! اليس كذلك ؟

– انت قاسية يا سيدتي ..

– أحقاً ؟ انك أقرب الى الخيال منك الى الحقيقة ..

فتنهد بلاريون وقال : ان بقية القصة لن تغير رأيك . فهل من فائدة في استمرار سردها ؟

– انها تكون مسلية ، إذ لم تكن مقنعة .

– إذن فسأستمر في سردها لتسليتك . لقد تيسر لي أن أفعل ما كان يعرضك لأشد الخطر ان أقدمت على فعله .

وقص عليها قصة المريضة المزعومة التي توسل بها لإبلاغ المركيز تيودور أسماء المتآمرين على حياته . وسرعان ما تشبثت يداها بصدرها وقالت لاهثة جزعاً ورعباً :

– هل وشيت بهم ؟

– ألم يكن هذا ما صرحت انك تفعلين إذا لم يرجعوا عن نية الاغتيال ؟ أنا لم أكن أكثر من نائب عنك في هذا الشأن . وحينما قدمت نفسي للمركيز كريبب فاشينو كاني صدقني فورا ، ولم يحفل ان كانت شخصيتي حقيقية او منتحلة طالما انه وجد

فيها الاداة التي كان في حاجة اليها .

– آه ! ها قد وصلنا الى نقطة لا صعوبة في تصديقها .

– وهل مما يصعب تصديقه ان أقرر لك ان المركيز تيودور كان على علم بهذه المؤامرة ؟

– ماذا ؟

– لو لم يكن ذلك فما الذي كان يحمله على الثقة بي أو تصديقي ؟ انه كان يعلم بما لديه من بيانات سابقة ان ما سردته عليه هو الحقيقة التي لا ريب فيها .

فقالت في ارتياب وازدراء :

– هل كان يعلم ، وأمسك يده عن العمل ؟

– ذلك لأنه كان ينقصه الدليل على اشتراكك وشقيقك في المؤامرة . ما قيمة باربارييسكو وأعوانه في نظره؟ ان ما ينشده المركيز هو التخلص من الامير جيان جياكومو بطريقة لا تعرضه للخطر وهو قد أوفدني الآن لكي أمده بهذا الدليل المنشود .

فقالت الاميرة بانفعال: انك لا تتردد في الاعتراف بخيانتك لكل واحد في دوره .. فقد وشيت بباربارييسكو الى المركيز تيودور .. ووشيت بالمركيز الي .. ولا ريب انك الآن توشك ان تشي بي الى المركيز ..

– أما فيما يختص بالشطر الاخير فاني ما كنت أجيء إلى هنا لو كان في نيتي ان أشي بك يا سيدتي .. فقد كان يمكن ان ازود المركيز تيودور بكافة الأدلة التي يريدها ضدك في نفس

الوقت الذي زودته بالادلة ضد الآخرين ..

صمتت فالبريا وراحت تتدبر في صواب هذا البرهان الجدلي الذي تقدم .. وفجأة قالت له :

– لا بد لي من الثقة بك يا بلاريون .. لا بد من ذلك وإلا ذهب عقلي في هذا المحيط المضطرب المظلم .. سأجازف .. وإذا لم تكن صادقاً في نيتك ، وإذا كنت تسعى لكسب ثقته لكي تستغلها في اتمام مآرب المركيز الآثمة فلا ريب ان الله سيقتص منك .

– ذلك اعتقادي يا سيدتي .

– اخبرني اذن ما الذي تنوي ان تقوله لعمي ؟

– سأقول له اني تحدثت اليك بغير فائدة .. سأقول له اما انك لا تعرفين باربارييسكو ، او انك تكتمين الحقيقة عني ..

– هل تعود فيما بعد ؟

– إذا احببت .. ان هذا السبيل ممهد الآن .. لكن ماذا نفعل ؟

– لك ان تقرر ذلك .

وهكذا بينت له انها وقد اولته ثقتها فانما تفعل هذا بغير تحفظ ولا قيد .

وعادا الى القاعة حيث انحنى بلاريون مودعاً وذهب الى المركيز تيودور مستأذناً في الانصراف فانتحى به المركيز ناحية وسأله ما عنده من الانباء .. فقال بلاريون :

– اني قمت بسبر غورها . وهي اما تواتيني ، او لا تعرف شيئاً عن باربارييسكو .

فقال المركيز في رقة : كن واثقاً من الشطر الاول . جيء بتوصيات من باربارييسكو وحاول مرة ثانية . وستكون مهمتك هينة على هذا الوجه .

الفصل الحادي عشر

اعتقال

الفى بلاريون مفاجأة تنتظره في بيت باريباريسمو فانه ما كان يدخل الغرفة التربة حتى احاط به المتآمرون جميعاً وهم ينظرون اليه نظرات لم يسترح اليها . وقبض سبينو وكازيللا على ذراعيه وقال له باريباريسكو في عذوبة :

— اين كنت يا سيد بلاريون ؟ .

ادرك بلاريون وجوب الاستعانة بذكائه وحيلته . فدار فيهم نظرات تجمع بين الدهشة والازدراء ، واجاب :

— آه . صحيح . انتم متآمرون حتى آخر قطرة من دمائكم. وانكم لترون في كل انسان جاسوساً ، وتتوسمون الخيانة في كل

عمل ! . ان لكم اعيناً حقاً . لكن لا ذكاء يهديكم . والله في عون من يثقون بكم ويركنون اليكم. بل كان الله في عونكم جميعاً !.

ثم جذب ذراعيه من قبضات آمريه قائلاً :

— دعوني يا بلهاء ! .

لعق باريباريسكو شفتيه . وكان يخفي يده خلف ظهره . ثم اختلس خطوة نحو بلاريون حتى كاد يحتك به وقال له :

— لن نتركك حتى تبين لنا اين كنت. وتفسر لنا كل شيء .

بدا التهكم واضحاً على وجه بلاريون . لكنه لم يظهر اي خوف وقال .

— انتم تعرفون اين كنت . والا لما قابلتموني هذه المقابلة المحزنة اني كنت في البلاط .

فقال باريباريسكو في نعومة بينما كان الباقون ينظرون في برود مخيف :

— ولاي غرض يا بلاريون ؟ .

فاجاب في سخرية جريئة : لن افضحكم بالطبع ! . ولما اتممت هذا الغرض ، عدت اليكم لكي تذبحوني ! .

ضحك سبينو وتخلى عن ذراع بلاريون وقال :

— لقد تلقيت جوابي .. فقد أخبرتكم من أول الأمر أني لا أصدق ذلك ..

لكن كازيللا تشبث بذراع بلاريون في شراسة. قائلاً :

– أما أنا فاريد جواباً صريحاً واضحاً قبل ان ...

فنزع بلاريون ذراعة وقال في تبرم :

– دعني استنشق الهواء يا هـذا .. لا داعي إلى العنف .. فلن أهرب .. وفي وسعكم وأنتم سبعة أن تحولوا دون هربي . وقد يهدىء التفكير من ثورتكم ويسكن هياجكم .. فكروا لحظة . اني لو كنت أنوي الفرار لما جئت اليكم ..

فقال باربارِيسكو في اصرار نحن نسألك ان تبين لنا ما فعلت ، لا ما كنت تنوي فعله .

– سأقول لكم شيئاً آخر ما كنت أفعله لو كان في نيتي أن أوقع بكم .. فاني ما كنت أذهب علناً إلى البلاط حتى لا يتصل بكم نبأ ذهابي .

فقال سبينو موجهاً حديثه اليهم في شيء من الازدراء :

– هذا هو نفس الاعتراض الذي ذكرته لكم .. دعوه أولاً يخبركم بقصته ..

تهامسوا فيما بينهم .. واجتاز بلاريون الغرفة تحت نظراتهم الغادرة في اطمئنان الواثق من دهائه . ثم جلس في مقعد وراح يقول :

– ليس فيما سأقوله شيء يخفى عنكم .. فاني ذهبت إلى الأميرة فاليريا لكي أبلغها رسالتكم وابين لها انه ليس في وسعها الآن ان تتراجع أو تملي ارادتها علينا في طبيعة الوسائل التي نستعين بها لادراك غايتنا .. ويسرني ان أصرح لكم بأني قد

حققت هذه النتيجة كما يجب .

فقال باربارِيسكو : في وسعنا ان نصدق هذه الأقوال متى بينت لنا السر في اختيارك البلاط لابلاغ رسالتك ، وكيف نجحت في الوصول اليه وانت ما تصور نفسك .

فقال بلاريون وهو يتنهد : الهمني الله الصبر معكم ! . اني ذهبت إلى البلاط ليقيني بان المجادلة التي كان لا بد أن تدور بيني وبين الأميرة ما كانت تتم خلسة من وراء سياج حديقة خلفية . فقد قدرت أن يصول الجدال بيني وبينها .. وفوق هذا ايها السادة فانه ليس أفضل من التوسل بالجرأة متى كانت ممكنة .. وقد كانت ممكنة لي إذ أنه من حسن الحظ اني حقاً ربيب ربيب فاشينو كاني .. وخطر لي انه كان يمكن أن استغل هذه الشخصية في التقدم إلى البلاط والتنقل بين ارجائه في حرية ..

انهالت عليه عشرات الأسئلة .. فاجاب عنها بهذه الجملة :

– ان السيد البيراندي سفير ميلان كان موجوداً في البلاط وقد تولى تقديمي .

خيم الصمت لحظة .. ثم قال باربارِيسكو :

– اذا كان البيراندي شفيعاً لك في البلاط ، فلا يمكن ان يكون شفيعك هنا ..

وقال كازيللا : هذه قصة عرجاء .. لو كانت هذه الوسيلة متاحة لك من قبل فلم تتوسل إلى البلاط ؟ .

كانت امامي وسائل أخرى ميسورة . لقد نسيتم ان

الاميرة فالبريا لم تكن تنتظرني .. وما كان يمكن أن يبقى باب الحديقة الخلفي منفرجا .. ولا أن اذهب اليها في زي فنان وهو الذي اصطنعته في المرة الأخيرة .. وفوق ذلك فان هذه الوسيلة غالية الثمن ، فقد كلفتني خمسة جنيهات ..

انهالت عليه اسئلتهم مرة ثانية ، فانهم لم يسمعوا من قبل بقصه الفنان الزائف .. ولما سردها عليهم نالت رضاءهم .. وقال أحدهم :

لمَ لم تخبرنا بهذه القصة قبل الآن ؟ .

فأجاب بلاريون وهو يهز كتفه :

وهل هي هامة إلى هذا الحد ؟ . هل كان يجب ان اضايقكم بأشياء تافهة ؟ . وفوق هذا دعوني أذكركم بأني لو كنت وشيت بكم حقاً عند المركيز تيودور لكان الضابط القضائي هنا الآن مكاني بينكم .

فقال سبينو : هذه حقيقة لا يمكن انكارها على الأقل .

وقد اقتنع بعضهم بهذا الدليل السلبي .. لكن آخرين ظلوا على ارتيابهم في انتسابه إلى فاشينو كاني .. فقال بلاريون :

— هل تريدون الدليل على اني حقاً ربيب فاشينو كاني ؟ .

فقال كازيللا وهو واضع يده على مقبض خنجره :

— اننا في أشد حاجة إلى هذا الدليل يا شقي ، واذا لم تقدمه لنا فاعلم ان ساعاتك باتت معدودة .

أدرك بلاريون انه لا علاج لهذا الموقف الا بكسب الوقت

وانه اذا وفق إلى ذلك واستطاع ان يؤجل إلى الغد ذبحه فكل شيء جائز ومحتمل .. فقال .

— ليكن ما تريدون .. ان (سيليانو) لا تبعد عن هنا سوى مسيرة يوم .. وما عليكم الا ان توفدوا أحدكم إلى رئيس الدير هناك لسؤاله عن اسم ذلك الذي عهد به فاشينو اليه لرعايته في الدير .

فهتف كازيللا ساخراً :

— وهل الاسم هو كل الدليل .

— هو كل الدليل اذا كان السائل أبله .. اما اذا كان ذكياً ففي وسعه أن يعرف من رئيس الدير أوصاف بلاريون هذا .. واذا اردتم أكثر من ذلك أعطيتكم بياناً عن الملابس التي كنت أرتديها والنقود التي حملتها عندما غادرة الدير لكي تلتمسوا هناك ما يعزز هذا البيان .

وقال باربارسكو متبرماً : وحتى اذا تبين هذا فانه لن يقوم دليلا على صدقك وعلى انك لست جاسوساً أرسلت بيننا للايقاع بنا وبيعنا .

فقال بلاريون : لكنه يدلكم على ان الشخصية التي توسلت بها لدخول البلاط هي ما صورت لكم .. ويكون هذا فاتحة لا بأس بها وما يبقى بعد ذلك لا يتعذر ارجاؤه ..

فقال كازيللا : وفي اثناء ذلك ؟ .

– وفي اثناء ذلك هأنذا بين أيديكم . ومـــا أحسبكم من شدة التعطش إلى دمي إلى حد عدم الصبر أرجـــاء ذبحي حتى تتبينوا صحة أقوالي .

أخذوا يتشاورون فـــيما بينهم وهو واقف عن كثب يرى حياته تتأرجح كالكرة .. وكان يمكن في النهاية أن يقضي عليه لولا سبينو الذي جعل يكرر أمامهم دفـــاع بلاريون انه لو كان اوقع بهم حقاً لما جازف بحياته وعاد اليهم .

وأخيراً جردوه من خنجره وقاده باربارِيسكو وكازبلـــلا وسبينو إلى غرفة في أعلى المنزل ليس بها من النوافذ سوى كوة مستطيلة ضيقة تعلو عن الأرض عشر أقدام في الجدار المنحدر ، وليس بها من الاثاث سوى بعض القش وكيس من الكتان الخشن في بعض اركانها .

ثم قيدوا معصميه خلف ظهره وخرجوا من الغرفة وأغلقوا بابها عليه وتركوه أسيراً في ظلامها .

ووقف بلاريون ينصت حتى تلاشى وقع اقدامهم في السلم ثم تطلع إلى الكوة المستطيلة الضيقة التي يغمرها ضـوء القمر .. فرأى انه يمكن النفوذ منهـــا والوصول إلى السقف .. لكن انحدار الجدار قد يقضي به إلى السقوط فيدق عنقه كما قد يؤدي به إلى الحرية . وسواء كان هذا او ذاك فلم يكن يملك من القوة أو من الوسائل ما يمكنه من الوصول إلى هذه الكوة ..

جلس بلاريون فوق الكيس الخشن الذي كان مقدراً ان

يكون فراشه هذه الليلة ، وراح يفكر في هـــذا المأزق الذي وصل اليه ويستعرض الوسائل التي امامه للنجاة بحياته واستعادة حريته . وكان يقدر ان النجدة قد تأتيه عن طريق الخائن بين المتآمرين الذي كان على اتصال بالمركيز تيودور والذين حـــاول بلاريون عبثاً أن يهتدي إلى شخصيته بينهم .. وقد خطر له ان سبينو قد يكون هذا الخائن المرجو اذا كان هو الذي دافع عنه ووفق إلى منحه هذه المهلة .. لكنه تذكر ان سبينو كان أول من وثب عليه شاهراً خنجره حال عودته من البلاط .. ومهما يكن من أمر هذا الخائن فاكـــبر الظن انه سيتصل بالمركيز تيودور فيعمل هذا على تحرير شخص يعـده اداة نافعة لتحقيق مآربه ...

ولا بد ان بلاريون استولى عليه النعاس وهو يدير في رأسه هذه الخواطر .. فانه حينما استيقظ الفى ضوء القمر قد انحسر عن الكـــوة وآنس حركة يسيرة عن كثب منه .. فاستند بلاريون على مرفقه وادار رأسه إلى مصدر الصوت .. وما هي إلا لحظة حتى لمح خيطاً من النور يبدو من ناحية الباب ويزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً . وسرعان ما أدرك بلاريون ان هناك يداً تفتح الباب بحركة وئيدة خفية .

احس بلاريون في هذه اللحظة ولأول مرة . خوفـاً شديداً شل حركته .. هو خوف مصدره الاعتقاد بان هناك من جـاء يسعى لاغتياله وهو مكوم في مكانه عاجز من الدفاع عن نفسه ..

دام هذا الاحساس الاليم لحظـــة بينما كان الضوء المحجوب يتزايد انتشاراً .. ثم انسل من فرجة الباب شبح رجـــل بدا قوامه جلياً من الوهج الضعيف المتسرب من المصباح المظلل الذي كان يحمله . ثم سمع صوتاً رقيقـاً يخاطبه : صه ! . لا تحدث صوتاً ! .

فلما سمع بلاريون هذه النبرات المطمئنة خفت دقـات قلبه الذي كاد ينخلع في صدره .. واوصد الباب بهـدوء كما فتح .. وأزيحت عباءة كانت تظلل المصباح .. فكشف ضوءه عن شخص الكونت سبينو ..

الفصل الثاني عشر

الكونت سبينو

وضع سبينو المصباح على الأرض وتقدم الى بلاريون قائلا بصوت خافت :

– لا حاجة الى الكلام.. استدر في مكانك حتى أفك يديك

وأخرج خنجره وقطع به الحبل الذي كان يقيـد معصمي بلاريون خلف ظهره . وقال له :

– انزع حذاءك . أسرع .

جلس بلاريون القرفصاء وجعل ينزع حذاءه وهـــو يفكر بسرعة في موقفه . ولما وقف على قدميه همس سبينو في اذنه :

– انتظر. يجب ألا نذهب معاً قبل خمس دقائق ربما أخرج. ثم اتبعني .

تأمله بلاريون لحظة . وقال في رصانة شديدة :

www.liilas.com/vb3 ARAYAHEEN

– لكن إذا اكتشفوا افلاتي .

فقاطعه سبينو متبرماً :

– أنا آخر من يرتابون فيه . ان الكل هنا هذه الليلة لكني. انتحلت اعذاراً قوية لعدم البقاء. ثم أوهمتهم بالرحيل واختبأت في أسفل الدار حتى ناموا جميعاً. وهم سينقضون على أعناق بعضهم بعضاً في الصباح متى عرفوا الحقيقة .

وابتسم راضياً مزهواً بدهائه . ثم استطرد :

– سأحمل المصباح معي . وأنت تعرف طريقك في هـــذا البيت خيراً مني . وعليك ان تسير برفق عند خروجك .

وفيما هو يستدير لحمل المصباح استوقفه بلاريون قائلاً :

– هل تنتظرني في الخارج ؟

– ولأي داع ؟ ليس الآن . لا فائدة من هذا .

– دعني أذهب معك إذن . إذا تعثرت في الظـلام انقضوا علي ..

– حاذر ألا تفعل .

– دع لي خنجرك على الأقل ما دمت تأخذ المصباح .

– اليك هو .

وأخرج سبينو الخنجر من غمده وقدمه الى بلاريون. فأمسك بلاريون بالخنجر من مقبضه وجعل يتفرس في الكونت بنظرات قاتمة . وفيما كان سبينو يستدير ثانية لحمل المصباح قال له بلاريون

– انتظر لحظة ..

– ماذا تريد الآن ؟..

والتفت سبينو مرة ثانية لمواجهة هاتين العينين اللتين تحدجانه بنظرات غريبة .. وفي اللحظة التالية أغمد بلاريون الخنجر في صدره ..

كانت ضربة عاجلة قوية نفذت الى قلب الكونت وأطفأت حياته قبل ان يخطر له انها مهددة بالخطر .. وهوى دون أدنى صوت .. لكن بلاريون تلقاه بساعده الأيسر حتى يخفف من سقطته الى الأرض.. لكن أطراف سبينو تخاذلت وتخلخلت.. وهوى بين يدي بلاريون كالكيس الفارغ ثم تدحرج على الأرض

وكتم القاتل عبرة حشرجت في حلقه .. وجعلت ساقاه ترتعدان كورقة في مهب الرياح .. واشتد امتقاع وجهه واغرورقت عيناه بالدموع . ثم جثا على ركبتيه قرب جثة القتيل وأداره فوق ظهره وبسط أطرافه المتصلبة وشبك ذراعيه فوق صدره .. وبقي جاثياً بقربه .

لقد أسدى بقتل الكونت سبينو عمـــلا لازماً ضرورياً في سبيل الغاية التي كرس نفسه لأجلها.. فانه بهذه الطعنة قد قضى على الأداة التي كان المركيز تيودور يعتمد عليها في القضاء على ابن أخيه ولا ريب ان اكتشاف مصرع سبينو في الغد مقترناً بافلات بلاريون في ظروف غامضـــة خفية سيلقي الذعر في قـــلوب المتآمرين ويقضي على المؤامرة التي لن تؤدي إلى الى تحقيـــق مآرب المركيز وتقريبه من أهدافه ..

بيد أن بلاريون لم يستطع رغم هـذه الخواطر المشجعة أن يتخلص من الجزع الذي انتابه .. فانه قـد اقترف جريمة القتل عامداً مصراً مدبرا .. وأسوأ من هـذا انه وهو الذي تربى في الدير قد أرسل روحاً بين يدي خالقها قبل أن يتحلل صاحبهـا من ذنوبه ..

فلم يسعه إذن إلا ان يستمر في جثوه حيث راح يصـلي بحرارة لراحة هذه النفس التي قضي عليها .. واستغرقته هـذه الغاية حتى لم يكترث بالوقت الثمين الذي كان يمر سراعاً. وبقي في مكانه ربع ساعـة منهمكاً في الصلاة . ثم نهض آخر الأمر وراح يتدبر موقفه .

دس بلاريون حـذاءه في حزامه وحجب المصباح كما حجبه سبينو . ثم خرج من الغرفة ممسكاً بالخنجر المجرد في يمناه ..

جعلت درجات السلم تصر تحت قدميه بين خطوة وأخرى.. وكان يقف كل خطوة ويرهف حواسه . وخيل اليه مرة انـه سمع حركة في الطابق الذي تحته .. واشتد جزعه بتأثير هـذا الوهم حتى مضت لحظات قبل أن يستأنف هبوطه .

وصل الى هذا الطابق في سلام..ثم دار حول السلم واستأنف هبوطه محاذرا قاصدا الى الطابق الأوسط حيث ينام باريسكو وفيما هو في منتصف المسافة سمع الصوت مرة ثانية وأيقن أن شخصاً يسير في الممشى الى النـاحية اليمنى في اتجـاه غرفة باريسكو .. وسرعان ما وقف بلاريون في مكانه فجأة ودفع

المصباح المظلل خلفه حتى لا يسقط وهجه الى أسفل فيفضحه.. وأحس في هذه اللحظة بالعروق تكاد تنفجر في صدغيه ..

واشد ما كان ارتياعه حين رأى فجـأة ضوءا ينير الممشى مقتربا بوقع أقدام وهمس صوت عرف فيه صوت باريسكو . يجاوبه صوت آخر صادر من الخادم الشيخ اندريا .

خطر له أول الأمر ان يفر الى أعلى من حيث جاء .. لكنه أدرك على الفور انه بذلك يقع في الشرك ويسد عليـه ضيوف باريسكو باب النجاة وهم ولا ريب نيام في الطـابق الذي جاوزه .

وما لبث بلاريون ان وثب بجرأة وفي غير تحرز قاصدا أن يتم هبوط السلم ويصل الى الشارع .. لكن الضجة التي أحدثها هبوطه حملت باريسكو على التقدم الى الامام .. ومـا كاد بلاريون يصل الى نهاية السلم في هذا الطابق الأوسط حتى ألفى باريسكو يسد عليه الطريق .. وما ان وقع نظر باريسكو عليه حتى ملأ صياحه أرجاء المنزل وأيقظ النائمين فيه ..

تخلى باريسكو عن الشمعة التي كان يحملها الى خادمـة وأهوى بجسده الضخم على بلاريون وطوقه بذراعيـه وهو يصرخ بأعلى صوته وراح بلاريون يتملص منه بكل قواه وهو ساكن النفس رابط الجأش حتى استطاع أن يفلت منه .. وفي هذه اللحظة كان الخادم اندريا قد وضع الشمعة على الارض وتقدم من الخلف للانقضاض على بلاريون .. لكن بلاريون صوب اليه

ركلة قوية بقدمه أصابته في معدته فألقته يتلوى على الأرض .. ثم واجه باربارسكو بخنجره قبل أن يطبق عليه للمرة الثانية فاستدار باربارسكو جانباً وأراد أن يتلقى الطعنة بساعده ، فاستقر الخنجر في لحمه الموفور .

ارتد باربارسكو الى الخلف واضعاً يده على الجرح الذي أخذ الدم يتدفق منه وهو يصخب كالثور الهائج .. وفي هذه اللحظة أقبل كازيللا وهو شيه عار ممسكاً سيفه بيده وراح يهبط السلم قفزا يتبعه ثان وثالث ..

أدرك بلاريون أنه إذا واصل هبوط السلم لأدركه القادمون خلفه وكيف يستطيع بخنجره أن يرد سيف كازيللا ؟ وفجأة خطرت له فكرة طارئة .. فاندفع في الممشى ودلف الى الغرفة الكبرى وجذب الباب خلفه ودس المزلاج في موضعه قبل أن يصل اليها كازيللا وصاحبه ..

وكشف بلاريون عن المصباح ووضعه على الارض.. وجذب الطاولة الثقيلة ودعم بها الباب حتى يؤخر اقتحامه .. ثم حمل العباءة التي كان المصباح مظللا بها وهرع الى النافذة وفتح مصراعيها ..

وتمهل بلاريون ريثما لبس حذاءه بينما كان المتآمرين يدفعون الباب دفعاً عنيفاً محاولين اقتحامه .. ثم دس الخنجر في غمده المدلي من حزامه وربط طرف العباءة في أحد الاحجار البارزة في فراغ النافذة ودلاها الى الخارج فانبسطت نحو خمس أقدام

أسفل الحافة .. وسرعان ما وثب بلاريون فوق حافة النافذة واستدار في مكانه وجثا على ركبتيه وتشبث بالعباءة بكلتا يديه .. ولم يلق أمامه إلا أن يتدلى مستعيناً بالعباءة فيهبط الى الشارع في سلام .

على انه ما كاد يتأهب لإتمام هذه الخطوة حتى فتح باب المنزل بعنف ووثب اثنان من المتآمرين الى الشارع .

تأوه بلاريون جزعاً وهو ينظر اليهما من مكانه الشاذ ، بينما وقفا ينتظران هبوطه وقد شهر كلاهما خنجرا يلمع نصله في الظلام ..

لم يكن في وسعه ان يعود الى داخل الغرفة .. وادرك ان حياته قد أوشكت على النهاية بعد هذا الاسبوع الحافل الذي مضى منذ خروجه من عزلة الدير وهدوئه الى هذا العالم الصاخب الحافل بالكوارث والارزاء .. وعالج الصلاة وهو معلق بين نارين لعل فيها تكفيرا عن خطاياه . وآمن انه كان جاحدا حقاً حين زعم ان العالم خلو من الخطايا والشرور..ولم تكد تطيب نفسه وهو في هذا الموقف بالرجوع الى جادة الايمان ..

وفيما هو يوشك أن يتردى في هوة اليأس إذ سمع صوتاً أثلج صدره .. هو وقع أقدام جنود ..

كانوا رجال الشرطة في دورتهم الليلية .. وسمع المتربصان هذا الصوت أيضاً .. فتشاوروا فيما بينهما .. ولما خشيا المفاجأة هرعا الى داخل الدار وأغلقا الباب خلفهما وقت ان دارت فصيلة

الشرطة حول المنعطف على قيد أمتار من الدار ..

لم يكن أمام بلاريون ما يخشاه من رجال الشرطة .. وما هي إلا لحظات حتى هبط إلى الارض بسلام .

وفيما هو يتنفس الصعداء ويكاد يضحك أقبل الضابط الى جانبه وأحاط به رجال الشرطة . حاملين مصابيحهم .. وقال الضابط :

– ما هذا ؟ لم تفضل النافذة على الباب يا صاحبي ؟

وبينما كان بلاريون يفكر في جواب معقول دنا منه الضابط وسلط الضوء على وجهيهما معاً .. فعرف أحدهما صاحبه فورا . وإذا هو نفس الضابط الذي تعقبه من (حانة الغزال) الى حدائق القصر ..

وهتف الضابط برنابو : يا للشيطان ؟ هذا صاحب لورنزاشيو نعمت المقابلة يا صديقي ! اني كنت أفتش عنك طوال هذا الاسبوع ! ستخبرني أين كنت مختفياً هذه المدة ؟

الفصل الثالث عشر

المحاكمة

انعقدت محكمة (كازالي) ونظرت في جملة من القضايا العادية واصدرت فيها احكاماً مختلفة . وانتظر الجمهور بفارغ الصبر نظر القضية التي فاقت سواها في عدد الضحايا .

وقد شهدت الأميرة فاليريا هذه الجلسة من مكانها في الشرفة العليا كما كانت عادتها احياناً .. وشهدها المركيز تيودور جالساً في مقعد فوق المنصة غير بعيد عن القاضي وإلى جانبه السيد البيراندي الذي ارجأ رحيله إلى ميلان لشهود هذه الجلسة خصيصاً .. ووقف خلفهم قرب الجدار طائفة من رجال البلاط كان ابرزهم كاستروشيو دافنستريللا نديم الأمير جيان كومو .

وكان المركيز تيودور بادي الرصانة وفاقاً لمقتضيات الموقف ..

بيد ان رصانته كانت من لون مختلف .. فان البيانات التي ستذاع في الجلسة ستضاعف من عطف جمهور الشعب عليه وتعلقه به .. بيد ان صدور هذه البيانات في غير الوقت الذي كان يقدر سيحبط ولا ريب اغراضه الحقيقية مؤقتاً ، هذه الاغراض التي اصيبت بضربة قوية بصرع جاسوسه سبينو ..

وجيء بالسجين اخيراً .. فدخل بلاريون قاعة الجلسة رابط الجأش ساكن الملامح .. وتقدم إلى المنصة الحجريه حيث وقف وحيا باحناء الرأس الوصي على العرش والقاضي .. ثم وقف في مكانه رافع الرأس ثبت الجنان .

سأله القاضي عن اسمه . فأجاب وقد اعتزم ان يمعن في الكذب إلى النهاية :

– بلاريون كاني .

ثم سئل عن اسم ابيه .. فأجاب :

– فاشينو كاني هو الوالد الذي تبناني .. ولست اعرف والدي الحقيقيين .

ولما سئل ان يفسر ذلك سرد قصته في ايجاز .. فقال له القاضي .

– انك جئت إلى هذه المدينة منذ اسبوع بصحبة شقي كبير يدعى لورنزاشيو داوينو .. وبهذا يشهد واحد من ضباطي الموجودين هنا .. فهل تنكر ذلك ؟ .

لا انكر .. ومن الجائز ان يسير الرجل الشريف في صحبة

اللص الشرير .

– وقد كنت مع هذا الشقي في مزرعة بجوار (كازالي) حيث حدثت سرقة ثم قتل صاحب المزرعة بعد ذلك في (حانة الغزال) بيد لورنزاشيو المذكور في اثناء مرافقتك له .. وقد عرفك قبل وفاته .. فهل تعترف بهذا ؟ .

اني اؤيد هذه الحقائق فهي لا تناقض قصتي .

– لكن اذا كنت بريئاً فلم هربت من الضابط ؟ . لمَ لم تبق وتقرر له ما قررت الآن ؟ .

– لان الظواهر كانت ضدي .. وقد عملت بوحي الساعة في غباء وبلاهة كما يعمل الناس بغير تفكير ولا روية .

– وقد وجدت مأوى في بيت السيد انيبال باربارِيسكو .. ولا ريب انك سردت له هذه القصة وصورت له نفسك بصورة الرجل الذي اجتمعت عليه الظواهر ، وبذلك استثرت رحمته وعطفه .

لم يجب بلاريون .. ولم يناقض هذا التفسير .. وعرف مصدره ففي الليلة الماضية عندما ايقظ الضابط برنابو باربارِيسكو وابلغه ما يعرفه عن اتصال اسيره باللص لورنزاشيو تثبت باربارِيسكو بهذه القصة واجازها .

واستطرد القاضي : وقد حاولت في الليلة الماضية ان تسطو على صاحب المنزل .. ولما فاجأك الكونت سبينو متلبساً بالجريمة قتلته وجرحت باربارِيسكو نفسه .. وفيما كنت تحاول الهرب

من احدى نوافذ المنزل فاجأك رجال الشرطة واعتقلوك . هل تعترف بكل هذا ؟

– كلا .. وان الظروف لا تؤيد هذه التهمة .. فاني اقمت عند باربارييسكو اسبوعاً ولم يكن من ثالث معنا سوى خادمه الشيخ . وكان بوسعي في احدى هذه الليالي لو اني ذلك اللص الغادر ان انفذ اغراضي منتهزاً عزلته .. فهل يعقل اني اختار لذلك ليلة اجتمع عنده فيها سبعة من اصدقائه الاشداء ؟ . هل هذا معقول ؟ .

– اذن فما الذي حدث ؟ . اسمعنا قولك ..

– اليس من مقتضيات القانون ان تسمعوا أولاً أقوال متهمي ؟

فابتسم القاضي ساخراً وقال :

– وهل تعرف القانون يا شقي؟ . ان اقوال متهمك قد تليت عليك وعليك الآن ان تجيب على هذا الاتهام .

فقال بلاريون بهدوء : اني اصر على هذا الطلب الذي يخولني اياه القانون .. ليقف السيد باربارييسكو ! وستقفون منه على ما يهدم هذا الاتهام الزائف .

فقال القاضي متوعداً :

– لا بأس .. سأصبر عليك حتى النهاية .. ليقف السيد باربارييسكو .

حدث لغط بين الجمهور الذي أخذ يتتبع تطور القضية

باهتمام وشوق .. واقبل ضابط تلوح عليه دلائل الانفعال ووقف في حرم المحكمة وواجه القاضي قائلاً :

– ان السيد باربارييسكو رحل يا مولاي . فقد غادر كازالي عند شروق الشمس مع الاشخاص الستة الذين ذكرت اسماؤهم في شهادة الضابط برناتو .. ويمكن الوقوف على شهادة ضابط (باب لومبارد) في هذا الشأن وهو موجود هنا .

ضحك بلاريون .. فانتهره القاضي وامره باحترام المحكمة .. وتقدم ضابط الباب وعزز هذه القصة .. فالتفت المركيز تيودور إلى القاضي المنزعج وقال بصرامة :

– كيف اجيز هذا الرحيل ؟ .

فاجاب القاضي محرجاً : انا لم أعلم بأعتقال هذا الرجل إلا بعد شروق الشمس بوقت طويل . لكن مهما يكن فليس من المألوف اعتقال المعتدي عليهم

– صحيح .. لكن كان ينبغي ان تتخذ احتياطات خاصة ازاء هذه الظروف الشاذة .

– ان هذا الشذوذ لم يثبت بصفة قاطعة يا صاحب السمو إلا بعد افلات الهاربين .

اعتدل الوصي على العرش في مقعده وقال وهو يغمض جفنيه اخفاء لشعوره الحقيقي :

– لا بأس .. اني اعطل سير العدالة .. ان السجين ينتظر .

التفت القاضي إلى بلاريون وهو في حيرة من هذا التطور

الذى تطور اليه الموقف .. وقال :

– لقد سمعت ان متهمك غير موجود هنا للكلام بلسانه .

فقال بلاريون وهو يضحك للمرة الثانية :

– بل انه تكلم .. فان فراره هو افصح شهادة على كذب اتهامه ! .

– عليك انت اقناع المحكمة .. عليك ان تشرح لنا ما حدث حتى تأخذ العدالة مجراها .

فالتفت بلاريون إلى ناحية الوصي على العرش .. فالفاء يصوب اليه نظرات صارمة ناهية فهم مدلولها .. فراح يقول :

– لكن ليس لدي اقوال كثيرة .. فاني لا اعرف سبب النزاع الذي شجر بين الكونت سبينو والسيد باربارسكو ، لاني لم اكن حاضراً منذ البداية .. وقد استدرجتني الضجة التي سمعتها وما كدت أصل إلى مصدرها حتى الفيت الكونت سبينو في عداد الاموات .. وقد هاجمني باربارسكو واصحابه حينما شاهدوني لاعتقادهم بأني سأكون شاهدا عليهم .. فجرحت باربارسكو واستطعت الافلات منهم إلى احد الغرف حيث اغلقت بابها خلفي وفيما كنت احاول الهرب من نافذتها اعتقلني رجال الشرطة .. هذا كل ما استطيع قوله في هذا الشأن .

رأى بلاريون ان هذه القصة ستفسر للمركيز كل شيء .. لكن القاضي لم يقتنع وقال :

– كان يمكن تصديق هذه القصة بسهولة لولا ما نعرفه من ان الجميع كانوا في ملابس النوم ، الا انت والكونت سبينو اذ كنتما بكامل ملابسكما .. وفي هذا ما يدل على أي الفريقين كان المعتدي وايهم المعتدى عليه .

– هذا جائز ، لولا فرار السيد باربارسكو واصحابه .. فان الابرياء لا يفرون .

فصاح القاضي : لقد اعترفت بلسانك ! فانك تزعم براءتك من افعال لورنزاشيو . ومع ذلك هربت حينما قبض عليه ؟.

– آه ! لكن هناك فارقاً .. فان الظواهر جميعاً كانت ضد رجل واحد مجهول في هذه المدينة .

فقال القاضي متحديا : هل لك ان تفسر لنا كيف اتفق انك والكونت سبينو كنتما وحدكما مرتديين ملابسكما دون الجميع ؟ .

نظر بلاريون الى المركيز تيودور .. لكنه لم يبد ادنى اشارة وجعل يتطلع إلى بلاريون في برود وصرامة وكان بلاريون يوشك ان يقضي بقصة مصطنعة تفسيرا لهذا الموقف .. لكنه فهم من نظرات المركيز ان اى افشاء لظروف المؤامرة لن ينال رضاءه وسيفضي حتما إلى القضاء عليه نفسه .. ولذا حزم امره وقال :

لا استطيع ان اعلل وجود الكونت سبينو بملابسه .

أما فيما يخصني فقد كان بمحض الصدفة . فإني كنت في البلاط في الليلة الماضية وانصرفت في وقت متأخر . . ولما كنت متعباً فقد نمت في مقعد حتى أيقظتني الضجة التي سمعتها . .

فقال القاضي ساخرا : هـذه قصة شائقة .. ألا يمكن أن تجد أفضل منها ؟

فأجاب بلاريون في رباطة جأش :

– وهل يوجد ما هو أفضل من الحقيقة ؟ انكم تسألونني ان أفسر اشياء خارجة عن نطاق علمي .

فقال القاضي متوعدا : سنرى .. ان المعروف عن (دولاب التعذيب) انه ينبه ذاكرة الانسان ويشحذها . .

– (دولاب التعذيب) ؟

ردد بلاريون هـذه الجملة خافق القلب جزعاً وان احتفظ بهدوئه الظاهري .. وتطلع الى الوصي على العرش مستنجـدا هذه المرة .. فهمس المركيز تيودور في اذن البيراندي .. وعلى الاثر . مال سفير ميلان نحو القاضي قائلا :

هل تأذنون لي بكلمة في الموضوع ؟ شكرا .. لما كان المتهم يؤكد هذه الصلة التي تربطه بفخامة الكونت بياندراتي ، فهلا ترون ارجاء المحاكمة حتى يمكن التثبت من هـذا الاتصال بالوسائل العادية ؟

استاء القاضي من هذا التدخل .. على ان المركيز بادر إلى

تعزيز هذا الطلب قائلا :

– مهما يكن هذا الطلب من الغرابة ، فلعلكم ترون انه إذا ثبتت صحة الشخصية التي يزعمها المتهم ولبين ان موقفه وليد الحظ السيء ، فاننا بمواصلة السير في إجراءاتنا إنما نعمل على إثارة استياء صديقنا القوي النفوذ فخامة الكونت بياندراتي ..

أومأ القاضي برأسه . وساد الصمت لحظة . ثم قال :

– وبأي الوسائل يمكن التثبت من هـذه الشخصية التي ينتحلها المتهم ؟..

فسارع بلاريون بالجواب قائلا : كان معي رسالة من رئيس دير سيليانو سرقها لورنزا شيو ، لكن الضابط .

فقاطعه القاضي بخشونة : ان هذه الرسالة موجودة هنا . وهي لا تشير الى أبوتك ولا قيمة لها حتى تبين لنا كيف حصلت عليها ..

فتدخل البيراندي للمرة الثانية قائلا :

– هو يزعم انه جاء من دير سيليانو حيث تركه السيدفاشينو كاني . منذ أعوام طويلة . فلن يضير المحكمة إذن أن تلتمس في ذلك الدير ما يعزز هذه الدعوى .. فإذا ثبتت صحتها فليدع أحد الرهبان الذين يعرفونه للمثول أمام المحكمة حتى يشهد ان كان هو نفس الشخص أو غيره ..

فقال القاضي : وإذا تم هذا ؟

– في هذه الحالة يزول على الأقل ذلك الاثر الذي انطبع في نفس المحكمة من اتصال هـذا الشاب باللص لورنزا شيو . ويمكنكم تبعاً لذلك أن تقدروا نصيبه من حوادث الليلة الماضية .

وهكذا أرجئت قضية بلاريون كاني مؤقتاً وقد كان الجمهور يتتبعها بشغف واهتمام ويتوسم فيها ما يسليه ويطربه .

وانسحب أكثر الاشخاص البارزين الذين شهدوا هذه القضية فيما عدا المركيز الذي بقي لشهود غيرها من القضايا حتى لايكشف عن اهتمامه بها وحدها .. وانصرفت الاميرة فالبريا منفعلة ساخطة وراحت تقول لوصيفتها ديونارا :

– لص ! وجاسوس ! وقاتل ! وقد وثقت بـه فاذا هو يهدم كل آمالي ! لقد نلت جزاء حماقتي وغفلتي !

فقالت ديونارا : لكن إذا كان كما يدعي ؟

– وهل يغير هذا من موقفه ؟ انـه أرسل للتجسس علي واكتشاف ما كان يدبر . ان قلبي كان يحدثني بهذا . لكني مع ذلك انخدعت باقواله الزائفة .

– لكن إذا كان جاسوساً ، فلم راح يلح عليـك في قطع صلاتك بالمتآمرين ؟

– حق يتسنى له أن ينتزع مني نوايا كاملة . انه هو الذي قتل صبينو . صبينو أشدهم دهـاء وأكثرهم إخلاصاً وولاء . صبينو الذي كنت أعتمد عليه في وضع حد لاندفاعهم وتهورهم. لكن هذا الجاسوس الوغد الذي اصطنعه عمي قد اغتاله وأزاحه

من الطريق !

– لكن إذا صح كلامك ، فلم اعتقل ؟

– هذه مصادفة لم تكن في الحسبان وقد جئت لكي أرى كيف يعالجون هذا الموقف . وقد رأيت !

– لكني لا أفهم ما الذي كان يحمله على قتل الكونت !

فضحكت الاميرة ضحكة خالية من البهجة . وقالت :

– ليس من العسير أن تتصور ما حدث . فان صبينو تبعه في الليلة الماضية لاستطلاع حركاته ، لان ظهور هـذا الشقي في البلاط كان غلطته الجسمية التي تفتقر الى التعليل . وقـد جابهه صبينو بذلك عنـد عودته وربما ضايقه بالأسئلة التي فضحت أغراضه ، وهكذا قتله هذا المدعو بلاريون لانقاذ نفسه ولمـا رأى الباقون ان امرهم قد افتضح فروا هاربين .

فهزت ديونارا رأسها غير مقتنعة . وقالت :

– إذا كان السيد بلاريون جاسوساً يعمل لحساب عمك للقضاء على شقيقك ، فلم لزم الصمت وقد كان بوسعه لو باح بالحقيقة ان يفضح سر المؤامرة ويخدم أغراض المركيز ؟

– لست أدري . ولا يدري أحد مـا هي أغراض المركيز الحقيقية . فهو يعمل في حرص ودهاء ويؤجل ضربته القـاضية حتى يستوثق من كل شيء . إن هذا الشقي لم يسلك هذا المسلك إلا طوعاً لامر المركيز . ألم ترى ان السيد اليبراندي حين تدخل في إجراءات المحاكمة إنما فعل ذلك عقب همس دار بينه وبين

المركيز .

– لكن إذا كان هذا الرجل كاذباً في مزاعمه ، فماذا ينفعه ارجاء المحكمة في النهاية ؟

فأجابت الاميرة فاليريا بازدراء :

في وسعي أن أتنبأ بأنه لن يقف مرة ثانية أمام منصة القضاء فستتهيأ له الوسائل للافلات من سجنه .

الفصل الرابع عشر

الهرب

أعيد بلاريون الى السجن العام بين الأشرار والمجرمين . على أنه لم تمض ساعة حتى صدر الامر بنقله الى غرفة خاصة لها نافذة مشبكة بالقضبان الحديدية مطلة على سهول خصبة يشقها نهر (البو) .

وفي أصيل اليوم جاء المركيز تيودور لزيارته في هذه الغرفة رغبة من الوقوف على الحقيقة . فراح بلاريون . يمعن في الكذب والاختلاق كما فعل مع القاضي . وقرر للمركيز أن المتآمرين قد ارتابوا في أمره على اثر زيارته للبلاط . وذكر الأقوال التي أدلى بها تفسيراً لهذه الزيارة . لكن المتآمرين قيدوه وسجنوه في إحدى غرف المنزل حتى يحدوا في دير سيليانو ما يعزز أقواله . ولما خشي الكونت سبينو ان تتعرض حياته للخطر زاره ليلا

www.liilas.com/vb3
RAHEEN

لاطلاق سراحه وقال بلاريون تعليقاً على هذا :

– وقد فهمت من هذا ان الكونت سبينو . كان مثلي من أعوان سموكم .

ثم استطرد بلاريون فذكر أن المتآمرين كانوا يراقبونه سراً وفاجأوه بعد أن فك سبينو قيوده وزوده بخنجر. وقد هجموا على الكونت وطعنه احدهم بخنجره وان كان لم يستطع التثبيت من شخصيته . وكان يمكن أن ينال بلاريون هذا المصير لولا انه راح ينهال عليهم بالخنجر فجرح باربارسكو وواحداً أو اثنين منهم ثم أفلت منهم ولجأ الى إحدى الغرف وهبط من نافذتها بين ايدي رجال الشرطة . واختتم بلاريون حديثه قائلا :

لولا ان سموكم لم تطلبوا إلي ان أذهب الى البلاط لما حدث هذا . لكن المتآمرين قد فروا على الأقل وخنقت المؤامرة في مهدها . وسموكم الآن في أمان .

– في أمان ؟

فاه المركيز بهذه الجملة وهو يضحك ضحكة قاسية جافة . وتلاشت امارات الوداعة التي كانت تبدو على وجهه وضاقت عيناه وعيداً وشراً . ثم قال :

– لخبطك قد أفسد الدليل الذي كان يمكن ان يحميني في أمان .

لخبطي ! هذه هي العدالة حقاً ! لو اني سردت على القاضي البيانات التي كتمتها عنه ، ولو شرحت حقيقة ما حدث

في دار باربارسكو

فقاطعه المركيز غاضباً :

– لو فعلت ذلك ! وهل كان هناك من يصدق شقياً شريداً رفيق اللصوص والأشرار فيما ينسبه الى الوصي على عرش مونتفيرا من كيد ولي الامر الشرعي ؟ انت واهم يا هذا ! لكن .. وجودك هنا أصبح مصدر قلق لي على أي حال .

أدرك بلاريون ان المركيز محق في توجسه . فهو يخاف ان يكشف اعتراف بلاريون إذا هو اضطر الى ذلك في النهاية عن سكوته على المؤامرة للوصول الى أغراضه الخاصة ، وانه استخدم في ذلك الكونت سبينو ثم بلاريون كأداتين له لتنفيذ هذه الاغراض .

ثم كرر المركيز قوله :

– نعم . ان وجودك هنا أصبح مصدر قلق . واشكر الله لأني أبقي عليك ولا أصر عنقك وأتخلص من وجودك .

ورفع المركيز العباءة عن ساعده الايسر وأخرج من تحتها حبلا قذفه عند قدمي بلاريون . ثم أخرج من صدره مبردين وضعهما فوق المقعد . وقال :

– إذا أزلت هذه القضبان تهيأ لك منفذ للخروج . وفي وسعك ان تربط الحبل في قضيب آخر وتهبط من النافذة في الظلام . ومتى وصلت الى الارض كنت خارج أسوار المدينة .

ولتذهب بعد ذلك الى حيث تشاء ولا تطأ أرض (مونتفيرا) بأي حال . فان فعلت فثق انك ستشنق في الحال لتحطيم نافذة السجن والافلات منه . .

فقال بلاريون : لئن فعلت لكنت أهلا لهذه النهاية . فلا يخامرك أدنى قلق يا صاحب السمو .

– قلق ، يا كلب !

فاه المركيز بهذه الجملة وهو يحدجه بنظرة صارمة . . ثم دار على عقبيه وغادر الغرفة .

ولما اكتشف امر فرار السجين في صباح اليوم التالي اشتدت دهشة الناس في كافة أنحاء (كازالي) واختلفت التعليقات على هذا الحادث الفريد . ولم تفض الأبحاث الصارمة التي قام بها محافظ السجن الى نتيجة . وثبت انه لم يزر بلاريون في السجن سوى المركيز تيودور . ومن ذا الذي يبلغ به الجنون والتهور الى حد اتهام الوصي على العرش بتمهيد سبل الهرب للسجين ؟

وقالت الاميرة فاليريا لوصيفتها ديانارا في هذا الصدد :

– هل رأيت ؟ هل تتحقق نبوءتي ؟

وفي نفس هذا الوقت تمكن بلاريون من اجتياز نهر (البو) في قارب أحد الصيادين وراح يسير الهوينا مطمئناً بعد أن وصل الآن الى تخوم ميلان . على أن خواطره عادت الى الاميرة فاليريا وراح يخاطب نفسه قائلا :

– أنا في نظرها شقي ، مخادع ، جاسوس . وهذا لا يهم . فاني لن أكون في نظرها شيئاً ذا قيمة . ولا يهم كذلك يجب أن تعرف كيف لقي سبينو حتفه . . فلتفكر إذن كما يحلو لها . فاني قد أمنتها وأمنت شقيقها على حياتها في الوقت الحالي على الأقل .

القسم الثاني

الفصل الاول

معجزة الكلاب

لم يبق امام بلاريون بعد ان خابت ظنونه وأيقن من تأصل الشر في جنس الانسان الا أن يستأنف رحلته الى (بافيا) للاندماج في جامعتها .. على انه حين وصل الى تخوم ميلان قرر ان يعرج على هذه الامارة العظيمة التي خلق منها عاهلها الكبير جيان جاليازو مسكونتي دولة قوية الشوكة موفورة الخيرات والتي تقسمتها المطامع من بعده في عهد ولديه جيان ماريا وفيليبو ماريا حتى انكمشت رقعتها وتضاءل سلطانها .. وكانت في هذا العهد تحت حكم فاشينو كاني ذلك الجندي العظيم الملقب بكونت بياندراتي الذي

كان يدير شؤونها حتى يبلغ جيان ماريا سن الرشد ، الذي انتسب اليه بلاريون واتخذ منه أباً ..

وفيما كان بلاريون جالساً مفارشاً الارض السندسية يتناول زاده اليسير المؤلف من الجبن والخبز إذ طرق سمعه أصوات مختلفة صادرة من الغابة المجاورة ، هي أصوات آدمية وحيوانية ممتزجة بقرع سياط تنهب الهواء . وفجأة رأى رجلا يبرز من بين أشجار البلوط وجعل يسابق الريح قاصداً الى الغدير الذي جلس بلاريون عند حافته الاخرى . وكان الرجل عاري الرأس يتموج شعره الاسود المرسل في الهواء وهو يركض ركضه الجنوني .. وما كاد يصل الى منتصف المسافة بين الغابة والغدير حتى ظهر مطاردوه للعيان .. ولم يكونوا من البشر .. وإنما كانوا ثلاثة من الكلاب الضخمة الوحشية راحت تثب في أثره صامتة ..

ثم ظهر من بين اشجار الغابة فريق من الفرسان على رأسهم فتى فاخر الثياب كان يستحث الكلاب بصوته الأجش المدوي .. وكان بعضهم يرتدي مثل ملابس الفتى الفاخرة ، وبعضهم الآخر من فريق الخدم والاتباع ، ومن بينهم اثنان أمسك كلاهما بيده عنانا من الجلد يطوق ستة من الكلاب الجامحة النسابحة المتوثبة . وكان في اثر الفتى مباشرة رجل ضخم قوي البنية أسود اللحية ممتطياً جواداً ضخماً وممسكاً بيده سوطاً كبيراً يضرب به

الهواء ويستحث الكلاب الجهنمية لكي تدرك الطريدة البشرية قبل ان تبلغ الماء .

لكن الرعب أعار الرجل المطارد أجنحة كاد يطير بها .. ووصل الى حافة الغدير قبل الكلاب الثلاثة الوحشية بنحو عشرة أمتار .. ثم ألقى بنفسه في المياه وجعل يسبح بكل ما أوتي من قوة وجهد .. وجاءت الكلاب في اثره بعد أن وثبت الى الماء معاً .

استولى الرعب والألم على بلاريون . فركض الى حيث يصل الرجل الى الضفة التي كان قريباً منها .. ومد له يده حال وصوله فتشبث الهارب بها ، وجذبه بلاريون بقوة من الماء .

وهتف الرجل وهو يلهث : جزاك الله خيراً يا سيدي ! جزاك الله خيراً ؟

وتهالك الرجل على يديه وركبتيه وقت ان وصل اول الكلاب الثلاثة الى الضفة محاولاً أن يتسلق سطحها الرخو .. وفي اللحظة التالية استقر خنجر بلاريون في عنقه .

ارتفعت صيحات الغضب والهياج من أفواه المطاردين عند الضفة الأخرى .. لكن ذلك لم يمنع بلاريون من أن يغمد خنجره في عنق الكلب الثاني حين وصل الى البر .. ثم ألقى جثته في الماء مع سالفه دون أن يكترث بصياح الصائحين .

على أن الكلب الثالث وقد كان ضخم الجثة أصفر اللون اسوده تمكن من الوصول الى الضفة في أثناء انشغال بلاريون

بزميله .. ووثب فوقه وهو يزمجر زمجرة مروعة عميقة فألقاه على الأرض .. فامتدت يد بلاريون اليسرى بحركة غريزية الى عنقه حتى يدفع عنه هذه الأنياب المرعبة ، ودفع يمناه المسكة بالخنجر في أمعاء الكلب وطعنه بكل قوة . فعوى الكلب ألماً عواء مروعاً ، وانكمش على نفسه قليلاً . فعالجه بلاريون في مثل لمح البصر بطعنة أخرى نفذت الى قلبه . فهوى الكلب فوقه جثة هامدة ، وتفجر منه الدم حاراً غزيراً فبلل بلاريون من رأسه الى قدميه . لكنه دفع عنه هذه الجثة التي كانت في ثقل جثة الرجل ، ونهض على قدميه متباطئاً وهو يتساءل في قلق ما تكون نهاية هذه المغامرة الفريدة المفاجئة !

وكان الفتى الفاخر الملابس يسب سباً قبيحاً مروعاً .. ثم صاح آمراً :

ـ اطلق الكلاب كلها عليها ! اطلق الكلاب كلها يا سكارشيا .

لكن الرجل الضخم فعل شيئاً من لون آخر . فقد جذب قوساً كان معلقاً في سرجه وصوبه نحو بلاريون فكاد يقضي على حياته لولا الرجل الذي أنقذه . فان هذا الرجل قد استمد من الرعب قوة وترنح على قدميه لكي يستأنف فراره . فرآه الرجل الضخم وهو يسدد القوس الى بلاريون . وسرعان ما عدل وسددها الى الرجل وأطلق السهم . فنفذ في رأس الهارب المسكين وجندله صريعاً .

وقبل ان ينزل سكارشيا القوس عن كتفه لكي يضع فيه سهماً آخر يصطاد به بلاريون لطمه الفتى بالسوط على وجهه . وصاح فيه :

— يا للشيطان ! من أمرك أن تطلق السهم يا حيوان ؟ اني أمرتك ان تطلق الكلاب . هل تريد أن تفسد علي لذة الصيد هل طاردته كل هذه المطاردة لكي ينتهي الى هذه النهاية ؟

وراح الفتى يسب سبا قبيحا منكراً ويأمر الخدم ان يطلقوا الكلاب المقيدة، لكن سكارشيا لم يجزع من السب ولطم السوط وقال :

— هل تريد سموك أن يقتل ذلك الشقي كلابا أخرى قبل ان تقضي عليه ؟ هو مسلح بخنجر. والكلاب تحت رحمته وهي تتسلق الضفة .

— انه قتل كلابي . وسيثأر الكلب لأخيه الكلب . يا حيوان .

وأدرك بلاريون انه ولا ريب لاحق بصاحبه التعس إذا هو حاول الفرار . وامتزج الخوف في نفسه بالرعب والمقت لهؤلاء الوحوش الضارية الذين يصيدون الانسان كما يصاد الحيوان . ومهما يكن ذنب هذا التاعس المنكود الحظ الصريع تحت قدميه فلن يكون مبرراً لهذا الهول ولهذه الشناعة التي تجعل منه طريدة آدمية .

وخاطب أحد الخدم سكارشيا . والتفت هذا الى سيده

الفتى قائلا :

— يقول شيكو ان هناك مخاضة يا مولاي الدوق .

وقد وصلت هذه الجملة الى سمع بلاريون . فجعل يساءل نفسه من يكون هذا الدوق السبابة الذي هو أقرب في لغته الى أهل الاصطبلات وقرر لا بد ان يكون دوق ميلان . ثم تذكر تلك القصص الوحشية التي كان يسمعها عن قسوة هذا الامير ابن الحادية والعشرين . ابن جيان جاليازو العظيم .

وهمز أربعة من الخدم جيادهم قاصدين اجتياز المخاضة. وسمع بلاريون سكارشيا يصيح مخاطبا إياه بصوته القاصف وهو يسدد اليه قوسه :

— إذا تحركت خطوة واحدة من مكانك، انتقلت الى جوار خالقك !

وفيما كانت الجياد تخوض المياه فيتناثر رشاشها تذكر بلاريون ان فاشينو كاني هو حاكم ميلان الفعلي ، واعتزم ان يستغل هذا الاسم مرة أخرى للاحتماء بصاحبه .

ولما وصل الخدم الراكبون الى حيث يقف . الفو أمامهم شابا رابط الجأش يدعو نفسه ابن فاشينو كاني ويحذرهم أن يسيئوا معاملته على انه لو زعم لهم انه ابن البابا نفسه لما تراجعوا ولا ترددوا إذ كانوا لا يعرفون إلا أوامر سكارشيا ولا يتجاوزون في شيء عن الكلاب التي يقودونها . ثم قيدوا يديه بحبل ربطوه الى أحد الجياد وأرغموه على خوض المياه التي بلغت وسطه ..

بيد أنه اعتصم بالصبر والجلد . ولما وصل بين يدي الدوق الفتى وقف أمامه رافع الرأس موفور الكبرياء .

رأى بلاريون أمامه وجهاً قبيحا تشيع القسوة في كافة معالمه وحدق فيه صاحب الوجه فصمد بلاريون لنظراته .. فعبس الفتى وقال :

- أيها الشقي الوقح ! هل تعرف من أنا ؟

فأجاب بلاريون بصوت يكاد يبلغ حد الازدراء :

- احسبك دوق ميلان .

- آه ! تحسبني ! ستعلم هذا علم اليقين قبل ان ننتهي منك ؟ وهل كنت تحسب ذلك حين ذبحت كلابي ؟

- لم يخطر ذلك ببالي حين رأيتك تصطاد بها عامدا .

- ولم ؟

هل يخطر بالبال ان أميراً يصطاد احدا من البشر ؟

- ولم .. يا (كلب) ؟

- هل تعرف سموك اسمي ؟

- اسمك يا متشرد ؟ اي اسم !

- هو الاسم الذي سميتني به الآن . وكلمة كلب معناها بالإيطالية (كاني) . انا بلاريون كاني ابن فاشينو كاني .

احدث هذا التصريح تأثيرا في نفوس الحاضرين . وتقدم شاب وسيم قوي البنية يحمل صقرا محجوب الوجه فوق ساعده ، الى حيث يقف بلاريون ، وجعل يتفرس في وجهه ، فالتفت

اليه الدوق وسأله :

- هل سمعت ما يقول يا فرانسسكو ؟

- نعم . لكني لم اسمع ان لفاشينو ولدا .

- آه ! هو ابن زنا ؟ لا بأس . سنخلص فاشينو من هذه المضايقة . ابتعدوا يا هؤلاء ! قفو على امتداد الضفة !

انتشر الجميع على امتداد الضفة حتى يحولوا دون اجتياز الفريسة للغدير واصدر الدوق امرا ففكت قيود بلاريون والفى نفسه حرا وادرك النهاية المرعبة التي تنتظره فتملكه ذعر شديد . بينما صرخ فيه الدوق :

- والآن يا شقي . نحب ان نراك تجري ؟

ثم التفت الى سكارشيا قائلا . كلبين !

فصل سكارشيا كلبين من الكلاب الستة بيد احد الخدم .. وامسك كلاهما من الطوق الملتف حول عنقه وجثا بينهما على احدى ركبتيه منتظرا امر الدوق لاطلاقهما .

وفيما كان بلاريون جامدا في مكانه كالمصعوق وهو لا يكاد يصدق ما يرى ، خاطبه الدوق قائلا :

- انك تضيع الوقت . سأطلق الكلبين بعد لحظة . فاركض ما دام الوقت امامك .. واذا كنت خفيف القدمين فقد تنجو بحياتك ..

امتقع وجه بلاريون وانتابه رعب لم يشعر بمثله في حياته . ثم اطاع آخر الامر وراح يركض في جنون متجها الى الغابة .

على أنه لم يكد يجتاز عشرين متراً حتى دوت ضحكة الدوق في اذنيه . وسرعان ما ثارت رجولته وتمردت كرامته وتغلبت على رعبه الأعمى .. فأمسك عن الركض فجأة واعتزم الا يمهد لهذا الوحش القاسي فرصة الاستمتاع التي ينشدها.. ولما رأى الدوق انه يوشك ان يحرم من اللذة التي كان يتوقعهـــا راح يسب سباً قبيحاً .. فزجر سكارشيا قائلا :

– سيجري كما يحب يا صاحب السمو متى أطلقت الكلبين..

– أطلقهما إذن !

وقف بلاريون حيث هو .. بينما وثب الكلبان الى الامام.. فاستولى عليه دوار شديد .. بيد انه صمم ألا يقاوم حتى يضع حداً لهذا الرعب ، وأدرك ان الكلبين سيثبان على عنقه أول ما يثبان ، وهكذا ينتهي بسرعة ..

وأطبق بلاريون عينيه ، وراح يغمغم صلاة قصيرة ، ودنا الكلبان منه ، لكنهما لم يثبا على عنقه ، بل راحا يتقدمان في تردد ويتشممان الهواء ، ثم جلسا على الأرض تحت قدميه وهما يشمان ريحه ويضربان الأرض بذنبيهما في تذلل وخضوع ..

تعالى صياح الذهول من أفواه الجميع ، وامتد هـذا الذهول الى نفس بلاريون وهو ينظر الى الكلبين الخاضعين تحت قدميه ، وحاول أن يعلل هذا المسلك الفريد فخطرت له تلك المعجزات الالهية التي تظهر أحياناً وتنقـذ القديسين والأبرار من قساوة البشر .

والواقع أن هـــذا الخاطر دار برأس أكثر من واحد من المشاهدين ، بل دار برأس سكارشيا الذي نهض من مكانه ورسم علامة الصليب ، وهتف في صوت متهدج : معجزة !!

لكن الدوق لم يكن ممن يؤمنون حتى بالمعجزات . فصاح :

– سنختبر هذه المعجزة ! اطلق كلبين آخرين يا مغفل !

– يا صاحب السمو !

– اطلق كلبين وإلا أريتك ما تكون المعجزة !

تغلب خوف سكارشيا من الدوق على خوفه من هذه الظاهرة الخارقة . فأطلق كلبين راح الدوق يستحثهما بصوته الأجش واعمل سوطه في مؤخرتيهما . بيد أنهما فعلا كما فعل سابقاهمـا . فاشتد ذعر المشاهدين وتعاظم بهرهم . أما بلاريون فقد ثابت اليه حواسه وفهم التفسير الطبيعي لهذه الظاهرة . فلم يذهـــل . واستجمع جأشه .

وصرخ الدوق وقد تناثر الزبد من شدقيه :

اطلق ميسالينا !

وقد اعترض سكارشيا وآخرون في رفـــق وتحفظ . وقال الشاب الوسيم حامل الصقر انه يتوسم سحراً ونصح الدوق ان يحذر ويتحوط . بيد ان الدوق لم يعبأ بهم وردد أمره قائلا :

– اطلق ميسالينا !

لم يسع سكارشيا إلا أن يمتثل. واطلق أشد الكلاب شراسة وضراوة . وفيما كان يثب متجهاً الى بلاريون كان هذا قد تشدد

واطمأن الى هذه المنعة وراح يربت على رؤوس الكلاب الواقفة حوله ويخاطبها فتثب حوله وتنبح نباحا رفيعاً . وما ان جاء ميسالينا المرعب وحذا حذو زملائه حتى اشتد انفعال الحاضرين جميعاً وجعلوا يهتفون مبهورين ما بين قائل : هذه « معجزة » ، وصائح : بل هو « سحر »

وأخذ الخوف يتسلل اخيراً الى نفس الدوق . فتقدم الى الأمام يتبعه بعض رجاله . ولم يتمالك بلاريون حين رأى ذعرهم وانزعاجهم ان ضحك مبتهجاً ضحكة يشوبها الازدراء لأصحاب هذه العقول القاصرة فقال الدوق مزمجرا :

– أي سحر هذا الذي صنعت يا شقي ؟

وقف بلاريون أمام الدوق في جرأة .. واعتزم أن يبدو أمامهم غامضاً وان يغذي شعوذتهم .. فقال :

– ! ألم أقل لك اسمي كاني (كلب) ؟ ان الكلب لا يأكل الكلب .. وهذا هو كل السحر هنا ..

فاحتقن وجه الدوق وقال :

– هل تسخر مني يا قذر ؟ سأعرف كيف انتزع منك هذا السر !

ثم التفت الى سكارشيا قائلا :

– اجمع الكلاب .. وقيد هذا الشقي ، وليتبعنا ..

وسار الدوق يحواره يتبعه رفاقه تاركاً الخدم لتنفيذ أوامره. ولما تردد هؤلاء في إطاعة سكارشيا دنا هذا من بلاريون مترددا

وقال في صوت الذي يفعل الشيء مكرهاً :

لقد سمعت أوامر سمو الدوق ..

فمد بلاريون يديه صامتاً .. بينما قال سكارشيا همساً :

– اني أفعل هذا بأمر الدوق .. وما انا إلا آلة في يده ..

وراح يقيد معصمي بلاريون مترفقاً .. ثم التفت حوله ولما استوثق من أبعاد الخدم عن مسمع الصوت همس :

– ثق ان فخامة الكونت بياندراتي سيعرف بوجودك في خلال ساعة من وصولنا الى ميلان .

الفصل الثاني

فاشينو كاني

وصل الموكب الى ميلان وقت الغروب .. واجتاز الخندق العميق المحيط بالمدينة فوق القنطرة الضخمة المفضية الى الباب المشاد على النمط الدوماني حيث كان فريق من الجنود المأجورين يسمرون ويلغطون . وفيما كان الموكب يسير في شوارع المدينة رأى بلاريون وهو جالس في مكانه خلف سكارشيا فوق متن الجواد الضخم ، الجماهير تقف على الجانبين وتحيي الدوق بخضوع واحترام بيد انه لم يلمح في هـــذه العيون سوى الحقد أو الخوف .

ولما انتهى الموكب الى قصر (بروليتو) الحصين مقر حكام ميلان ترجل الدوق عن جواده وأصدر أمره النهـــائي بشأن بلاريون قبل أن يدخل القصر .. فأمر ان يكون (تسليته)

واقتيد بلاريون إلى غرفة حجرية مظلمة رطبة تحت الأرض ، يبقى رهين جدرانها القاسية زهاء ساعتين دون ان يتصدق عليه آسروه حتى بلقمة من الخبز . ثم تعطف الدوق أخيراً وزاره بنفسه يتبعه فرانسكو لوناتي وأربعة أشخاص يرتدون سترات من الجـــلد بينهم سكارشيا .. وتفرس الدوق في بلاريون بنظرات أرسلت رعدة في جسده ، وقال له :

– والآن يا شقي ؟ . هل تتكلم ؟ . هل تعارف لنا ما لون هذا السحر الذي صنعت ؟ .

– ليس سحراً ما صنعت يا سيدي الدوق

فقال الدوق باسماً : انت في حاجة إلى (صوم) يرد اليك عقلك .. هل سمعت عن (الصوم) الذي ابتكرته ؟ . هو يدوم أربعين يوماً .. وهو يزهد الأشقياء في الحياة حتى ليبتهجون في النهاية ان يتخلصوا منها .. سنبدأ معـك الآن .. واوكد انك ستندم على قتلك كلابي ندمك على ان هذه الكلاب لم تقتلك .

ثم التفت إلى سكارشيا قائلاً : خذوه !

واقتيد بلاريون إلى غرفة حجرية مظلمة رطبة .. فرأى فيها آلة خشبية مستطيلة مرتفعة كالمائدة ، وهي مؤلفـــة من اطارين خشبيين مستطيلين متداخلين تصلها مسامـــير لولبية خشبية كبيرة ، وتتدلى الأربطة من اطارها الداخلي .

وقال الدوق : مددوه ! .

وسرعان ما تقدم خادمان وعريا بـلاريون من ملابسه حتى وسطه ووقف سكارشيا جانباً مستسلماً لخوفه الخرافي متوقعاً ان تأتي النجدة بين وقت وآخر .

وما هي الا لحظة حتى جاءت النجدة التي كان سكارشيـا يتوقعها . إذ كانت نتيجة للرسالة التي أرسلها خفية .

فقد فتح الباب الضخم وبدا في مدخل الغرفة رجل مهيب الطلعة طويل القامة قوي البنيه حاد العينين أسودهمـا في نحو الخمسين من عمره وان كانت ملامح وجهه لا تكاد تنبيء بأنه جاوز الأربعين .

وقف الرجل لحظة يدير نظره في أرجاء الغرفة .. ثم قال في صوت رنان عذب تشوبه رنة التهكم :

– أي منكر تقترف الآن يا صاحب السمو ؟ .

التفت الدوق حوله .. وكف الخـدم عن عملهم .. وهبط القادم الدرجات الحجرية المؤدية إلى أرض الغرفة .. بينما صاح الدوق محنقاً :

– من دعاك إلى الحضور هنا ؟ .

– صوت الواجب .. فهناك أولاً واجبي كحاكمك ، يهيب بي ان أرى ..

فقال الدوق في هياج شديد :

– حاكمي .. ! حـاكمي ! .. انت لا تحكمني يا سيدي ، وان كنت تحكم ميلان ! . ولعلك تتذكر انك تحكمهـا بأمري أنا السيد هنـــا ! . انا الدوق ! . ومن الحكمة الا تنسى هذه الحقيقة .

فقال القادم في صوته الهادىء الساخر :

– قد لا اكون حكيماً .. فمن يدري مـا هي الحكمة ؟ . لكن ثمة واجباً آخر لبيت نداءه .. هو واجب الابوة .. فقـد أبلغوني أن هذا الأسير الذي تتسلى بتعذيبه كعادتك يزعم انه ابني ..

فقال الدوق متوعداً : أبلغوك ؟ . من هم ؟ .

– وهل استطيع ان اتذكر ؟ . ان البلاط مكان الاشاعات ومن يعرف أحد من افراده امراً من الأمور رددته جميع الالسنة . لكن هذا لا يهم . وانما المهم هو هل بلغك انت أيضاً ما قيل ؟ .

وقد فاه الرجل بجملته الأخيرة في صوت جـاف آمر .. فاستكان الدوق رغم صخبه .. وهتف :

– يا للشيطان ! . ألم تسمع انه ذبح كلابي ؟ . ذبـح ثلاثة منها . وسحر الباقين ..

– كان يجب أن يسحرك أنت ايضـاً يا سيدي الدوق ، لاجترائك على تعذيبه رغم دعواه بأنه ولدي ، دون ابلاغي .

– اليس هذا من حقي ؟ . الست أنا المتصرف في حياة الناس

WWW.liilas.com/vb3
RAYAHEEN

في بلادي ؟

فلمعت عينا الرجل ، وقال : انت ..

بيد انه أمسك عن اتمام جملته .. وأومأ بيده إلى سكارشينا قائلاً :

– اذهب يا هذا .. وحذ انجاسك معك ! .

فقال الدوق : هم هنا لخدمتي ..

– لكن لا حاجة إلى وجودهم ..

– يا الهي ! . انت تزيد كل يوم غروراً يا فاشينو ! .

– اذا طردتهم من هنا ، كان لك رأي آخر .

وجعل الرجل يتفرس في عيني الدوق بنظرات صارمة حتى تزايل هذا تحت نظراته ، ولم يسعه إلا أن يامر الخدم بالانسحاب مسجلاً بذلك هزيمته .

ولما انصرف الخدم التفت فاشينو إلى الدوق ، وقال له مؤنباً :

– انك تعتز بكلابك .. وان هذا اللهو الذي تتلذذ به هو خطر وهو وحشي .. وطالما انذرتك من قبل .. وسيأتي يوم تنقض عليك كلاب ميلان وتنهش عنقك .

فقال الدوق بصوت مختنق : كلاب ميلان ؟ .علي أنا ؟ .

– عليك أنت يا من تعد نفسك المتصرف في حياة الناس ولتذكر ان مجرد كونك دوقاً لا يعني انك اله . لقد قيل لي ان الرجل الذي كنت تطارده هو (فرانسكو بوسترلا) ..

– انهذا الشقي الذي يدعو نفسه ابنك حاول انقاذ حياته ، وقتل ثلاثة من كلابي ..

– انه كان يسدي خدمة طيبة .. وليت (بوسترلا) استطاع ان يفلت منك .. طالما كنت تطارد بكلابك البؤساء من المذنبين المتهمين بالسرقة أو النهب مدفوعين بدافع الجوع والحرمان ، فقد يدركك القصاص بطيئاً . لكن متى سلطت كلابك الوحشية على ابناء البيوت الكبيرة استعجلت نهايتك ووقفت على حافة الهاوية ..

– احقاً ؟ . احقاً ؟ . لا بأس يا فاشينو .. فلن انسى ان احدهم كان قائد الحصن (مونزا) حين ماتت أمي فيه .. ولعلك قد سمعت فيما سمعت من اشاعات البلاط ان الشقي دس لها السم .

– ان هذا الشاب لم يكن يعرف دوافعك . وكل ما رآه هو انسان من بني جنسه تطارده الكلاب الوحشية . واني وان كنت ممن لا يتعلقون بالانسانية فما كنت اتردد في فعل ما فعله هذا الشاب لو وقفت مكانه .. واني امجد عمله .. وفوق ذلك فقد ابلغك أنه يدعى كاني .. وهذا اسم يستوجب شيئاً من الاحترام في ميلان ، حتى من الدوق .

ثم تصلب صوته واستطرد :

– طارد آل (بوسترلا) كما تحب يا سيدي الدوق ، تحت

مسؤوليتك لكن لا تطارد احداً باسم كاني دون أن تخطرني بنيتك أولاً .

ثم التفت إلى بلاريون وقال له : تعال يا ولدي .. ان سمو الدوق يأذن لك بالانصراف .. البس ثيابك وتعال معي ..

كان بلاريون واقفاً ينظر في اهتمام لا يخلو من الخوف ، فهو يدرك انه أفلت من نار ليقع في نار أخرى ، على انه لم يلبث ان أطاع وارتدى سترته التي استحالت خرقاً وتبع الكونت بياندراتي إلى خارج الغرفة الحجرية .

ودلف بلاريون في أثر الكونت إلى غرفة فخمة ما كاد يستقر فيها حتى قال فاشينو وهو يتفرس فيه مليا :

– اذن فقد بلغت بك الوقاحة إلى حد الادعاء بأنك ولدي !. يظهر لي ابناء لا اعرفهم ! .. لكني اهنئك على هذا الاختيار ، وعليك الآن ان تخبرني من هي أمك التي تشرفت بي؟

وتهالك فاشينو في مقعد وترك بلاريون واقفا امامه في هيئته الزرية ، فقال الشاب :

– اصارحك يا مولاي اني اسرفت في انتحال هذه الصلة لجزعي من موت ذريع .

– أسرفت ؟ . دعني أتبين مدى هذا الاسراف .

– انا ربيبك فقط .

فعبس فاشينو وقال : كفى ، هذا كذب أنا لا اذكر اني اتخذت ابنا .

فقال بلاريون بل أنا الذي اتخذتك أباً يا مولاي ، كما يتخذ الانسان شفيعاً في ساعة الخطر ، فقد كنت في مأزق شديد الحرج ، ولم أجد وسيلة لدفع هذه القسوة الوحشية التي كانت تهدد حياتي الا أن اتخذ اسماً يحميني ويدفع عني الهلاك .

راح فاشينو ينظر اليه في شيء من الغضب حتى لقد خفق فؤاد بلاريون جزعاً وخيل اليه ان الحظ بدأ يخونه ، ثم ضحك فاشينو اخيراً ضحكة لا تخلو من الوعيد ، قائلاً :

– وهكذا اتخذتني أبا ! . لكن اذا كان لكل انسان ان يختار ابويه .

ثم كف عن اتمام جملته .. واستطرد : من انت يا شقي ؟ . وما اسمك ؟.

– اني ادعى بلاريون يا مولاي .

– بلاريون ؟. هذا اسم غريب ! . وما هي قصتك ؟. كن صادقا معي . والا اعدتك إلى براثن الدوق .

تشجع بلاريون . وأدرك انه أصدق هذا الجندي العظيم الكلام فقد يشمله بحمايته ويهيء له سبيل الخروج من المدينة آمنا . فقص عليه قصته الحقيقية كما سردها على لورنزاشيو عند ذهابه من دير سيليانو قاصدا إلى جامعة بافيا .. لكنه لم يخبره بمغامراته في (مونتفيرا) وانتحاله اسمه فيها .. بل انتقل إلى سرد المغامرة التي حدثت له عند الغدير . لكن هذه القصة

اطربت فاشينو حتى ابتسم في نهايتها وقال :

– اذن لقد خطر لك في ساعة الخطر ان تتوهم ان ذلك الجندي الذي رعاك طفلا كان يدعى فاشينو ! . ان هذا يدل على ذكائك وسعة خيالك ! . لكن ما هي الحقيقة في موضوع الكلاب ؟ . هل توسلت حقا بالسحر كما زعمت ؟ .

– اني كنت صادقا مع الدوق حين قلت له ان الكلب لا يأكل الكلب .

– كيف ذلك ؟ هل تزعم ان مجرد انتحالك اسم كاني (كلب) ، كفى لكي ؟.

– كلا . ان رائحة الكلاب كانت تفوح مني . فان الكلب الضخم الذي قتلته غمرني بدمائه ، ولم تشم الكلاب الهاجمة في شخصي سوى رائحتها .

فضحك فاشينو . وشد ما كانت دهشة بلاريون حين رأى هذا الجندي الجبار يدنو منه ويضع يده على كتفه قائلا :

– ان محاولتك انقاذ (بوسترلا) غير مكترث بحياتك هو شهامة أجلها فيك ، وتستحق عنها مني كل خير . هل قلت انهم ينوون ان يجعلوا منك راهبا ؟

فأجاب بلاريون وقد تورد بعد هذا الثناء الفجائي :

– هذا رجاء رئيس الدير . وقد يتم متى عدت من (بافيا)

– لكن هل هو رجاؤك انت ؟ .

– اكاد اخشى انه لم يعد كذلك .

– اقسم انك بعيد عن اصحاب الأديرة . لكن هذا شأنك وستنال مني كل ما توسمته من الرعاية حين اتخذتني أبا . وستواصل غدا طريقك إلى (بافيا) مزودا بكل ما يلزمك

فقال بلاريون : الحق يا مولاي انك تحقق ايماني في المعجزات .

فابتسم فاشينو وصفق بيديه . ولما جاء الخدم أمرهم ان ستموا بتنظيف بلاريون واطعامه . ثم يستانف حديثه معه

الفصل الثالث

البطل

اسهب فاشينو كاني وبلاريون في الحديث ليلة لقائهما الاول . وكانت النتيجة ان تأخر رحيل بلاريون الى (بافيا يوماً ثم آخر وقدر عليه الا يزور هذه المدينة قبل بضعة اعوام . وكانت زيارته لها تختلف كل الاختلاف عن زيارة طالب العلم والمعرفة

والواقع ان فاشينو مال إلى الشاب وأعجب بدهائه وشجاعته وذكائه . وقد صارحه بلاريون بقصته كاملة كما حدثت في ولاية (مونتفيرا) . وسمع هذه القصة مع فاشينو زوجته الحسناء الشابة وقد أثارت ضحكها حيناً وبهرتها حيناً آخر . لكنها أجمعا على الاعجاب بدهاء الشاب وسعة حيلته . وقال فاشينو :

– ان المركيز تيودور ثعلب ماكر ، وان دهاءه ليفوق

طمعه . لكن هذا الطمع سيتغلب يوماً على الدهاء ، وعند ذلك يحصد تيودور ثمار ما يغرس . اني اعرفه جيداً . وقد تلقيت مهنة الحرب في خدمة والده . وهي مهنة أجدى للإنسان من الرهبنة .

ثم انتقل فاشينو من حديث المركيز تيودور إلى موضوع بلاريون وقال له :

– ما احراك ان تقر هذا القول وانت بهذه الشجاعة وهذا الذكاء هل تترك شجاعتك وذكاءك يصدآن بين جدران الدير ؟.

تنهد بلاريون وراح يفكر بهذه الآمال العريضة التي يفتح فاشينو ابوابها إمام عينيه ، وجعل يوازن بين هدوء الدير ونضال العالم وأخذ فاشينو يحدثه عن الحرب وما يستطيع الانسان ان يحقق بها من مطامح ويحرر من أمم ويرد من عدوان ويستخلص من حقوق . وأشد ما دهش فاشينو حين رأى الشاب يتلقف هذا الحديث ويحدثه بدوره عن فنون الحرب عند القدماء حديث المحقق الذي توفر على الدراسة والتعميق . والواقع ان فاشينو قد بهره المام الشاب الواسع – نظرياً على الأقل – بهذا الفن الذي شب هو وشاب عليه . وقرر له ان دراسة هذا الفن عملياً جديرة بان تجعل منه شخصية نابهة .

والحق يقال ان بلاريون كانت تساوره رغبة ملتهبة لتكريس خدماته لاميرة (مونتفيرا) الباسلة ، وان كانت هذه الرغبة لم تتجاوز حد الأمل الخيالي . لكن هذا الباب الذي فتحه فاشينو

امامه قد يفضي به إلى تحقيق هذا الحلم في النهاية .

وقالت الكونتس قد أحسن وصفك يا سيد بلاريون . فانك تبرهن تماماً على انك لا تصلح لحياة الدير .

كانت الكونتس امرأة حسناء لا تجاوز الثلاثين من عمرها ، متوسطة الطول ، وافرة الحسن ، تشف ملامح وجهها وعينيها الزرقاوان عن الدهاء والطمع . والواقع انها لم تتزوج فاشينو وهو يكاد يكون في ضعف سنها الا طمعاً في الجاه والمجد والسلطان . ولما تطلع بلاريون في عينيها بنظراته المفعمة بالصراحة خامرها بعض القلق . فادارت رأسها وتشاغلت بالنظر في مرآة مثبتة في مروحة بيدها . بينما قال بلاريون رداً على كلامها :

اذا انتظرت دعوة أخرى فاني أكون مضحكاً حقاً .

فقالت باسمة وهي تنهض متباطئة :

— هذا أسلوب أهل البلاط في الكلام يا سيدي . يجدر بك ان تخلق منه شيئاً يا فاشينو .

والواقع ان فاشينو شرع في تحقيق هذه الغاية بغير ابطاء فانتقل في اليوم التالي مع أهل بيته وفي جملتهم زوجته وبلاريون إلى (قصر الصيد) في (ابياتي) احدى ضواحي المدينة . وفي هذا القصر أخذ بلاريون يتثقف ثقافته الدنيوية . وما وافى عيد الميلاد حتى تلاشى من نفسه كل تفكير في حياة الرهبنة .

وقد درس بلاريون الفروسية وتعلم استخدام الأسلحة على

أنواعها على يدي فاشينو نفسه وضابط سويسري في خدمة فاشينو يدعى (ستوفل) وفي نفس الوقت اخذت الكونتس على عاتقها تلقينه كثيراً من الواجبات والتقاليد الاجتماعية . وكانت تخصص له ساعة في مساء كل يوم لتعليمه الرقص والمحاصرة . وكانت ترافقه احياناً إلى المراعي المجاورة راكبين جوادين حيث تأخذ في تلقينه فنون القنص بواسطة الصقور وهو لون من الرياضة كانت تجد فيه متعة عظيمة وتبرع فيه براعة شديدة رغم ما فيه من قسوة تناقض ما للمرأة من طبع رحيم ونفس رقيقة .

وبعد ثلاثة أشهر تلقى فاشينو رسالة من ميلان تنبئه بان (استوري فكونتي) احد اقرباء الدوق يقوم بغزوات في بعض انحاء المدينة كانت تلقي الرعب في قلوب السكان ، وان (اتوفي بونتيرزو) وهو من قواد جيان جالياز و الذين انشقوا على الدوق بعد وفاة والده يجند جيشاً عظيماً لاجتياح المدينة .

وما كاد فاشينو يلم بهذه الانباء المزعجة حتى قرر العودة في اليوم التالي إلى ميلان . فاصدر أمره إلى رجال حاشيته بالتأهب ثم انتحى ناحية بربيبه بلاريون وقال له وهو يبرز رسالة من صدره .

— اليك مهمة خاصة يا بني . أركب على رأس عشرة من الفرسان واقصد إلى جنوا حيث تسلم هذه الرسالة إلى (بوشيكو) نائب ملك فرنسا فيها .. وعليك ان تسلم الرسالة يداً بيد . وان

احتجت فعززها بكلامك .. اصغ الي .. اننا نريد ان نستأجر منه الفا من الفرسان الفرنسيين . وقد عرضت عليه ثمناً طيباً في الرسالة لكنه رجل جشع وقد يسرف في الطلب. واني افوضك ان تعده ضعف هـذا الثمن اذا لزم الأمر . اني لن أترك فرصة امام (بونتيرزو) لكن لا تدع بوشيكو يظن اننا مهددون ، والا حدد الثمن الذي يروقه. بل قل له اننا نريد هؤلاء الفرسان لتأديب بعض الخوارج على ميلان .

وقد القى عليه بـــلاريون بعض الاسئلة . ثم أعرب عن استعداده للقيام بهذه المهمة ، وشكر لفاشينو هـــذه الثقة التي وضعها في شخصه .

ثم تعانق الاثنان وافترقا . فقصد بلاريون إلى جنوا . وعاد فاشينو مع حاشيته إلى ميلان .

ومع ان فاشينو وصل إلى المدينة وقت الغروب فان انبـاء عودته ذاعت في كافة انحائها ، واستقبله الناس في ساحة القصر الخارجية بهتاف يعم الآذان . وقد كان هذا الاستقبال الحماسي نتيجة لرد الفعل الذي احدثه في نفوسهم ما قيـل عن انشقاقه فيمن انشقوا على الدوق جيان ماريا وتركهم ايام تحت رحمة هذا الفتى الطائش واعوانه المفسدين من امثـــال (ديللاتوري) و (فرنسسكو لوناتي) . والواقع ان فاشينو كان امـــل الشعب ومعقد رجائه في الحرب والسلم .. وقد الهب وجوده في هـذا الوقت العصيب حماستهم حتى كان هتافهم له يشق عنان السماء.

وفيما كان فاشينو يرد تحية الجماهير شاكراً مغتبطاً لمح الدوق يطل من احدى نوافذ القصر على هذا المشهد برفقة (ديللاتوري) وقد بدت في عينيه دلائل الحقد والشر . فكانت هذه النظرات بمثابة ماء بارد انصب على حماسته وابتهاجه .

وبينما كان فاشينو يساعد الكونتس على الهبوط من محفتهـا وقد اغرورقت عيناه بدموع التأثر همست في اذنه :

— هل رأيت ؟ . هل سمعت ؟ . ومع ذلك انت تتردد ! . وتعرض عن صوت الشعب الذي لا يتوانى عن ان ينـــادي بك أميراً .

كانت الكونتس تطمع في ان تكون اميرة على ميلان .. وقد طالما نددت بزوجها لبقائه على واجب الولاء لحو الدوق وعدم الخروج عليه فيمن خرجوا من قواد ابيه واستغلال محبة الشعب له ونفوره من طغيان الدوق للتربع على عرش ميـــلان . لكن فاشينو كان يؤنبها ويقرر انه لن يتنكر للدوق مهما بـــدا من مساوئه حفاظاً على عهده لابيه الراحل : جيان جاليازو العظيم.

وقد اجاب فاشينو رداً على كلام زوجته :

— أنا لا اتردد . وانما أرى اين يكون واجبي . فاتبعه .

— وهل رأيت جيان ماريا وصاحبه في النافذة ؟ .

— رأيت . ولست اخافهما وهمـــا في حاجة إلى شجاعة تعوزهما للاعراب عن هذا الحقد الذي يجيش في نفسيهما .. وفوق ذلك فان الدوق في حاجة ماسة الي ...

– قد تنتهي يوماً هذه الحاجة ...

– لندع هذا اليوم حتى تشرق شمسه .

– اذن ستفيق بعد فوات الاوان !.. هذا وقتك ! . وهذه فرصتك ! . ألم تفهم صوت الشعب ؟ .

بل فهمته قبل الآن .. دعينا من هذا الكلام .. ولندخل .

ولم يسع الكونتس الا ان تسير بجانبه ، وهي تلعن في سرها يوم ان تزوجت رجلاً هو في سن ابيها وهو في رأيها احمق مأفون ! .

الفصل الرابع

صفقة رابحة

استقبل الدوق جيان ماريا حاكمه وقائده العظيم فاشيتو كاني في قاعة جاليازو الكبرى بهذه الكلمات :

– ان هؤلاء الكلاب يصمون آذاننا بهتافهم لك ! وقد ازعجوني بعويلهم ونباحهم حينما خرجت من القصر في صباح اليوم .. واحسب انهم في حاجة إلى درس يرد اليهم صوابهم .. واقسم اني سألقنهم هذا الدرس في أحد الأيام .. وسأريهم من هو دوق ميلان الحقيقي ..

كان الدوق جالساً يحف به ديللاتورى الخبيث وطائفة من النبلاء المناصرين للحزب البابوي ممن لم يكونوا يجسرون على الحضور إلى ميلان في عهد جيان جاليازو العظيم ... ولم يكن في مجلس الدوق في هذا العهد من يوثق به سوى (جابرييلو ماريا) شقيق ونائب الحاكم .. لكنه كان من الضعف بحيث لا يعتمد عليه

ولا يحسب له حساب .

وقد أجاب فاشينو في شيء من الغضب رداً على كلام الدوق:

– ان الشعب يري في شخصي منقـذ الدوقية وحاميها .. ومن الخير ان نسالم من يملكون القوة لخدمتنا .

فقال (ديللاتوري) مزمجراً : هل تؤنب سمو الدوق ؟ .

وزمجر الدوق بدوره : هل تفاخر بقوتك ؟ .

– بل اني مغتبط بها لأني سأستخدمها في جانبك ..

على ان جابريبلو تدخل لتلطيف حدة الموقف قائلا :

– لقـد جئت في الوقت المناسب يا حضرة الكونت .. فاهلاً بك .

رمى الدوق شقيقه بنظرة صارمة لكن جابريبلو استطرد:

– وان سمو الدوق شاكر لك مبادرتك بتلبية دعوته .

فقال فاشينو الذي كان ابعد ما يكون عن التعنت :

ان هذة المبادرة طبيعية مذ كنت لا أرمي إلا إلى خدمة سموه وخدمة الدوقية ..

وقد تطرق الحديث بعد ذلك إلى معدات الدفاع التي تملكها ميلان لصد العدو الزاحف .. فصرح جابريبلو بانها مؤلفة من جيش فاشينو المكون من الف من الجنود المأجورة بقيـادة (فرانسو كارمانيولا) نائب فاشينو ، وحـوالي خمسمائة من القوات الوطنية الاحتياطية . لكن فاشينو اعلن ان هذه القوة أعجز ما تكون عن مواجهة العدو الوافر العدة والعدد ، وانه

أوفد رسولاً إلى بوشيكو نائب ملك فرنسا في جنوا لاستئجار الف من فرسانه يكلفون الدولة مبلـغ خمسة عشر الفاً من الفلورينات (الفلورين يساوي شلنين) ، بل انه فوض الرسول للاتفاق على ضعف هذه القيمة اذا لزم الأمر .

وقد استهدف فاشينو لمعارضة شديدة بسبب فداحة هذه القيمة التي تنوء بها خزانة الدوقية .. لكنه صمد لرأيه وابدى استحالة النهوض بعبء الدفاع وصد زحف العدو ما لم تتهيأ له القوى الكافية . واستقر الرأي اخيراً على دعوة (المجلس الوطني) في ميلان للتصديق على هذا الاعتماد الضخم ..

ولما دعي هذا المجلس للاجتماع وعرض الموضوع على اعضائه هالتهم ضخامة المبلغ وظلوا ثـلاثة ايام متتالية يتشاورون ويعرضون للامر من جميع نواحيه .. وفيما كانوا في مشاوراتهم ومداولاتهم عاد بلاريون إلى ميـلان على رأس الفرسان الألف الذين أوفد لاستئجارهم ، يقـودهم واحد من ضباط بوشيكو يدعى (دي كادياك) .

وكان حضور هذا المدد والعدد مساعداً على بعث روح الثقة والتفاؤل في نفوس الأهلين ، ودافعاً لاعضاء (المجلس الوطني) على اقرار الاعتماد الذي طال الجدل والخلاف بشأنه ولا سيما حين تبين ان خزانة الدوقية لن تتكلف أكثر من خمسة عشر الفاً ، فقال بلاريون :

في الحق اني وجدت بوشيكو متعنتاً مشتطاً .. وقد سخر

www.liilas.com/vb3

من القيمة التي عرضتها عليه باسمك .. فتظاهرت بالعدول عن الطلب واستأذنته في العودة. لكن ذلك رد اليه صوابه فاستمهلني وصرح لي ان هذه القيمة لا تكاد تفي بمطالب الجنود ، واكد لي ان ادنى ما يستطيع قبوله هو عشرون الفاً من الفلورينات ، واقسم بجميع القديسين انه لن يتزحزح عن هذا الرقم باي حال. فبينت له ان موارد الدوقية لا تتحمل اكثر من القيمة التي عرضتها عليه ، ودعوته أن يشاور نفسه ويبلغني قراره النهائي في صباح اليوم التالي .. على اني بعثت اليه في الصباح بكلمة موجزة استأذنته فيها في الرحيل وانبأته بانه لما كانت شروطه أكثر مما نستطيع قبوله واننا في غير حاجة ملحة إلى الجنود فاني عدلت عن استئجار جنوده وعدلت عن التماس غيرهم في مقاطعة (كانتون) بسويسرا .

فما كاد فاشينو يسمع هذا الكلام حتى تدلى فكه وقال :

— يا الهي ! . ان هذه كانت مجازفة منك ! .

— كلا .. فاني درست اطوار هذا الرجل وآنست منه جشعاً وتلهفاً لاتمام هذه الصفقة حتى لقد كان يمكن ان انتهي باقل من هذه القيمة لو انك لم تحددها في رسالتك اليه .. والواقع انه لم يدعني ارحل وأوفد الي رسولا يسألني ان اعرج عليه قبل مغادرتي جنوا وانه قبل القيمة التي عرضتها عليه .. وقد وقعت شروط الصفقة باسمك وافترقنا صديقين حميمين حتى لقد اهداني درعاً كاملة عربوناً على تقديره لفاشينو كأني وربيبه .

ضحك فاشينو عالياً من هذه المناورة البارعة وامتدح دهاء بلاريون وسعة حيلته واستصحبه من فوره إلى (المجلس الوطني) حيث زف اليه بشرى استئجار الجنود الفرنسيين بمبلغ خمسة عشر الفاً من الفلورينات مما يوفر على خزانة الدوقية مثل هذه القيمة شهرياً ، وراح يطنب في امتداح براعة بلاريون وما ابداه من حنكة ودهاء في عقد هذه الصفقة الطيبة .. وكانت النتيجة ان المجلس لم يتردد في اعتماد المبلغ المطلوب وزاد على ذلك ان تقرر باجماع الآراء منح بلاريون خمسة آلاف من الفلورينات تقديرا لاخلاصه وغيرته .

وهكذا الفى بلاريون نفسه فجأة يتمتع بالشهرة ويملك ثروة لم يكن يحلم بها .

الفصل الخامس

مناورات

ذاع صيت بلاريون في اوساط البلاط .. ومال اليه جابرييلو ماريا وقربه اليه .. بل ان الدوق جيان ماريا نفسه آثر ان يتودد اليه وان ينسى حادث الكلاب .. وحتى (ديلاتوري) خصم فاشينو اللدود الخفي سعى لمصافاته .

ولكن بلاريون وهو الذكي النافذ البصيرة لم ينخدع بهذه المظاهر وراح يشق طريقه في هذه الحياة الجديدة متوسلا بالحذر والتحوط .. ولم يكن يضايقه في الايام التي سبقت خروج الجيش إلى العدو الا تودد الكونتس بياتريس زوجة فاشينو اليه ، وشكواها الدائمة من قصور زوجها عن انتهاز الفرص التي تسنح له وارضاء مطامعها بالاستيلاء على عرش ميلان .. فكان بلاريون يتجاهل هذا التودد ويحثها على الاخلاص لزوجها .

على انه تنفس الصعداء حين تمت استعدادات الجيش ودعاه فاشينو لمرافقته في المعارك القادمة حتى يكتسب خبرة بأساليب القتال ويشق لنفسه طريقاً في الحياة .. فلبى بلاريون الدعوة مسرورا وخرج مع فاشينو وحاشيته في منتصف الليل قاصدين قلعة (بورناجوفيا) حيث يعسكر الجيش المدافع بقيادة نائبه كارمانيولا .

ولما وصل فاشينو إلى القلعة الفى الجيش على تمام الاستعداد للزحف .. فأصدر فاشينو بعض الأوامر .. ثم سار إلى نهاية السهل الذي احتشدت فيه قوى الجيوش المحتشدة ووقف يستعرض فرقه في ضوء القمر وتحت أنوار المشاعل ..

وصارت طليعة الجيش تحت قيادة كارمانيولا ، وكانت مؤلفة من خمسمائة من جنود ميلان المشاة ، وثلاثمائة من الجنود المرتزقة الالمان بقيادة زعيمهم (كونجز هوفن) .

وتلاهم الفرسان الفرنسيون بقيادة (دي كاديك) ، وكانوا مسلحين بالرماح مدرعين بالدروع السميكة التي انعكست فوقها اضواء المشاعل فكان لهم مشهد رائع يملأ النفوس رهبة وحماساً ..

وجاء بعد هؤلاء موكب طويل من مركبات النقل المحملة بالامتعة والخيام والمؤن والذخير ، وكان في جملتها اثنا عشر مدفعاً وهي من الاسلحة التي تزودت بها الجيوش حديثاً في ذلك العهد . وكانت مؤخرة الجيش مؤلفة من فرق فاشينو نفسه

التي بلغ عددها بمن انضم اليها من المتطوعين حوالي الف وخمسمائة من المحاربين ، من بينهم ثلاثمائة من الجنود السويسريين البواسل المسلحين بالحرب السويسرية المروعة ، بقيادة (فرزفون ستوفل).

ولما تم سير هذا الجيش الحافل امام فاشينو تبعه هذا القائد العظيم مع حاشيته الخاصة وفي جملتها بلاريون . واخذ الجنود يجدون في السير لا يلوون على شيء حتى وصل الجيش في ظهر اليوم التالي إلى نهر (البو) واجتازه دون ان يظهر أثر لجيش بونتيرزو . فاصدر فاشينو أوامره بالمرابطة في هذه البقعة انتظاراً لقدوم العدو الذي تواترت الأنباء بانه لا يبعد عنهم إلا نحو مسيرة عشرة اميال ، في جهة (فيرنزولا) .

على ان بونتيرزو لم يتقدم لملاقاتهم مواجهة . بل اخذ في الزحف جنوبا رغبة في الهجوم عليهم من الجوانب .

والواقع ان هذه الحركة كانت فاتحة سلسلة من حركات أخرى تمثلت في التقدم والتأخر واللف ، حتى استغرقت اسبوعاً كاملا دون ان يلتقي الجيشان .

وقد تحير بلاريون لاول وهلة من احجام القائدين عن الالتحام وقد خرج كلاهما لكي يبيد صاحبه . بيد انه لم يلبث ان فهم العلة في ذلك . فان كليهما كان يقود جنوداً مأجورين لا يضحون بارواحهم في المعارك ، ولا يقتلون اعداءهم ولا يوسعهم ذلك . ذلك انهم يقاتلون للغنم واسر مقاتليهم أحياء للفوز باسلحتهم وجيادهم وفديتهم لكنهم لا يغنمون من القتلى شيئاً يذكر . وهم

لذلك يرتقبون من قادتهم ان يرسموا من الخطط ما يضع اعداءهم تحت رحمتهم ويرغمهم على التسليم . وكانت هذه الروح سائدة في صفوف جميع المحاربين فيما عدا السويسريين الذين لم يكونوا يبالون سفك الدماء . وقد كان منهم عدد قليل في جيش فاشينو . اما جيش بونتيرزو فقد خلا منهم .

مضى اذن اسبوع في هذه الحركات غير المجدية .. ثم عاد بونتيرزو بجيشه كما بدأ إلى جهة (فيرنزويلا) آملا أن يستدرج فاشينو إلى السهول المكشوفة للاشتباك معه .. بيد ان فاشينو رابط مكانه معتصماً بالصبر .

على انه لم تكد تمضي ثلاثة أيام أخرى حتى علم فاشينو ان بونتيرزو قد انتقل إلى جهة (جازابو) على بعد ثمانية أميال من مواقعه ، واشتم فاشينو من هذه الحركة نية التطويق والهجوم المباغت .. فبادر إلى العمل في غير ابطاء ، وجمع قواده لرسم خطة الهجوم . وحضر بلاريون هذا المجلس الحربي .

ووقف فاشينو بين قواده امام طاولة رسمت فوقها بالفحم خريطة تمثل ميدان القتال ، وراح يشرح لهم خطته قائلا :

— ان بونتيرزو يرابط بجيشه هنا .. وسيضطر بعد اسراعه في الزحف من (فيرنزويلا) إلى الراحة في هذا الموقع ، مهما تكن نواياه واغراضه ..

فتدخل كارمانيولا القائد الشاب الوسيم قائلا :

— هو في موقع محصن من أي هجوم من ناحية السهول ..

فهو في (اجازانو) مسيطر على الهضاب المنحدرة ، ومنهـا يستطيع ان يكر كالإنهيار الثلجي . .

لكن فاشينو قاطعه في صوت جاف بارد :

– انت تقاطعني يا كارمانيولا .. وانك تبين لنـا ما هو واضح للعيان . ليس في نيتي ان أقوم بهجوم امـامي ، بل هو مجرد تظاهر بالهجوم . واليـكم خطتي .. فاني سأشطر جيوشنا إلى شطرين ، يؤلف احدهما من الفرنسيين وجنود كونجز هوفن ، تحت قيادتك انت يا كارمانيولا ، فتسير به رأساً إلى (اجازانو) وكأنك تقصد هجوماً حقيقياً . وبهذا تستغرق اهـتمام بونتيرزو وتسمره في مكانه . وفي اثناء ذلـك أسير أنا على رأس الجيش الباقي حتى (ترافو) ، ثم ارتقى الهضاب واهبط منها كراً على معسكر بونتيرزو . وسيكون هجومي في الوقت الذي يتحول فيه زحفك المصطنـع من السهول إلى هجوم حقيقي ، وهكذا يقع بونتيرزو بين نارين ، واينما ولى وجهه يجدنا في مؤخرته .

وما كاد فاشينو ينتهي من بسط خطته حتى صدرت عبارات الاستحسان من أفواه قواده الأربعة .. فأجال فاشينو نظره في وجوههم باسماً .. وقال :

– وليس هنـاك موقع أكثر من هذا ملاءمة لمثل هذه المناورة ..

وفي هذه اللحظة اجترأ بلاريون الطالب المبتدىء في فنون الحرب ، على التدخل ، قائلاً :

– ان نقطة الضعف في هذه الخطة تبدو في افتراض ان بونتيرزو سيبقى مرابطاً في هذا الموقع حتى يتم الاشتباك ..

شهق كارمـانيولا .. ورمى كونجز هوفن ودي كادياك بلاريون بنظرة تشف عن الذهول والحنق .. وضحك فاشينو عالياً من هذه القحة .. ولم يكن بينهم من احتفظ بحياده سوى ستوفل السويسري الذي نشأت بينه وبين بلاريون مودة منـذ تلك الأيام التي أمضاها بلاريون في ضاحية (ابياتي) للتدريب على اعمال الفروسية والقتال ..

ولما شبع فاشينو من الضحك تنزل لتفسير خطته ، قائلاً :

– اننا نضمن انقاذ هذه الخطة يهجومنا العاجـل الذي لا يدع له فرصة للتحرك .. ان حاجته إلى الراحة هي التي حملته على المرابطة في هذا الموقع الحصـين .. وستكون حصانته هي المقبرة التي يدفن فيها ..

ثم نهض فاشينو ووضع حداً لكل اعتراض ، قائلاً :

– هلموا بنا ! . في وسع كل منكم ان يكمل التفاصيـل لنفسه .. وما يهمنا هو ان نبادر بالزحف .. فان السرعة هنـا هي كل شيء ..

لكن بلاريون لم يذعن ، وقال معارضاً :

– لو كنت مكان بونتيرزو لوضعت العيون والارصـاد على امتداد الهضاب والمرتفعات من هنا حتى (ترافو) .. حتى اذا اكتشفت خطتـكم من حركاتكم ، هبطت بجيشي اولا على

كتائب كارمانيولا ، ومتى هزمتها التفت بجيشي لمواجهتهم .. وهكذا ترون ان توزيع القوى وهو الذي تعتمدون عليه في احراز النصر يمكن في غير عناء ان يكون العامل الأكبر في هزيمتكم ..

استولى عليهم الذهول للمرة الثانية من هذا الطفل المبتدىء في الفنون الحربية الذي يتجاسر على اقحام رأيه عليهم وهم القادة المجربون والجنود المحنكون.. وقال كارمانيولا في سخرية لاذعة :

— لنحمد الله على انك لا تقود جيش بونتيرزو ، وإلا لكان اندحارنا محققاً !.

وضحك ضحكة قاسية شاركه فيها اصحابه .. فلم يسع بلاريون إلا ان يلزم الصمت ..

وانقسم الجيش إلى شطرين اخذا في الزحف بعد غروب الشمس .. وقبيل منتصف الليل وصل كارمانيولا بجيشه على مقربة من (اجازانو) وبلغ فاشينو (ترافو) بشطر الجيش الثاني وتأهب لارتقاء الهضاب عند الفجر ، حتى ينحدر منها على معسكر بونتيرزو ..

وفي اثناء ذلك توقف جيش فاشينو عن الزحف حتى ينال الجنود قسطاً من الراحة وآوى فاشينو إلى مضربه لكي ينام ساعات قلائل قبل مباشرة الهجوم الفاصل ..

اما بلاريون فكان مبلبل الخاطر راغباً عن النوم . فخرج

إلى ضفة النهر يتمشى تسكيناً لاضطراب اعصابه .. وانضم اليه ستوفل بعد قليل .. وقال له تعليقاً على موقفه بالامس :

— انك نوهت باحتمال ما كان يجب ان يغيب عن حسابهم ..

فقال بلاريون : اني لم اشارك من قبل في معارك .. لكني لست في حاجة إلى شهود معركة ما لكي ادرك ان كل خطة لا يحسب فيها حساب الحركات المضادة المحتملة هي خطة ضعيفة خطرة ..

— وان الحركة المضادة التي اشرت اليها كانت واضحة كل الوضوح أو على الأقل حينما لفت الأنظار اليها ..

— اذن فلم لم تشد ازري يا ستوفل ؟ .

ان كارمانيولا ، ودي كادياك ، وكونجز هوفن ، هم جميعاً قواد معروفون . اما أنا فلست إلا قائداً لفرقة من الجنود السويسريين تنفذ ما يعهد اليها .. وما كنت لادلي برأي لم يطلب مني ، وهذا ما يحملني على الا اقترح على فاشينو ان يتدارك تهاونه بوضع جنود للكشف والاستطلاع فوق المرتفعات ..

فابتسم بلاريون وقال : واعتقد ان ذلك هو ما حملك على الانضمام الي آملا ان اقترح على فاشينو هذا الرأي ..

— اعتقد ان هذا يكون من الصواب ..

فتأمل بلاريون قليلا ، ثم قال : في وسعنا ان نفعل خيراً من هذا يا ستوفل .. في وسعنا ان نرتقي الهضاب ونقوم بالاستكشاف ..

وما هي الا ساعة حتى وصلا إلى قمة الهضبة .. وبقيا فوقها حتى بزغ الفجر وبدت طلائع النهار تنير لهما المنحدرات المجاورة لجبهة (جازانو) .. وقد شاهدا شيئاً ان لم يكن مطابقاً لما توقعه بلاريون فقد كان قريباً منه كل القرب .. وكان الفرق في ان بونتيرزو لم يبدأ اولاً بالزحف على كارمانيولا ثم ينثني منه إلى فاشينو ، بل بدأ بالعكس ..

ورأى بلاريون فوراً مزايا هذه الخطة .. فان بونتيرزو يستطيع من مواقعه ان ينحدر على فاشينو ، ومتى دحره التف لمقابلة كارمانيولا على أرض منبسطة ..

لم يكن هذا الاختلاف ليغير من جوهر الخطة .. فان بونتيرزو كان يرمي إلى السير بكامل جيشه لضرب القوتين اللتين شطرهما فاشينو واحدة بعد الأخرى .

ولم ينتظر كلاهما لحظة .. بل اسرعا إلى مضرب فاشينو حيث ايقظاه واطلعاه على أمر هذا التطور الذي قلب خطته رأساً على عقب ! . ولم يكن هناك مخرج من هذا المأزق إلا ان يتصل فاشينو بكارمانيولا .. وهنا تجلت عبقرية بلاريون التي تمثلت في الخطة التي خطرت له في هذا الشأن .. فقد اصطحب فاشينو إلى المخاضة القائمة على النهر .. وكانت الأرض فيما وراء هذه المنطقة سلسلة من التلال المنخفضة تعلوها غابة كثيفة على المخاضة .. وراح بلاريون يشرح خطته قائلاً :

— في الوسع استدراج بونتيرزو لمطاردتك عبر النهر اذا

اجتازه جيشك على مرأى منه اجتيازاً غير منظم .. والواقع ان مشهد جيش يتقهقر هو أشد ما يغري بالمطاردة .. كما ان الرغبة في الاشتباك معك بعد اجتياز المخاضة وقبل ان تنضم إلى جيش كارمانيولا ستكون عاملاً آخر من عوامل الاغراء .. وستشتد هذه الرغبة في صدر بونتيرزو اذا ألفى المخاضة ممتنعة عليه مقفلة في وجهه .. وفي وسعي ان اقفلها في وجهه بمائة من الجنود حاملي الأقواس .. وسيضطر في النهاية اما ان يقتحم طريقه عبر النهر مجتازا المخاضة ، واما ان يتخلى عن هذه المحاولة ويذهب للاشتباك مع كارمانيولا أولاً .. لكنك اذا تحركت بسرعة استطعت ان تنضم إلى كارمانيولا وذلك باجتياز النهر مرة ثانية عند (ريفراجو) ثم تدور حول الهضاب بكامل الجيش وتفاجيء بونتيرزو من خلفه .. وهكذا تدور الدائرة عليه وتنعكس خطته .. وفي وسعي ان أقفل المخاضة في وجهه بمائة من حملة الأقواس حتى غروب الشمس .

ذهل فاشينو من براعة هذه الخطة وروعتها .. فوقف يحدق في بلاريون صامتاً .. واخيرا سأله في رصانة :

— واذا فشلت ؟ .

— اكون على الأقل قد اخرته عن التقدم حتى تخلص نفسك من هذا الشرك الذي وقعت فيه بعملك .

فتطلع فاشينو متحيراً إلى ستوفل وقال له :

— هل صرت احمق يا ستوفل حتى يلقنني غلام فنون

الحرب التي شبت فيها ؟ . وهل تأمن على مائة من رجالك مع هذا الغلام ؟ .

— بل انا مطمئن كل الاطمئنان .

لكن فاشينو لم يتخل عن تردده وقال :

— هل تدرك يا بلاريون انه اذا انتزعت منك المخاضة قبل وصولي فان موقفك سيكون عسيراً ؟ .

فهز بلاريون كتفيه صامتاً .. وتوهم فاشينو انه لم يفهم رأيه على الوجه الصحيح ، فقال يزيده بيانا :

— ان مثل هذه الخطة التي تنوي ان تضطلع بها قد تفضي إلى مذبحة مروعة .. فان بونتيرزو سيحنق بسببها ويعمد إلى الانتقام المروع ..

فقال بلاريون باسماً : عليه ان يجتاز النهر اولا .. وقبل ان يتم له ذلك سأنتهز فرصة حنقه وهياجه لكي استوقفه هنا حين يجب ان يكون في مكان آخر .

الفصل السادس

موقعة ترّافو

انعكست اشعة الشمس على اسلحة جيش بونتيرزو المنحدر فوق المضبة بينما كانت مؤخرة جيش فاشينو تجتاز المخاضة، وفي نهايتها الجنود السويسريون المائة من حاملي الاقواس الذين اختارهم بلاريون .

وقد رأى بونتيرزو من مكانه المرتفع جيش فاشينو يسرع بغير انتظام بعد اجتياز المخاضة ، فاقتنع بان في وسعه ان يضرب في غير عناء جنودا بعثهم الخوف على الهرب في غير نظام. وسرعان ما اصدر أوامره بمطاردة العدو الهارب ! .

وانحدرت كتيبة من الفرسان يناهز عددها المائة بغية اجتياز المخاضة، وما كادت تتوسطها حتى سمع طنين خمسين قوساً طارت في الهواء فجندلت عدداً مماثلاً من الفرسان والقتهم عن جيادهم..

وقبل ان يفيق الفرسان الباقون من أثر هذه المفاجـــأة صدر خمسون قوساً آخر من العدو المختبيء في الغابة المطلة على المخاضة .. فتساقطوا بين صريـع وجريح .. واشتد الهرج والصيـــاح .. واضطربت الصفوف واختل النظام ..

وكان تأثير هذه المناورة كما قدر بلاريون .. فقد هاج بونتيرزو واشتد غضبه حين رأى هذه الحادثة تؤخر لحاق جيشه بالعدو الهارب والمحدر مسرعاً يتبعه سائر الجيش ..

وقد قابله ضباطه منفعلين وابلغوه ما أدركه سلفاً ... وهو ان المخاضة قد اقفلت في وجوههم بفعل طائفة من حملة الأقواس جعلت مطاردة العدو مستحيلة .. فقال بونتيرزو في شراسة :

– ساريكم ! .

وأمر بونتيرزو مالة من جنوده بالذهـــاب إلى قرية ترافو وانتزاع كل ما فيها من أبواب ومصـــاريع . واستغرقت هذه العملية ثلاثة ساعات .. لكن بونتيرزو كان يرجو ان يعوض هذا التأخير مق تسنى له تطهير الغابة من محتليها ذوي الأقواس الجهنمية .

ولما تم هذا الاستعداد سلح بونتيرزو ثلاثمائة من الجنود بهذه الأبواب والمصاريـع التي اتخذوا منهـا دروعاً تقي رؤوسهم ، وأمرهم بالزحف على المخاضة ..

ورأى بلاريون من قمة التل الذي تقوم الغابة فوقه (سقفاً) متحركاً من الخشب يتقدم لاجتياز المخاضة .. فقاد بلاريون

ثلثي قوته ووزع افرادها على مسافة طويلة على امتداد النهر ، حتى يتسنى ضرب الزاحفين في جوانبهم .. وما كادت طلائعهم تتوسط المجرى الضحل حتى استقرت السهام في جنوبهم واخذتهم على غرة .. ثم تلتها أخرى احدثت الاضطراب في صفوفهم .

وكانت النتيجة ان طافت جثث القتلى في الميـــاه .. وراح الغرقى يصرخون مستنجدين باخوانهم .. وحدثت ثغرات واسعة في (السقف) الخشبي المتحرك .. فاصبح الجنود الذين في المؤخرة مكشوفين من امام ومن جنب .

وجاء ضابط على جنوده وراح يصيح في الجنـــود مهدداً بسيفه .. فاستطاع بعد جهد ان يعيد النظـام إلى صفوفهم .. وأصدر أمره بانزال الأبواب عن الرؤوس وحماية الجنوب المعرضة لسهام العدو .. وما كادوا يفعلون حتى صـدر ثلاثون سهماً من ثلث القوة التي أبقاها بلاريون فوق قمة التـــل لهذا الغرض .. فنالت الجنود من اعلا وكان فتكها بهم ذريعاً . وكان اضطرابهم هذه المرة تاماً .. فاخذ الباقون يتقهقرون في ذعر في حـين السهام تنهال عليهم من كل جانب .

اشتد غضب بونتيرزو .. ورأى ان هذه القوة قد اوقفت خصيصـــاً لتغطية انسحاب فاشينو ، وأدرك انه سيضطر إلى مطاردته مـطاردة حاميـة قبل ان يتسنى لـه إدراكه .. ولم يخـطر لـه غيـر هـذا الـرأي في فـورة الغضب العنيف التي استولت عليه ، وهو عين ما قدره بلاريون .. ولما

كان بونتيرزو من قصر النظر بحيث عمى عن كل شيء آخر ، فانه تشبث بفكرته في اصرار وعنـــاد شديدين ، وصمم على ارسال قوة عظيمة لاقتحام المخاضة .

انتصف النهار في هذه المحاولات الخائبـة لاجتياز النهر في أو العدو المنسحب .. لكن بونتيرزو لم يفقد الأمل لادراكه غريمه مَشى تسنى له عبـــور النهر . فجمع قوة مؤلفة من خمسمائة من الفرسان بقيادة ضابط باسل يدعى (فارلو) .. ولقنه تعليماته قائلا :

– عليك باجتياز النهر مهما كانت الخسائر .. الي أقدر عددهم باقل من مائتين ، واذا توسلت بالعزم استطعت ان تفوز بغير عناء . ان سهامهم لا تصيب إلا من فرسي قريب ، ويمكنك ان تطبق عليهم بسهولة .. وعليك الا تبقي على أحـــد منهم والا تأسر جنديا واحداً .. بل أذبح جميـع من في الغابة عن آخرهم .

تقدمت هذه النوة إلى المخاضة .. فقابلتها طائفة من السهام اصطدمت بالدروع والخـوذ ولم تصب بأذى .. فتشجعت القوة وامعنت في التقدم . لكن بلاريون استفاد من غلطته الأولى . فأمر رجاله باطلاق السهام على الجياه .. وكانت النتيجة ان اصيب نحو عشرين جوادا في الطليعة فعلا صهيلها والقت راكبيها عن ظهرها أو سقطت معهم متخبطة في المياه .

بيد ان فارالو نفسه لم يصب بأذى ، واستطاع ان يزيـــل الاضطراب من صفوف جنوده وأخذ يستحثهم على التقدم بصوت

داو رنان . وقد صرعت طائفة أخرى .. لكن (فارالو) قاد سائر القوة عبر النهر وانشأ يرتقي التل قاصدا إلى الغابة .

وراح سائر جيش بونتيرزو المرابط على ضفة النهر اليسرى يستحثهم على التقدم ويدعوهم باصوات مدوية ان يذبحوا جنود الغابة عن آخرهم ويمثلوا بهم تمثيلا .

وقد بلغ هذا الصياح سمع فاشينو كاني وهو يرتقي على رأس جيشه الهضبة القائمة خلف بونتيرزو .. وكان فاشينو قد أخذ يتقدم بجيشه باقصى سرعة تنفيذا لخطة بلاريون .. ثم اجتـاز النهر للمرة الثانية عند (ريفراجو) وانضم إلى جيش كارمانيولا . وقام الجيش الموحد بحركة التفاف كبيرة .. وانعكست الآية آخر الأمر . وأشرف فاشينو على جيش بونتيرزو الذي كان عاجزا عن التقدم بفضل براعة بلاريون وبسالة الجنود السويسريين المائة .. لكن كان من المشكوك فيـه ان يستطيع انقاذ هؤلاء البواسل من الهلاك الذريـع الذي كان ينتظرهم .

على انه بادر فورا باصدار أمره إلى (دي كادياك) ان يشق صفوف العدو بامل انقاذ جنود الغابة من المذبحة المدبرة لهم .. وسرعان ما انحدر القائد الفرنسي على رأس فرسانه وانقض على جيش بونتيرزو كالصاعقة فشق صفوفه وجندل من جندل والقى من القى في مياه النهر ثم اجتاز المخاضة وباغت فرقة فارالو وهي تخرج من الغابة .. ففرت امامه وهو يتبعها ويعمل فيها تقتيلا . ولما رأى أنه ابتعد مسافة طويلة وقـد يكون فاشينو في حاجة

اليه لانه يقود حوالي ثلث جيشه آثر ان يعود للانضمام اليه .. وفيما كان يجتاز الغابة عائدا ادراجه عثر فيها على نحو عشرين من الجنود السويسريين صرعى وبينهم جريح واحد في حالة خطرة، فحمله معه . وما ان وصل إلى المخاضة ثانية حتى كانت موقعة (ترافو) قد أوشكت على نهايتها .

فان الثغرة الكبيرة التي أحدثها هجوم (دي كادياك) في صفوف بونتيرزو شطرت جيشه شطرين راح كلاهما يولي الادبار في جهة مضادة .. فتعقب فاشينو أحد الجيشين .. وطارد (كونجر هوفن) الجيش الثاني .. وانجلت هذه المطاردات عن اندحار جيش بونتيرزو وافلاته هو على رأس نحو مائتين من رجاله أما الباقون فقد القوا اسلحتهم ..

وغنم فاشينو من هذه الموقعة الفين من الأسرى ، وخمسمائة من الجياد ، ومائة من مركبات النقل محملة بالعتاد والذخيرة ، ودروعاً وافرة العدد ، وعشرين مدفعاً ..

ولما عاد فاشينو من مطاردته لبونتيرزو التي انتهت بفرار هذا الخصم المنهزم أنبأه كارمانيولا بالنتائج السارة التي أسفرت عنها الموقعة .. فقال فاشينو في رصانة :

— وبلاريون ؟ ..

فأخبره (دي كادياك) بأمر الجثث التي عثر عليها في الغابة ...وقرر ستوفل ان الجندي الجريح توفي متأثرا بجراحه بعد ان صرح بان الاعداء الذين أغاروا على الغابة لم يبقوا على أحد

من أخوانه .. ولم يبق شك في أن بلاريون قد هلك في جملتهم..

وما كاد فاشينو يلم بهذه الانباء حتى تدلى فكه قنوطاً وبدت على وجهه دلائل الحزن العميق ، قال :

— ان هذا الفوز هو فوز بلاريون .. فهو الذي رسم هذه الخطة التي جعلت من الهزيمة نصرا .. وبفضل بسالته وتضحيته أمكن تحقيق خطة كانت تبدو مستحيلة ..

ثم التفت إلى ستوفل الذي كان أقرب الموجودين صداقة إلى بلاريون ، وقال له :

— خذ من تريد من الرجال وفتش عن جثة بلاريون . وعد بها الى ميلان .. فان الأمة بأسرها ستمجد وفاءه وتجل ذكراه .

www.liilas.com/vb3
AMAYAHEEN

الفصل السابع

اذكروا محاسن موتاكم !.

لم يشهد قائد مظفر من آيات الترحيب والتمجيد مثلما شهد فاشينو كانى عند عودته الى ميلان . فان انباء الفوز الساحق الذي احرزه سبقه قبل وصوله بيومين ، فازاحت عن صدور الناس كابوساً كان يثقل عليها ، ولما اقبل البطل العظيم لقي استقبالا حماسياً يجل عن الوصف .

على ان فاشينو كاني ما كاد يجتمع بالدوق لسرد تفاصيل النصر حتى انتهز هذه الفرصة وبسط الدور الذي قام به بلاريون والخطة البارعة التي هكست الموقف وجعلت من الهزيمة نصراً عظيماً . ثم تكلم بلهجة الحزن العميق عن استشهاد بلاريون وجنوده البواسل ، واختتم حديثه قائلا :

– اني ادعو سموكم وشعب ميلان إلى تمجيد هذا البطل العظيم .

واذا كانت هذه القصة لم تترك أثراً عميقاً في نفس جيان ماريا ، فانها تركت أثرها على الأقل في نفوس الحاضرين من رجال الحاشية واشتد تأثيرها في نفوس أفراد الشعب حين وصلت إلى مسامعهم فيما بعد ..

وكانت النتيجة ان ارتدت المدينة بأسرها ثياب الحداد على البطل الشهيد الذي حقق هذا النصر ، وتقرر ان يقام قداس على روح هذا المنقذ العظيم الذي كان بالأمس مغمورا فاذا اسمه الآن يتردد على كل لسان ، واذا احاديث نشأته وتربيته ومواهبه سمر المحافل والمجتمعات .

وفي الليلة التالية لعودة فاشينو اقيمت وليمة عشاء رسمية في قصر (بروليتو) ، شهدها فاشينو ، احتفاء بزيارة المركيز تيودور الوصي على عرش (مونتفيرا) ، ونجلي شقيقه الأمير جيان جياكومو والأميرة فاليريا ، وكانت هذه الزيارة من تدبير جابريللو ماريا شقيق الدوق الذي أراد من ورائها ان يعقد محالفة بين المركيز تيودور وبين ميلان اضعافاً لمركز الحزب البابوي الذي كان نفوذه يزداد في البلاط بفعل (ديللا توري) نفسه .. كما ان المركيز تيودور رحب بهذه المحالفة لكي يسترد في مقابل عقدها مدينتي فرسيلي والساندريا اللتين كانتا من املاك (مونتفيرا)

قبل سلخها عنها في عهد جيان جاليازو الفاتح .. ولكي يستعيد السيادة على مدينة جنوا ..

وهناك سبب آخر دعا جابرييللو ماريا يسعى لعقد هـذه المحالفة .. فقد كان يطمع في زواج الدوق بالأميرة فاليريا ، وبذلك يفسد خطة الحزب البابوي الذي كان يدبر زواج الدوق من ابنة (مالاتستا) زعيم الحزب البابوي في ايطاليا ..

والواقع ان الدوق الشاب راح يتودد إلى الأميرة فاليريا في اثناء هذه الوليمة ويبدي نحوها من الوان التلطف والحفاوة ما جعل شقيقه جابرييللو يغني النفس بقرب نجاح خطته .. على ان الأميرة التزمت الهدوء والرصانة في خلال الوليمة . ولما خاب الدوق في حملها على زيادة الاهتمام طرق موضوعاً كان يحسب انه سيثير اهتمامها ويحملها على طرح أسباب الكلفة ، وهو الموضوع الذي كان حديث الخاصة والعامة في ذلك الوقت ، فقال لها :

– انظري إلى الجالس هنـاك .. هو فاشينو كاني ، كونت بياندراتي ، ذلك الحديث النعمة المزهو بعمل لم يكن له ضلع فيه ، وليس من صنعه ..

اسارعت هذه العبارة اهتمام المركيز تيودور .. فقال :

– اذا لم يكن عمله ، فعمل من هو يا صاحب السمو ؟ ..

فأجاب الدوق ساخرا : هو عمل شاب قليل الخبرة ، يدعو نفسه ربيب فاشينو .. هو شخص يدعى بلاريون ..

فزاد اهتمام المركيز تيودور ، والأميرة فاليريا، وقال الأول:

– بلاريون ؟ ..

فاستطرد جيان جياكومو بصوت مرتفع قصد ان يبلغ سمع فاشينو :

– الواقع ان فاشينو كاد ينهزم باندفاعه وتهوره ، لولا ان بلاريون هذا ارشده إلى خدعة جعلت الدائرة تدور على رأس بونتيرزو ..

فقالت فاليريا في نبرات غريبة : خدعة ؟ .

طرب جيـان ماريا أن وفق آخر الأمر إلى اثارة اهتمام الأميرة فراح يسرد تفاصيل الخطة الحربية التي اكتتب النصر بها لفاشينو .. ولما فرغ قالت الأميرة فاليريا .

– هي خدعة كما قلت سموك .. وليست عملا حربيـاً يستأهل الفخر .

فنظر اليها جيان جياكومو في دهشة ، ثم قال ضاحكاً :

– لا ريب ان القصة ستطربك يا سيدتي متى علمت ان هذا الشقي استطاع بمعونة مائة جندي ان يقفـل المخاضة في وجه جيش بونتيرزو مدة كانت كافية لنجاح الخطة التي بيتها .

فقالت الأميرة في ذهول : هل فعل هذا ؟ .

– بل فعل أكثر منه .. فانه فقد حياته في هذا السبيل .. وقد ذبح مع الجنود المائة عن آخرهم .. وهذا هو السبب في انه قد تقرر ان يقام يوم الاربعاء القادم قداس على روح هذا الذي يكاد شعبي ان يضعه في مصاف القديسين .

وما كان الدوق يرمي بهذا الثناء إلى وضع أكاليل الغار على جبين بلاريون ، وانما كان يريد ان يجرد فاشينو من كل مجـــد أو فخار .

لكن فاليريا وهي التي تضمر لبلاريون مـا تضمر لم تكد تفقده هذه البطولة التي قام بها بلاريون في سبيل وطن لا يمت له بسبب .

الفصل الثامن

بلاريون الفارس

لم يقدر لهذا القداس الذي تقرر ان يقام على روح الشهيد بلاريون، ان يتحقق .. فبينما كانت النواقيس تقرع في ارجاء ميلان داعية اهلها لشهود القداس ، كان بلاريون بلحمه وعظمه يجتاز باب المدينة برفقة ستوفل السويسري ونحـــو سبعين من جنوده الذين نجو معه .

وسرعان ما أنتشر نبأ وجود البطل العظيم على قيد الحيـاة انتشار النار في الهشيم ، واستقبله الناس استقبالاً حماسياً ندر ان يظفر به انسان في حياته .. وكان طبيعياً ان يلغى القداس الذي كان مقرراً ان يشاد فيه بذكره وتعدد فيه مناقبه ، وهو مـا أسف عليه بلاريون ! .

واستقبله الدوق في قصر (بروليتو) واقفـاً يحيط به

(ديللاتوري) ورئيس أساقفة ميـــلان .. وبجانب الأسقف وقفت الكونتس بياتريس تلوح له بمنديلها حفاوة وترحيباً ..

كانت هذه اللحظة من أروع اللحظات في تاريخ بلاريون .. بيد انه وقف في هذا الجمع الحافل العظيم رابط الجـــأش ثابت وانضم اليـــه فاشينو واستفسره عن هذه المعجزة الجديدة التي ردته إلى الوجود .. فراح يقص عليهم قصته التي تلخص فيما يلي:

حين اقتحم جنود بونتيرزو المخاضة كان بلاريون واقفـاً على سفح التل المنخفض مع ثلثي رجـاله .. فارتقى على الفور قمة التل قاصداً انقاذ الباقين من رجاله ممن تركهم فوقها .. بيد انه وصل متأخراً .. فان المهاجمين كانوا قد فتكوا بهم فتكاً ذريعاً، ورأى بلاريون واجبه يحتم عليه انقاذ الأحياء معه .. فقادهم إلى كهف كبير في الغابة تحجبه الأشجار عن العيان وكان قد اكتشفه في اثناء وجوده فيها .

وقد مر المهاجمون بالكهف دون ان يفطنـــوا إلى وجودهم وأعتقدوا ان الذين قضوا عليهم كانوا كل افراد القوة التي أقفلت المخاضة في وجوههم . بيـد ان بلاريون ورفاقه لم يلبثوا ان شعروا بهم يعودون مسرعين وقد تضاعفت قواهم كما خيل اليهم في ذلك الوقت ، وان كان الواقع انهم يفرون امـــام فرسان (دي كادياك) الفرنسي . وبقي بلاريون وأصحابه في الكهف نحو ثلاث ساعات . ثم تسلل بلاريون إلى الخـارج وأشرف على ميدان المعركة من قمة التل .. وشد ما كانت دهشته حين رآه

خاوياً . وفيما هو كذلك آنس حركة بين الأشجار وما هي إلا لحظات حتى الفى نفسه وجهاً لوجه امام ستوفل الذي ابلغه ان المعركة قد انتهت بهزيمة بونتيرزو في المدة التي قضاها مختبئاً مع الرجال في الكهف .. وقد اختتم بلاريون قصته قائلاً :

– وقد سرنا جميعاً لا ناوي على شيء ولم نقف في الطريق الا ريثما كنا نصيب بعض الطعام وننال قسطاً يسيراً من الراحة .. ويسرني اني جئت في الوقت المناسب للحيلولة دون اقامة قداس كان يبدو مضحكاً ازاء اصراري على التشبث بالحياة ..

بهذه الجملة ختم بلاريون قصته فبعث الحاضرين على الضحك.. بيد انه كان بينهم شخصان لم يشتركا في هذا الضحك .. أحدهما كارمانيولا نائب فاشينو المغرور الذي كان ينظر شزرا إلى هذا النصر الذي ناله شاب حديث النعمة كان يرى فيه منافساً له .. والثاني هو الأميرة فاليريا التي رأت في هذه القصة خدعة جديدة من شخص كانت تعرفه مخادعـاً .. واعتقدت أو كادت تعتقد ان بلاريون قد سعى عامدا لكي يحسبه الناس في عداد الأموات حتى يبعث إلى الحياة على هذه الصورة التي جعلت منه بطـــل الساعة !.

وقد صافحه جابريللو ماريا والدوق وديللاتوري . واضطر بلاريون ان يصافح أفراد البلاط جميعاً ممن نسجوا على منـوال أميرهم ونعتوه بالبطل المنقذ .. وشد ما كانت دهشته حين رأى بينهم المركيز تيودور لكن هذا قابله باحـــترام ولم يشر أدنى

اشارة إلى ما كان بينهما في الماضي .

وبعد وقت جاءه جابرييللو ماريا ودعاه باسم (المجلس الوطني) لمرافقته إلى قصر المجلس كي يتقبل شكر ممثلي الشعب على ما أسداه إلى الأمة بهذه البطولة الجليلة . فقال بلاريون في شيء من التبرم :

– أنا لا أريد مجدا ، ولا أستأهل شكرا ..

– لكنك ستلبي الدعوة برغم ذلك .. فان الأعراض عنها ليس مما يليق في حق (المجلس الوطني) .

ولما مثل بلاريون أمام المجلس وقف الرئيس وراح يشيد بمناقبه ويحيي فيه روح التضحية والفداء ، وأعلن شكر الأمة على ما أسدى اليها من هذه الخدمة الوطنية النبيلة . ثم تقرر منح بلاريون وفاشينو مبلغ عشرة الآف من الفلورينات يتقاسمانها جزاء تخليص المدينة من خطر الغزو الخارجي .. كما تقرر منح بلاريون رتبة الفروسية وتولى فاشينو نفسه تنصيبه فارساً في حفلة شهدها الدوق وسائر نبلاء الدوقية وعظمائها ..

وفي الليلة التالية اقيمت وليمة عشاء في قاعة جاليازو الكبرى في قصر بروليتو دعى اليها الفارس الجديد الذي كان قبلة العيون ومحط الانظار . ووقف بلاريون يتحدث بعض الوقت مع رئيس الاساقفة وديللاتورى . وما كاد يبتعد عنها حتى وجد نفسه فجأة أمام الأميرة فاليريا التي لم يعرف بوجودها في ميلان قبل هذه اللحظة .

كانت الأميرة منتحية في جانب منعزل في أقصى القاعة لا يصاحبها سوى وصيفتها ديونارا . وما كاد بلاريون يرى نظراتها المركزة في شخصه حتى انتفض وتورد وجهه ثم شحب بتأثير هذه المفاجأة وأحس ان هذه النظرات قد جردته من كل شيء وكشفت في شخصه عن دعي محدث النعمة مجهول الأصل أقحم نفسه اقحاماً في مجالس الخاصة والعظماء .

على انه لم يلبث ان تغلب على أحساسه وتقدم نحوها في وقار والمحنى أمامها . فتورد محياها ولمعت عيناها وتراجعت خطوة إلى الخلف كأنما تهم بالانسحاب . ثم تمالكت وقالت .

– أرى الحظ قد حالفك يا سيدى . وانك تنعم في الخيرات !.

– هذا من فضل ربي يا سيدتي .

– بل بفضل أساليبك .

– أساليبي ؟ .

– اساليب يهوذا . جدير بك ان تتدارس النهاية التي انتهى اليها .

وهمت بالانسحاب لولا ان أستوقفتها حدة لهجته ، إذ قال لها :

– سيدتي ، اذا كنت قد توصلت حقاً بهذه الأساليب ، فقد كان ذلك في خدمتك .

فتوهجت عيناها لحظة وقالت : في خدمتي !. وهل كان من خدمتي ان تتجسس علي وتشي بي ؟ . وهل كان من خدمتي ان

تقتل الكونت سبينو ؟ .

ثم ابتسمت في مرارة اليمة واردفت :

لعلك ترى انه لم تبق في نفسي أوهام بصدد هذه الخدمات التي اسديتها الي ؟.

– يا الهي ! . بل ان نفسك ممتلئة بالاوهام التي هي نتيجة الاستدلال والاستنباط .. وقد بينت لك من قبل يا سيدتي ان هذا هو نقطة الضعف في نفسك ..

– ايها المخادع المسكين .. هل تزعم انك لم تقتل سبينو ؟ .

– بل قتلته طبعاً ..

أذهلها هذا الاعتراف ، فهتفت : هل تعترف ؟. هل تجسر على الاعتراف بهذه الجريمة ؟ .

– هل أخبرك بالسبب ؟ . لقد قتلته لانه كان جاسوساً لعمك أرسله للايقاع بك ، تمهيدا للقضاء على شقيقك ..

فهتفت في غضب واهتياج : سبينو ! . هل تفتري هذا على سبينو ؟ . انه كان أنبل وأوفى من عرفت من الاصدقاء .. ان العدالة الالهية ستقتص لمقتله .. وهذا يكفي .

– لا يا سيدتي . فكري في تلك النقطة التي لفتت نظر القاضي في كازالي .. أعني وجودي والكونت سبينو وحدنا دون أهل بيت باربارييسكو في ملابسنا الكاملة .. هل تريدين التفسير الحقيقي الذي يخالف ما أدليت به أمام القاضي ؟ .

– وهل أصغي لشخص يعترف بأنه كاذب وقاتل ؟ .

– وأسفاه ! . اني فعلت هذا في خدمة سيدة جاحدة ناكرة للجميل ؟ لكن اسمعي الحقيقة ..

وقص عليها في ايجاز حقيقة الموقف الأخير الذي حدث بينه وبين سبينو .. فقالت له في ازدراء شديد :

– وهل أصدق هذا منك ؟ . وحتى اذا صحت هذه القصة ، فانها تدمغك بالنذالة والوحشية .. فان هذا الرجل كان يسعى لانقاذك من الهلاك ، كما اعترفت بنفسك فكان جزاء هذه المروءة ان تغدر به وتغتال حياته .

فلوى بلاريون يديه يأساً .. وقال لها :

– يا لهذه الصلابة ! . سميني نذلا اذا شئت لاجل هذا العمل .. لكن اعترافي باني لم أفعله استجابة لدافع ذاتي أو شخصي .. قدري النتيجة وحدها .. فاني قتلت الكونت سبينو لانقاذك .. وقد انقذك قتله حقاً .. ثم انه لو كان لي غرض غير هذا ، ولو كنت حقاً جاسوس المركيز للقضاء عليك ، فلم لم اتكلم امام المحكمة ؟ .

– لان كلامك وحده ما كان يكفي للقضاء على أشخاص في مركزنا هل تريد ان أصارحك برأيي فيك ؟ . انك قتلت الكونت سبينو دفاعاً عن نفسك بعد ان اكتشف خداعك ووقف على حقيقة اغراضك .. وهناك دليل على هذا الخداع الذي هو ظاهر كالشمس .. ذلك هو زعمك انك طالب مغمور أوهم المركيز تيودور بانه ربيب فاشينو كاني .. فقد صرحت لي

بان ذلك كان خداعا وتمويها.. فلعلك الان تنكر هذا التصريح.

أحس ان بلاريون شجاعته تخونه .. فقال: كلا..لا أنكر .

– ولعلك تزعم لي الآن بانك خدعت فاشينو نفسه بهذا التمويه ؟ ان من كان مثلك مخادعاً كبيرا لا يستعصي عليه شيء. فقد ضللت الناس حتى حسبوك صريعاً في (ترافو) . ومع ذلك فقد عدت إلى الحياة لكي تجني ثمار هذه الخدعة التي بذرت بذورها .

فهتف بلاريون وقد تملكه الغضب من هذا الشك الشائن :

يا للعار ! .

– ألم يكافئك ويجعلوك فارساً نتيجة لهذا الخداع المتصل؟.

فهنيئاً لك ما نلت .. لكنك لن تخدعني ! .

وتركته في مكانه وقد اثخنت نفسه بجراح لا يسهل برؤها .

الفصل التاسع

حصار

اوعز (ديلاتوري) الى الدوق برفض التحالف مع المركيز تيودور الوسي على عرش (مونتفيرا) هذا التحالف الذي كان جابرييللو ماريا يسعى لعقده اضعافا لمركز الحزب البابوي الذي كان ديلاتوري من زعمائه.

وهكذا انسحب المركيز تيودور الى ولايته غاضبا ناقماً على ميلان ..

ثم سنحت فرصة أخرى أمام (ديلاتوري) يستطيع بها ان يبعد فاشينو حتى يخلو له الجو ويحقق اطماعه في السيطرة على الدوقية وترسيخ نفوذ الحزب البابوي في ميلان بالتحالف مع مالاتستا زعيم هذا الحزب وتزويج الدوق من ابنته .

فقد تلقى الدوق رسالة من شقيقه فيليبو ماريا أمير مقاطعة (بافيا) يستنجده فيها ضد الفاتح (فيناتي) الذي أغار على

لخومه وأستولى على مدينة (الساندريا) .. وما كاد (ديللاتوري) يلم بهذه الرسالة حتى وجد فيها الوسيلة التي كان ينشدها لتحقيق أغراضه . فأشار على الدوق ان يوجه فاشينو لنجدة شقيقه وتخليصه من براثن « فيناتي » الفاتح الذي أغار على أراضيه .. على انه لا يكاد يخرج بجيشه من ميلان حتى يستقدم الدوق « مالاتستا » ويتحالف معه ، وبذلك يتخلص من فاشينو الذي ستقفل في وجهه أبواب ميلان بهذا التحالف مع « مالاتستا » القوي ..

والواقع ان هذه المكيدة صادفت هوى من نفس الدوق الذي كان يتوق إلى التخلص من وصاية فاشينو والاستبداد بامور الدوقية ، دون ان يفطن إلى ما فيها من القاء نفسه بين احضان حليف كثير المطامع قوي الشكيمة .. لكن أهواء النفس طمست بصيرته فلم يفكر إلا في نزوات الانتقام الوضيع .

وهكذا دعا اليه فاشينو وأطلعه على رسالة شقيقه .. فقال القائد العظيم حين علم فحواها : هذه مسألة خطيرة .

– هل تعني ان (فيناتي) رجل يخشى بأسه ؟ .

– لا يخشى بأسه طالما كان وحده .. لكن ما العمل اذا انضم اليه (استوري فسكونتي) وغيره من الناقمين ؟ . هم قوم لا خوف منهم فرادى لكن اذا اتحدوا كانوا قوة جارفة .. وهذه الخطوة الجريئة من جانب فيناتي قد تكون مقدمة حلف عدائي ؟ .

– وما العمل اذن ؟ .

– أضرب فيناتي أولاً وأطرده من (الساندريا) قبل ان يلتف حوله أعداؤك .

فصاح الدوق : عليك بهذه المهمة اذن .. ان الوسائل لديك متوفرة .

– ان جيشي مؤلف من الفين وثلاثمائة مقاتل بعد انضمام (البرغنديين) على أثر موقعة (رافو) .. واذا أضيفت اليهم قوة الاحتياطي ..

– اننا في حاجة إلى هذه القوة للدفاع عن المدينة ضد أستوري وغيره من الخوارج .

فلم يعترض فاشينو وقال :

– سأقوم بالحملة بغير حاجة إلى هذه القوة اذن .

وخرج فاشينو بجيشه في صباح اليوم التالي ولم يستريح حتى وصل إلى اسوار « بافيا » في منتصف الطريق إلى (الساندريا) .

وقد انتهز بلاريون فرصة انعقاد المجلس الحربي المؤلف من قواد فاشينو لكي يبين لهم ما في الهجوم المباشر على (الساندريا) التي يحتلها « فيناتي » الفاتح من جهود وخسائر .. وقرر في ثقة واعتداد ان خير وسيلة لقهر الخصم هي مهاجمته في أضعف مراكزه وتطبيقاً لهذه الخطة فانه يقترح العدول عن مهاجمة « الساندريا » التي تحصن العدو خلف أسوارها والاغارة على

مدينة « لودي » مقر حكم فيناتي لوجودها بغير حامية قوية .. لكن فاشينو كاني أصر على رأيه وقرر انه ليس بالقائـــد الذي الذي يهرب من الهجوم المباشر وان وجود فيناتي متحصناً وراء أسوار « الساندريا » هو في ذاته اغرء بمهاجمتها .

ولم يشأ بلاريون ان يجادل فاشينو .. ولم يقل له ان الاستيلاء على مدينة (لودي) الضعيفة واستعادتها إلى أملاك ميـلان مما يزيد في نفوذها الأدبي .. ويضعف من شوكة الفاتح فيناتي .. بل آثر ان يحتفظ برأيه لنفسه .

وبعد ان اجتمـــع فاشينو بفيليبو ماريا في قصره الحصين استأنف السير على رأس جيشه بعـــد ان انضمت اليه قوة من الجنود المأجورين يناهز عددها الخمسمائة جندي تحت أمرة قائد يدعى (جيازوني تروتا) .

ولما وصل فاشينو على بعد ثلاثة أميال من (الساندريا) كف عن التقدم . واتخذ مقر القيادة في قرية معروفة باسم (بافوني) . ثم طوق بجيشه مدينة (الساندريا) في دائرة قطرها ثلاثة اميال، وقد تمت هذه الحركة بسرعة كبيرة حتى ان أهـل المدينة لم يفطنوا إلى انهم محاصرون حقاً إلا حين خرج بعضهم في اليوم التالي فاذا هم يؤمرون بالعودة من حيث جاءوا .

وقد تيقن من المعلومات التي وقف عليهـا فاشينو من بعض هؤلاء بالاكراه والتهديد والعذاب ان المـؤن الموجودة في المدينة قليلة وانها لذلك لا تقاوم حصاراً طويل الأمد .. وقد تعززت

هذه المعلومات بمحاولة فيناتي اقتحام هذا الحصار أربـع مرات في خلال الأسبوع الأول حـــين القى نفسه كالذئب المحبوس في القفص لكن فاشينو كان يقظاً ورده على أعقابه إلى داخل أسوار المدينة في المرات الأربع .

وعلى أثر هذا الاخفاق الذى منى به فينـــاتي في اقتحام الحصار ، جاء إلى مقر فاشينو في قرية (بافوني) ثلاثة مبعوثين من قبل (المجلس الوطني) في (الساندريا) يرافقهم أحد ضباط فيناتي لمعرفة شروط فاشينو في فك الحصار عن المدينة .. فقال فاشينو انه لا يرضى باقل من مائه الف من الفلورينات يدفعهـا المجلس الوطني تعويضاً عن نفقات هذه الحملة .. كما اشترط ان ينسحب (فيناتي) من المدينة في ظهر الغـــد تاركاً أسلحته وذخائره ، وان يدفع غرامة قدرها مثل هذا المبلغ تؤديها مدينة (لودى) ، على ان تحتـــل هذه المدينة قوة من جيش فاشينو ضماناً لاداء هذه القيمة .. وامهلهم فاشينو أربعاً وعشرين ساعة للوفاء بهذه الالتزامات ، والا فرض عليهم شروطاً أقسى .

وغنى عن البيان ان هذه الشروط قوبلت بالرفض .. فقـد توالت الأيام دون ان تبدو حركة من ناحية فيناتي .. وتضايق المحاصرون بمرور الوقت واشتد تـبرم فاشينو على الأخص حين الح عليه داء السرطان فاقعده في مقر القيادة .

وبعد انقضاء شهر على بدء الحصار جلس فاشينو ذات ليـلة يتناول طعام العشاء مع قواده فيما عدا ستوفل الذى كان مرابطاً

في جهة (كازابليانو) .. وشكا فاشينو هذه المرة من رداءة الطعام فقال (جيازوني ترونا) الذى كان معهوداً إلى رجاله تموين الجيش المحاصر :

– الواقع انه اذا استمر الحصار أكثر من هذه المدة متنا نحن جوعاً لا هم . فان رجالي جردوا هذه الجهات من المؤن في دائرة عشرة أميال .

فما كاد فاشينو يسمع هذا التصريح حتى انفجر قائلاً :

– يا للشيطان ! . اني لا أفهم كيف يصمدون للحصار ! .. فان وجود جيش في المدينة قوامه الفان من الجنود النهمين كان جديراً بان يقضي بهم إلى الموت جوعاً .

فقال كونجو هوفن وهو يعبث بلحيته الحمراء :

– هذه مشكلة غامضة ! .

– نعم ! .. هذا ما يحيرني ! . لا بد ان المؤن تتسرب اليهم من الخارج .

فقال كارمانيولا في لهجة اليقين ، اذ كان منوطاً به ألا يترك ثغرة في الدائرة المحاصرة .

– هذا مستحيل ! .

فقال بلاريون : وماذا يمكن غير ذلك ؟ . إلا ان يكونوا يأكلون بعضهم بعضاً ! .

قدحت عينا كارمانيولا شرراً .. وتحفز للرد على بلاريون لولا ان اذني فاشينو الحادتين سمعتا صوتاً بعيدا ، فقال :

– اسمعوا ! . من ذا الذي يركض بهذه السرعة القائلة ؟ .

أنصت الجميع . وما لبثوا ان تميزوا وقع حوافر جواد يسير ركضاً .. فخرج كارمانيولا إلى الباب .. واذا هو يرى فارسين يركضان في شارع القرية قادمين إلى ناحيته .. ثم وقفا على مقربة منه وقال احدهما :

– اين يقيم الكونت بياندراتي ؟ .

– هنا ! .

وسرعان ما ترجلا وتبعاه إلى الداخل .

www.liilas.com/vb3 RAYAHEEN

الفصل العاشر

وفاء !..

ذهل فاشينو حين رأى القادمين زوجته الكونتس بياتريس وجيوفاني بوسترلا قريب ذلك الذي كان الدوق يطارده بكلابه حين رآه بلاريون لاول مرة .. وقد استهدف افراد هذه الاسرة الانتقام من جيان ماريا المروع اذ اغرى هو احـــدهم بدس السم لامه (ام جيان ماريا) حتى اذا تمت هذه الجريمة النكراء تظاهر الدوق ببراءته منها وراح يضطهد افراد هذه الاسرة اظهاراً لاستنكاره جريمة كان المحرض عليها والمدبر لها.

وقد أبدت الكونتس قلقها حين رأت ساق فاشينو الممددة على مقعد واستفسرته عما به . لكنه أجابها بايجاز وسألها عن سبب قدومها برفقة (جيوفاني) ، فأجابته قائلة :

– نعم ! .. اننا أثرنا دهشتك ! . لكن الله يعلم انه ما كان يحدث هذا لو أنك أخذت برأيي واستمعت لنصحي .

– هل لك ان تخبريني بسبب حضورك ، وتتركي ما عدا ذلك .

ترددت الكونتس قليلا .. ثم أشارت إلى رفيقها قائلة :

– أخبره يا سيد جيوفاني .

فقال جيوفاني فورا : اننا جئنا إلى هنا لابلاغك ما يحدث في ميلان .. الا تعلم شيئاً عنه يا سيدى ؟ .

– في ميلان ؟. ان الرسائل تجيئني أسبوعياً من سمو الدوق. وهي تبعث على الاطمئنان .

ضحكت الكونتس ضحكة خافتة مريرة .. بينما قـــال جيوفاني :

– وهل مما يبعث على الاطمئنان وصـــول (مالاتستا) إلى ميلان مع جيش مكون من خمسة آلاف من الجنود ؟ .

جزع فاشينو حقاً .. وقال :

– هل يزحفون على ميلان ؟ .

فضحكت الكونتس للمرة الثانية .. وشاطرها جيوفاني الضحك ثم القى قنبلته :

– يزحفون على ميلان ؟ . بل هم فيها الآن بدعوة صريحة من الدوق .. وفي الثاني من هذا الشهر زفت النبيلة انطونيـا

مالاتستا إلى الدوق جيان ماريا ، وعين والدها حاكماً لميلان .

خيم صمت مروع .. وابى فاشينو ان يصدق هذه القصة الهائلة . وأعرب عن هذا الرأى .. فقال جيوفاني :

– سيدى .. اني أحدثك عن أشياء رأيتها رأى العين .

جعل فاشينو يتطلع اليه جازعاً مرعوباً .. بينما قالت الكونتس وهي تبتسم ابتسامة تشف عن التهكم :

– لعلك فهمت الآن سبب قدومي إلى هنا يا فاشينو .. ولعلك ترى ان زوجة فاشينو أصبحت لا تأمن على نفسها في ميلان أعني زوجة الرجل الذى صمم الدوق على القضاء عليه بأى ثمن ، حتى يوضع رأسه تحت أقدام اسرة (مالاتستا) .

هتف فاشينو : وجابرييللو ؟ .

فأجاب جيوفاني : انه أخذ على غرة شأن كافة المناصرين للامبراطورية في ميلان .. وهذا كله من تدبير (ديللاتورى) . والشيطان وحده يعلم ما هي أغراضه ومطامعه .. وقد لا يبعد ان يقود جيان ماريا في النهاية إلى مصرعه .

– لكن ألم يقاوم جابرييللو ؟

– انه التجأ إلى قلعة (بورتاجوفيا) .. و (مالاتستا) يحاصره في الوقت الحالي كما ان جيان ماريا ذلك الوحش الضارى قد جعل ثمناً لرأس شقيقه الذى طالما حماه من غضب الشعب و (المجلس الوطني) .. رباه ! .. ليت جاليازو العظيم

يبعث حياً حتى يرى إلى أى حد من التفكك والفوضى قد أوصل ابنه العاق دولته العظيمة ! .

أطرق فاشينو مفكرا .. ثم رفع رأسه وقال :

أنا آخر هؤلاء القواد الذين شاركوا جيان جاليازو في بناء صرح دولته العظيمة التي يفكها ولده كل يوم .. وقد حملهم بنزقه على الخروج عليه وانتزاع أملاكه لكي ينشىء كل لنفسه دويلة مستقلة . وبقيت وحدى على ولائي لهذا العرش المتزايل شاهرا الحرب في وجوه زملائي من القواد ، مستهدفاً للتتاعب منة ولاجله أكراماً لذكرى والده العظيم الذى كان صديقي ، وحفاظاً على الثقة التي وضعها في شخصي قبل وفاته ، وهأنذا الآن انال جزائي ! . لقد أوفدني لرد (الساندريا) إلى أيدى أفراد اسرته الغادرة ، وبينما أقوم بهذه المهمة اذا بمكاني ينتزعه زعيم البابويين في ايطاليا ، واذا العدة تتخذ للخيانة دون رجوعي إلى ميلان إلى الابد ! .

تنهدت الكونتس طويلا .. ثم غمغمت :

لا حاجة إلى ابلاغك أكثر من هذا .. فهأنت قد بدأت تفتح عينيك اخيرا .

وقال جيوفاني : اني جئتك يا فاشينو باسم جميع الامبراطوريين من أهل ميلان الذين يرون فيك قائدهم الطبيعي ، والذين يثقون بك ولارجاء لهم في غيرك .. وانهم ليذوبون

جزءاً من المصير الذى ينتظرهم بعد هذا العدوان الذى قام به الحزب البابوى .. ان ميلان في الوقت الحالي مدينة تخضبها الدماء ويسودها الفزع ! . وانت ملاذنا الوحيد وملجأنا الأخير في هذه الساعة العصيبة ! .

غرس فاشينو مدينه في خشب الخوان بحركة فجائية . . ورفع عينيه اخيرا فاذا هما محتقنتان غضباً .. وقال :

– لا اتمنى الا ان تشفى ساقي ، وسيأكل افراد هذه الاسرة الغادرة ثمار غدرهم من يدى حتى يغصوا بها .

الفصل الحادي عشر

قافلة

في ظهر اليوم التالي امتطى بلاريون جواده لزيارة ستوفل في قرية (كازابليانو) ، مجتازاً طريقه في المنطقة المجاورة لاسوار (الساندريا) .

وفيما كان يسير استرعى انتباهه جسم لامع على الارض في الطريق المطروق الذي كان يسلكه .. فانحدر عن جواده وتناوله ، واذا هو حدوة بغل مغطى سطحها السفلي بجلد سميك .

كان بلاريون واثقاً من دقة الحصار وتعذر افلات احد اهل المدينة من ثنايا خطوطه المتعاقبة .. ولذلك عجب من وجود هذه الحدوة وراح يسائل نفسه عمن جاء من رجال فاشينو الى هذه المنطقة التي لا تبعد غير مسافة وجيزة عن مرمى السهام من أسوار البلدة ، ولم أمتطي بغلا ..

ولم يعد بلاريون الى امتطاء جواده .. بل قاده وسار على قدميه في الطريق المؤدي الى (كازابليانو) .

ولما وصل الى القرية بعد ساعة القى ستوفل يتناول الغداء .. فبادره قائلا :

– انك تتهاون في الرقابة في المنطقة الكائنة بين هذه الجهة وبين (اولارا) .

فقال ستوفل : انك تحيرني دائماً بأقوالك يا بلاريون !.

– اليك اذن شيء يزيل حيرتك .

والقى بلاريون الحدوة فوق الخوان وبين له ظروف العثور عليها ، ثم استطرد :

– وليس هذا كل شيء . فاني رأيت على امتداد نصف ميل من الطريق خطاً ابيض في الحشائش ، وقد تبينت من فحصه انه دقيق متسرب من كيس نقل في هذا الطريق .

ارتاع ستوفل ، وصارح بلاريون بأنه لا يملك عدداً كافياً من الرجال لحراسة كافة أجزاء الخط ، كما ان الظلام يتكاثف في الليالي غير المقمرة .

فوعد بلاريون ان يعمل على امداده بالعدد اللازم من الرجال وعاد مسرعاً الى (بافولي) دون ان يبقى لتناول الغداء .

وما كاد يصل حتى القى المجلس الحربي منعقداً لتقرير خطة الهجوم على (الساندريا) على اعتقاد ان الجوع لا بد ان يكون اضعف قوى المحصورين وقل من مقاومتهم . فأطلعهم

بلاريون على اكتشافه .. ولم يسع فاشينو الا ان يعترف بالحقيقة الواقعة .

– ان الموقف قد اختلف بعد هذه البيانات التي اطلعنا عليها بلاريون . وعلينا ان ندرس الموقف من جديد .

فقال كارمانيولا : لكن بلاريون قد يكون مخطئاً . وقد لا يكون هذا الدليل سوى ..

فقاطعه بلاريون : لو كانت حالة فيناتي كما كنا نظن ، لاستمر في حملاته العنيفة لاقتحام طريقه الى الخارج . اما وقد اهتدى الى طريقه للتموين بالاطعمة من خارج المدينة ، فقد وقف موقف الجمود ، لانه يريد ايهامنا بأنه يقاسي عذاب الجوع ، فيستدرجكم الى مهاجمته .. ومتى رد هجومكم وأضعف قواكم ، خرج بكل قواه لاتمام هزيمتكم .

فقال كارمانيولا ساخراً : انك ترى كل شيء بوضوح في حدوة بغل وذرات من الدقيق !.

ثم التفت الى أصحابه وراح يلوح لهم بساعديه قائلا :

استمعوا له !. وتعلموا مهنتكم منه يا سادة !. تعلموا في مدرسة السيد بلاريون !!

لكن فاشينو قاطعه قائلا بعنف :

– الحق ان بلاريون يتكلم كلاماً منطقياً يخجلكم ! وحين اصغي اليه اكاد اعتقد ان السرطان في عقلي لا في ساقي !. استمر في كلامك يا ولدي !. قل ما عندك !.

– ليس عندي ما أقول حتى نأسر احد رجال قافلة التموين .. ويمكن ان يتم ذلك في هذه الليلة اذا ضاعفتم قوة ستوفل ..

فقال فاشينو : جائز لكن كيف تقترح اتمام الخطة على وجه التحديد ؟

تناول بلاريون قطعة من الفحم وراح يرسم خطوطاً على الخوان الخشبي تعزيزاً لكلامه ، وقال :

– هنا امتداد الطريق .. ولا يمكن ان تحيد القافلة عنه الى اكثر من مسافة ربع في كلا الجانبين ، نظراً لوجود النهر من ناحية ، والمستنقعات من ناحية ثانية .. وفي الامكان بث الرجال على شكل قوس مزدوج من النهر الى حدود المستنقعات .. ولا مفر للقافلة ان تطرق هذا القوس كما تطرق السمكة شبكة الصياد .. ومتى تم ذلك اخذ طرفا القوس يتحركان حتى يتلاقيا ، وبذلك يحصران القافلة ولا يدعان فرداً واحداً يفلت لإخطار المحصورين ..

حبذ فاشينو هذه الخطة ، وعهد الى بلاريون تنفيذها . وقبل ان يرخي الليل سدوله كان بلاريون عند ستوفل .. كما تحركت بعد حلول الظلام قوة مؤلفة من مائتي جندي الى قرية (كازابليانو) .. ووضع بلاريون الرجال جميعاً على هيئة القوس المزدوج كما رسمه في مقر القيادة .. وعهد الى ستوفل قيادة

الجناح الايمن ، والى سويسري آخر يدعى (فينزل) الجناح الايسر ، أما بلاريون فقد جعل مقره في منتصف القوس ، في نفس الطريق المطروق ..

وقد تقدم الليل وتكاثف الظلام ، وهبت عاصفة مقترنة بسحب كثيفة حجبت وجه السماء .. وزياده في الحيطة أمر بلاريون الجنود ان ينبطحوا على وجوههم حتى لا ترى اشباحهم ..

وجعلوا ينتظرون على هذا النحو حتى انتصف الليل وكاد بلاريون يفقد الامل ، وفجأة سمع وقع حوافر خفيفة الوطأ فوق الحشائش .. ثم بدا شبح قافلة يتحرك في الظلام .

وفيما كان قائد القافلة يمني نفسه بالوصول الى المدينة المحصورة في أمان اذا به يرى طريقه مسدودة بكتلة بشرية ظهرت فجأة كأنما انشقت عنها الارض .. فجذب عنان دابته وصاح يصدر أمراً .. وسرعان ما حدث هرج وتعالى الصياح في الظلام وارتدت القافلة على أعقابها العودة من حيث جاءت ، فاذا الحراب المسنونة تحول دون تقدمها .. وأينما تحركت القافلة التماساً للفرار والنجاة واجهتها الحراب وأخذت الشبكة تضيق وتطبق عليها حتى عجزت عن التحرك .

ثم اضيئت الانوار أخيراً .. فرأى بلاريون قافلة مؤلفة من عشرين بغلا حاملة سلالا كبيرة يقودها ستة رجال على رأسهم

رجل ملثم يوجه آثار جدري.. ووقف الرجال جميعاً ساخطين مستسلمين مدركين عبث المقاومة .. ولم يوجه بلاريون الى احدهم سؤالا .. بل أصدر أوامره بإيجاز الى ستوفل وكانت تقضي بأن يبقى مائة من الجنود بقيادة « فتنزل » في حراسة القافلة حتى تصدر اوامر اخرى من بلاريون ، وان يرافق عشرون جنديا رجال القافلة مجردين من سلاحهم ومقيدين الى قرية (كازابليانو) ، وان يعود باقي الجنود الى أماكنهم العادية .

وبعد نصف ساعة كان بلاريون في البيت الذي اتخذه ستوفل مقراً له في القرية وأمامه قائد القافلة مقيد اليدين يحرسه جنديان .. وتناول بلاريون شمعة وأدناها من وجه هذا الرجل الذي خيل اليه ان ملامحه مألوفة لديه .. وقال له :

– أظننا تقابلنا قبل الآن .. آه !.. انت الراهب الزائف الذي رافقني في الطريق الى مدينة « كازالي » .. ذلك اللص المدعو لورنزاشيو داربنو !.

فقال الرجل وقد غمت نظراته عن الجزع والرعب :

– لست أنكر هذا .. لكني كنت صديقا لك في ذلك الوقت ولولا ذلك الفلاح ..

فقاطعه بلاريون بصرامة : صه !..

ووضع بلاريون الشمعة فوق الخوان وجلس في المقعد المجاور ، بينما كان لورنزاشيو يتأمل مظاهر الترف البادية عليه في خوف

ووجل ثم تفرس فيه بلاريون فجأة بنظرات الغت الرعب في قلبه .. وقال له :

– هل تعرف ما ينتظرك ؟.

– اني أقدر المجازفة التي قمت بها .. لكن ..

– ان حبل المشنقة ينتظرك يا صديقي .. وقد صارحتك بهذا لكي لا يكون في نفسك ادنى شك في الحقيقة ..

ترنح الرجل وتخاذلت ساقاه ، فأسنده الجنديان .. وجعل بلاريون يراقبه باسما .. ثم أمسك دقنه بيده ، وراح يقول له في تؤدة أليمة :

– لقد زعمت انك كنت صديقا لي .. ولست ادري ان كان محتملا انك كنت تواليني بهذه الصداقة حتى النهاية .. فان الظروف فرقت بيننا قبل الاوان .. لكنك سرقت كل ما كنت املك .. وقد لا يبعد انك كنت ترد الي ما سلبتني لو أسعفتك الظروف .

فقال الرجل التاعس : نعم كنت افعل !. أقسم اني كنت أفعل !.

– ان من الغفلة ان اصدقك .. وتذكر ان حياتك معلقة على اعتقادي فيك .. لكنك كنت اداة في يد القدر لتكييف حياتي .. وانا اشعر بميل في نفسي الى موالاتك .

– جزاك الله خير الجزاء !. جزاك ..

– صه !. لا تقاطعني .. اني اريد اولا دليـــلا على حسن نيتـك .

– دليل ؟. وأي دليل يمكن ان اقدمه ؟.

– في وسعك ان تجيب على اسئلتي في صدق وحـلاء .. وهذا هو الدليل الذي أطلبه منك .. ولكن اذا رأيت منك أقل دلالة على الكذب والخداع فستلقى شر العذاب ، ثم تموت في النهاية أفظع موت .. فلتكن صادقـــا معي تظفر بالحياة وتسترد حريتك .

وراح بلاريون يوجه اليه ما شاء من اسئلة ، فكان يجيب في غير تردد مما أقنعه بصدقه واخلاصه .. وقد جعل بلاريون يستجوبه في دقة حتى أيقن اخيرا بأن الخوف من الموت والطمع في الحياة حملا لورنزاشيو على التزام الصدق في كل كلمة فاه بها . واستمر هذا الاستجواب نصف ساعة الم بلاريون في نهايتها بكل ما كان يريد من البيانات .. فعرف ان لورنزاشيو يعمل لحساب (جيرولا موفيناتي) أسقف مدينـــة ديزانا . وشقيق الفاتح المحاصر ، وان هذا الاسقف كان يوجه هذه القوافـــل الى (الساندريا) في الليالي الظلماء . وكانت البغال تترك في المدينة المحصورة لكي تؤكل مع احمالها ، وكان الرجـــال يعودون ادراجهم سيرا حالما يصلون الى اسوار المدينة ولم يكن يسمح بالدخول إلا للورنزاشيو الذي كان يعود في الغد ومعه كلـة السر التي تبيح له دخول المدينة في المرة التاليـة .. وقد صرح

لورنزاشيو بأنه اخـترق خطوط الحصار نحو عشر مرات في خلال الاسابيع الثلاثة الأخيرة .. وأخيراً حصل منه بلاريون على وصف دقيق لاسقف ديزانا وجيوفـاني فيتالي الفاتح ولمن يتصلون به من الأشخاص البـــارزين .. وكذلك وقف منه على بيان مفصل عن موقع مدينـة (الساندريا) من الداخل وغير ذلك من المعلومـات اللازمة .. يدونهـا جميعاً كتابة ..

الفصل الثاني عشر

قائد القافلة

وصلت قافلة المؤن الى باب مدينة (السندريا) الجنوبي قبل الفجر بساعة .. وعكر قائدها الوحيد سكون الليل بصفير أجش ردده ثلاثا .

وما هي إلا لحظة حتى لاح ضوء خلف نافذة الباب .. وصاح صوت من خلال الظلام عبر الخندق من هناك ؟ .

فأجاب قائد القافلة : رسول من قبل السيد جيرولامو .

– قل كلمة المرور ! . – (لودي) الظافرة ! .

وعلى أثر ذلك سمع صليل السلاسل . وأدليت القنطرة فوق الخندق حتى استقرت أخيراً عند قدمي قائد القافلة .. وفتح باب المدينة في نهاية القنطرة وتوهجت الأضواء في مدخله فكشفت

عن حراس شاكي السلاح .

وتكلم قائد القافلة في الظلام فودع أشخاصاً لا وجود لهم ! . ثم قاد القافلة عبر القنطرة حتى وصل في نهايتها إلى الباب حيث وقف الحراس على تمام الأهبة حذر المباغتة .. وفجأة دفع الضابط مصباحاً قرب وجهه ، وقال له :

– لست انت لورنزاشيو ! .

فقال قائد القافلة : اخذك الشيطان ! . لا حاجة إلى حرق وجهي لكي تعرف هذه الحقيقة ! .

ازالك هذه الجرأة شكوك الضابط . وكيف يرتاب أناس محصورون في انسان يحييهم بقافلة محملة بالمؤن ؟ .

ثم قال الضابط : من أنت ؟ . وما اسمك ؟ .

– اسمي بيبو .. وقد جئت هذه الليلة نيابة عن لورنزاشيو الذي جرح وكاد يعتقل .. ولست في حاجة إلى سؤالك عن اسمك يا حضرة الضابط فان لورنزاشيو انذرني اني ساجد ضابطاً شرساً باسم (كريستوفورو) لا يراني حتى يكاد يأكلني ! . لكني وقد رأيتك الآن لا اصدقه .. هل عندك ما أشربه يا حضرة الضابط ؟ . ان الظمأ يكاد يقتل الانسان في هذه الليلة الخانقة ! .

فقال الضابط مستاء من هذا التبسط :

– خذ بغالك واذهب إلى قصر (المجلس الوطني) .

وقد وصل السيد بيبو إلى القصر عند بزوغ الفجر .. واسلم البغال إلى من كانوا ينتظرون في ساحة القصر الخارجية .. ورآهم خليطاً من ضباط (فيناتي) وممثلي السلطة المحلية .. وكان الأولون ممتلئي البطون موفوري القوة .. اما الآخرون فكانوا ضعافاً هزالاً مما أقنع قائد القافلة بان اهل المدينة يعودون بصفقة المغبون في عملية التموين .

وطل قائد القافلة المعتد بنفسه أكثر مما يجب ، مقابلة الفاتح « فيناتي » ، فاغلظوا له القول أول الأمر . حتى اذا توعدهم قاده أحد الضباط إلى قلعة المدينة حيث أدخل إلى غرفة حجرية مقوسة السقف ليس بها من الأثاث سوى خوان ثقيل من خشب السنديان ومقعد مرتفع الظهر .. وقد تركه الضابط في هذه الغرفة ونفذ من باب ضيق إلى غرفة مجاورة .. وما هي إلا لحظة حتى أقبل رجل أسمر اللون قصير القامة مقوس الساقين غليظ الشفتين تبدو عليه مظاهر السطوة والنفوذ وجاء في اثره راهب في رداء أسود ورجل طويل القامة في ملابس الجنود يتدلى سيف وخنجر من حزامه الثمين .

وتفرس الرجل في قائد القافلة ملياً ثم قال له :

ـ أحسب ان معك رسالة لي .

وجلس في المقعد الوحيد في الغرفة ، واستند الراهب إلى الخوان ، بينما وقف الضابط الطويل القامة خلفه .. اما الضابط

الذي رافق بيبو فقد وقف في أقصى الغرفة .

تقدم قائد القافلة الشاب في غير خوف ولا وجل أمام طاغية « لودي » ، وقال :

ـ ان نيافة كاردينال ديزانا يبلغك يا سيدي ان هذه القافلة هي آخر ما يرسل اليكم من المؤونة .

تشبث « فيناتي » بمسندي المقعد ونهض في مقعده وقال وقد فارقه وقاره :

ـ ماذا تقول ؟ .

ـ ان هذه العملية أصبحت غير ممكنة .. ولورنزاشيو الذي كان يتولاها قد وقع أسيراً بين يدي فاشينو . فقد اعتقل في صباح الأمس اثناء عودته من « الساندريا » .. وأغلب الظن انه يتأرجح الآن من حبل المشنقة .. لكن هذا لا يهم .. وانما الذي يهم هو انهم اكتشفوا الحقيقة ، وقد شددو التطويق وضيقوا دائرة الحصار حتى ليتعذر المرور الآن .

فقال الضابط الطويل القامة : ومع ذلك استطعت انت ان تمر .

ـ اني مررت بحيلة لا يمكن ان تتكرر فقد أطلقت قافلة من البغال في خطوط فاشينو قرب (أولارا) .. وكانت النتيجة ان تقاطر الجنود إلى هذه البقعة تاركين ثغرة واسعة في صفوفهم ، كما كنت أقدر . وما كاد الظلام ينتشر حتى مررت من هذه

الثغرة قبل ان تلتئم .

فقال الضابط : هذه حيلة بارعة .

فقال بيبو في ايجاز : لم يكن بد من هذا لكي أجينكم بهذه المؤن ولكي انذركم بانكم لن تنالون غيرها فيما بعد .

جعل فيناتي ينظر إلى قائد القافلة في شيء من الجزع ، ثم سأله :

– من أنت ؟ . انك لست قائد بغال .

– ان سيدي حاد الذكاء .. والواقع انه عقب اعتقال لوراتزاشيو لم يجرؤ أحد من أصحاب البغال على المجازفة بهذه وأنا قائد فرقة مأجورة مؤلفة من ثلاثمائة جندي مرابطة الآن رهن أوامر نيافة الكاردينال في (كانتالوبو) .. واسمي (بيبو فارفالا) . وقد ابديت استعدادي للقيام بهذه المهمة بدعوة من نيافه الكاردينال ، آملا ان تنتهي بايجاد عمل لي .

– اذا كتب علي ان اموت جوعاً فاغلب الظن اني سأعهد اليك بالعمل المطلوب .

– هذا اذا كان سيدي لا يريد ان يموت جوعاً .. لكن ذلك لم يكن رأي نيافة الكردينال .

– هل يريد أخي الكاردينال ان يعلمني اصول مهنتي ؟ .

فهز بيبو كتفيه وقال : الواقع ان له آراء بارعة في هذا الشأن فقال فيناتي بشراسة : آراء ! . ما هذه الآراء ؟ .

– ان منها رأيه في ان عملية التموين كانت بلا فائدة .. لانكم كنتم في اثنائها جالسين هنا مكتوفي الايدي بلا عمل .

فقال فيناتي غاضباً : بلا عمل ! . قل له ان يهتم بشؤونه الدينية ويترك ما لا يفهمه .

– انه يفهم من فنون الحرب أكثر مما تظنون .

ضحك فيناتي وشاطره الضابط ضحكه .. بينما قال بيبو :

– وهو يعتقد بان هذه الانباء ستدفعكم إلى العمل .

– سحقاً لوقاحتك ! . لست ممن يدفعون إلى العمل ! . قل لاخي اني احارب حين تجب الحرب .. واذا كنت قد جلست هنا مكتوف اليدين ، فما ذلك الا انتظاراً للفرصة السانحة .

– والآن وخطر الموت جوعاً سيدفعكم إلى العمل ، هل تضطرون إلى الخروج التماساً لهذه الفرصة المنشودة .

عبس (فيناتي) استياء من تبسط هذا الضابط المأجور .. ثم قال :

– واين التمسها ؟ . اخبرني فأتجاوز عن قحتك .

– في رأي نيافة الكاردينال انه يمكن التماس هذه الفرصة في مقر فاشينو في (بافوني) .

– نعم ! . كما يمكن التماسها في الهند أو في جهنم ! . فكلها سواء في استحالة الوصول اليها .. اني حاولت الخروج أربع مرات ، وقد انتهت جميعاً بكارثة .. لكن ذلك لم يكن

www.liilas.com/vb3

لتقصير مني .

فقال بيبو باسماً : هل انت واثق من ذلك يا سيدي ؟

فصاح (فيناتي) حانقاً : ؟ .. هل يجسر انسان على ان يرميني بالتقصير ؟ .

– ان نيافة الكاردينال يجسر على ذلك . بل هو يقرر هذا الرأي في صراحة .

– وانت ولا ريب تشاطره هذا الرأي بوقاحتك ؟

فقال بيبو متهكماً : وهل استطيع غير ذلك امام الحقيقة الواقعة . تطلع الثلاثة اليه في ذهول .. بينما استطرد :

– تأمل ما حدث يا سيدي .. فانك قمت بهجومك المتكرر في رائعة النهار وتحت انظار العدو الذي كان يركز قواته في كل نقطة هاجمتموها . ومن رأي نيافة الكاردينال انك لو فعلت ما سوف تضطر الآن لفعله تحت ضغط الجوع ، وجعلت هجومك تحت ستار الظلام لتسنى لك ان تباغت العدو قبل ان يفطن اليك ويركز قواته .

رماه فيناتي بنظرة تشف عن الازدراء الشديد .. وقال :

– رأى قسيس عن الحرب ! .

وقال الضابط الواقف خلف فيناتي : هذه خطة لا بأس بها لو كان غرض سيدي مجرد الافلات وترك (الساندريا) بين يدي فاشينو .. لكن مثل هذا الرأى الشائن لم يدر قط بخلد سيدي .

ثم مال فوق مقعد فيناتي واستطرد :

– لكن الضرورة قد تدفعه لسوء الحظ إلى ان يرى الآن .

فقاطعه بيبو ضاحكاً :

– ان هذه الضرورة لا وجود لهـا .. فان فاشينو كاني سيكون غداً تحت رحمتكم كما كان بالأمس وكما كان خلال الأسابيع التي قضيتموها في جمود .

قال فيناتي لاهثاً : ماذا تقول ؟ . تحت رحمتنا .

– تحت رحمتكم . هي ضربة جريئة ثم ينتهي كل شيء .. فان دائرة الحصار كبيرة ضعيفة الاطراف .. والمواقع القوية موجودة فقط في جهات (ماريتو) و (اولارا)و (كازابليانو) و (سان ميشيل) .

– نعم .. نعم .. نحن نعرف هذا .

– في وسع قوة عظيمة ان تزحف تحت جنح الظلام من الباب الشمالي فتعبر نهر (تنارو) عند اقصاة ، ثم تلتف حول (بافوني) وتطبق عليها قبل ان يفطن اليها أحد . ويمكنكم تحطيم القوة الموجودة بها قبل وصول اية نجدة اليها واعتقال فاشينو المرابط فيها وكبار قواده . وعندها يصبح محاصروكم جسماً بلا رأس .

خيم الصمت . وجلس فيناتي في مكانه يلعق شفتيه الغليظتين . ثم هتف وهو ينظر إلى ضابطه :

– يا آلهي ! يا آلهي ؟ .

فأطبق الضابط شفتيه واوما برأسه .. وقال :

– هذه خطة طيبة ..

فهتف بيبو : طيبة . ليس هناك افضل منها في ورطتكم الحالية انكم بها تنتزعون النصر من الهزيمة .

سرى اليهم اعتداده وثقته .. وقال فيناتي :

– وما هي قوة فاشينو في (بافوني) ! . هل هي معروفة.

– حوالي خمسمائة رجل .. لا أكثر .. وفي وسعكم بنصف هذه القوة ان تتغلبوا عليهم اذا باغتموهم .

– لن استهدف لمجازفات لا مبرر لهـا .. سأذهب بستمائة رجل ..

فقال الضابط الواقف خلفه : هل استقر رأيـك اذن يا سيدي . .

– وهل هناك غير ذلك يا روكو ؟ .

فجعل روكو يعبث بلحيته ، ثم قال :

– يجب ان تنجح هذه الحملة .. وهي تكون أضمن نجاحاً لو تسنى اتمام حملة التطويق دون ان يستنجدوا .

فتطوع بيبو بابداء رأيه .. فقال :

– نعم .. هذه هي الصعوبة .. لكن يمكن التغلب عليها . وهنا مجال خدمتي لكم . ففي وسعي ان اسير بقوتي المؤلفة من

ثلاثمائة رجل حتى استقر خلف بافوني .. وفي الساعـة المتفق عليها ازحف إلى الامام على مؤخرة فاشينو ، واهاجمه من الخلف حين تهاجمونه انتم من الامام ، وهكذا يتم تطويقه .

فقال روكو : لكن كيف نميز بعضنا بعضاً في الظلام ؟ فقد تلتحم قوتك وقواتنا وكلتاهما تحسب الأخرى جنود فاشينو ..

سيرتدي جنودي قمصانهم فوق الدروع اذا فعل جنودكم المثل .

فقال فيناتي : يا الهي .. انك فكرت في كل شيء ! .

هذه طريقتي ، وهذا هو السر في نجاحي .

حزم فيناتي أمره .. واستقر رأيه .. وقال :

– ليكن هجومنا هذه الليلة اذن .. لا خير في التأخير .. ولن تحتمله معداتنا .. هل يمكن الاعتماد عليك يا كابتن (فارفالا).

فأجاب بيبو في يسر : اذا اتفقنا .. فلست اعمل حباً في المغامرة .

فقال فيناتي وقد لاحت على محياه سيماء الجـد : وما هي شروطك .

– استخدامي وفرقتي سنة كاملة بأجر شهري قدره خمسة عشر القاً من الفلورينات .

فهتف فيناتي : يا اله السموات !!! هل هذا كل ما تطلب ! وضحك بازدراء .. فقال بيبو :

– لك يا سيدي ان ترفض .

– بل عليك ان تكون معقولا خمسة عشر الفا ! . وفوق ذلك فلست في حاجة إلى استخدام فرقتك لمدة عام .

– لكنني أفضل الانتفاع بمزايا الخدمة هذه المدة .. وفيها فائدة لك ايضاً .. فأنك ستخدم باخلاص .

فقال فيناتي بثبات : اني امنحك عشرة آلاف من الفلورينات لاجل تنفيذ هذه الخطة .

فقال بيبو في مثل ثباته : سأتمنى لك صباحاً طيباً .. فأعرف قيمتي .

فقال فيناتي بلهجة الشكوى : انك تستغل حاجتي .

– انك تنسى دينك لي حين جازفت بحياتي في المجيء إلى هنا .

وقد امضوا نصف ساعة يتساومون في الأجر .. ولو كان (فيناتي) في حاجة إلى دليل للتثبت من صدق بيبو فقد وجد هذا الدليل في تشبثه بشروطه واصراره على مطالبه .

واخيراً نزل (فيناتي) على شروط بيبو وان كان اضمر في نفسه الاخلال بها متى استتب له النصر . وقد حصل بيبو على تعهد كتابي بمطالبه وتناول طعام الافطار مع (فيناتي) . ثم استأذن منه وانسل من المدينة لكي يبلغ كاردينال ديزانا ما

استقر عليه الرأي ، ولكي يستعد للقيام بدوره .

وقد راح بيبو يسير راضياً باسم الثغر حتى وصل بلا سابق انذار إلى مقر قيادة فاشينو في (بافوني) وكان فاشينو يتناول طعام الغداء مع قواده الثلاثة وزوجته . وما كاد يرى القادم حتى قال له :

– لقد تأخرت يا بلاريون ! . اننا كنا ننتظر حضورك للوقوف على أخبارك . هل جرت محاولة في الليلة الماضية لنقل المؤن عبر الخطوط .

فاجاب بلاريون : نعم .

– وهل اعتقلتم القافلة .

– نعم . ومع ذلك استطاعت القافلة بما عليها من مؤونة ان تصل إلى داخل (الساندريا) .

تطلعوا اليه في عجب . وضحك كارمانيولا في ازدراء . وقال :

– وكيف يا سيدي . ويحدث هذا بالرغم من تفاخرك باعتقال القافلة .

– بالرغم من ذلك . والواقع اني قدت القافلة بنفسي إلى داخل (الساندريا) .

خيم صمت رهيب جلس بلاريون في خلاله . وقال فاشينو

في ذهول .

هل تقرر انك كنت في (الساندريا) .

– في نفس قلعتها . وقد أفطرت اليوم مع السيد (فيناتي).

فقال فاشينو باستياء : هل لك ان تفصح .

وقد فعل بلاريون . وسرد عليهم مغامراته .

الفصل الثالث عشر

غزوة ليلية

في وسع القارىء ان يتنبأ بالنتيجة في غير عناء..

ففي تلك الليلة خرج (فيناتي) من المدينة على رأس ستمائة من جنوده لابسين القمصان فوق دروعهم ، وما كادوا يقتربون من قرية (بافولي) حتى وقعوا في كمين كان بمثابة القبر لهم .. ولم تدم هذه المعركة سوى نصف ساعة جرت فيها الدماء أنهاراً.

وكان بلاريون قد لبس درعه ولكنه لم يشترك اشتراكاً فعلياً في هذه المعمعة اذ كان ينفر من أعمال القوة والعنف ، وهو ما كان بعض المناصرين له بعده نقطة الضعف في صفاته .. واكتفى بالوقوف عن كثب موقف المتفرج ..

على انه مع ذلك أتيح له قرب نهاية المعركة واندحار جيش (فيناتي) ان يضرب ضربة واحدة كانت موفقة حقاً .. فقد

رأى فارساً من الأعداء مغطى بالدروع من قمة رأسه الى أخمص قدميه يقتحم طريقه بين طائفة من الجنود رغبة في الافلات .. وفيما هو يمر بالقرب من بلاريون الذي كان محتجباً في الظلام أهوى هذا على رأسه بهراوته الضخمة ، فسقط الفارس المدرع عن جواده .. لكن بلاريون سارع اليه ونزع عن رأسه الغطاء الفولاذي حتى يستطيع ان يتنفس ، وبذلك رد اليه صوابه .. وكانت تقاليد الفروسية تقضي بأن يكون هذا العدو أسير بلاريون الخاص .

ثم انجلت المعركة أخيراً عن هزيمة جيش (فيناتي) هزيمة ساحقة واقتيد الاسرى الذين كان عددهم يناهز الخمسمائة الى قرية (بافولي) ، وضم بلاريون اليهم أسيره في حراسة اثنين من (البرغنديين) .

ووقف بلاريون وأسيره وجهاً لوجه في مقر فاشينو .. وما كاد بلاريون يرى هذا الوجه الأسمر ذا الشفتين الغليظتين حتى قهقه ضاحكاً . فصاح الأسير الذي كان (فيناتي) نفسه :

ـ أيها الكلب الغادر القذر !.. لقد بعت نفسك لأكثر الشارين ثمناً .. لو كنت أعرف انك انت آسري لذبحت نفسي على ان أسلم لك ..

وراح فاشينو وكارمانيولا يحدقان في هذا الأسير بعد ان عرفاه ، بينما قال له بلاريون :

ـ أنا لم أعرض نفسي أبداً للبيع يا سيدي .. فقد كنت

رسول سيدي فاشينو حين سعيت اليك هذا اليوم في (الساندريا) .

تطلع فيناتي اليه في ذهول ، وهتف :

ـ كانت خدعة !. ولم تكن (فارفالا) الضابط المأجور؟.

ـ اني ادعى بلاريون .

ـ هو اذن اسم مخلوق مخادع !. بل غشاش غادر أجاز على كذبه وزيفه !.

ثم التفت الى فاشينو الذي كان يبتسم ، وأردف :

ـ هل كذلك تقاتل يا فاشينو ؟.

فقال فاشينو ضاحكاً : رحماك يا ربي !. هل تتظاهر بالفروسية أيها اللص السلاب النهاب ؟. أحسب عليه هذه الشتائم يا بلاريون حين تحدد فديته .. فهو أسيرك .. ولو كان أسيري لما رضيت فدية له أقل مائة الف جنيه .. وعلى أهل (لودي) ان يقدموا هذه الفدية ، حتى يعلموا جزاء ايواء مثل هذا الطاغية .

قدحت عينا الأسير شرراً .. وقال وهو ينظر الى فاشينو في حقد شديد :

ـ ادع الله يا فاشينو الا تقع أسيراً في يدي .

لكنهم سخروا منه جميعاً ودعى الحراس الى تجريده من درعه وسجنه في احدى الغرف بعد تقييده .

والتفت كارمانيولا الى فاشينو الذي تخلف عن شهود

المعركة لمرهق ساقه ، وافضى اليه بالنتيجة ، ثم قال له في ختام حديثه :

– وهكذا ترى يا سيدي ان هذه المهمة قد انتهت نهـــاية موفقة .

فقال بلاريون ساخراً : انتهت .. ؟ . لكن هذه الخطوة لم تكن سوى مجرد تمهيد .

– تمهيد لاي شيء ؟

– للاستيلاء على « الساندريا » .. فيجب أن نأخذها قبيـل طلوع النهار .

حدق فيه كلاهما . وقال فاشينو باستياء :

انك لم تذكر شيئاً عن ذلك .

– كنت اظن هذا أمراً ظاهراً .. مـا الذي يدعوني إلى استدراج « فينائي » مع جيش مؤلف من ستمائة جندي لابسين القمصان فوق دروعهم في مثل هذه الغزوة الليلية ، حيث تنضم اليهم قوة مؤلفة من ثلاثمائة جندي بقيادة الضابط « فارفالا » في مثل لباسهم ؟ . ان تسعمائة جندي لابسين القمصان فوق الدروع سيعودون ظافرين إلى « الساندريا » في ضوء الفجر الشاحب .. وسيفتح الحراس المبتهجون أبواب المدينة لاستقبالهم .

فقال فاشينو بعد ان عالج الكلام : هل تنوى ذلك حقاً ؟.

– اليس هذه هي النتيجة المنطقية ؟ . أحرى بك يا سيدى ان تفطر في « الساندريا » .

راح فاشينو القائد العظيم يتطلع في رهبة ويهر إلى هذا الحدث المبتدىء في فنون الحرب . وقال له :

– يا الهي ! . جدير بمثلك أن يرتفع إلى القمة ! . انك أبديت في ترافو بطولة وتضحية .. لكن .

فقال بلاريون : ان الوقت من ذهب .. لنتكلم في التفاصيل.

على ان التفاصيل محدودة .. فقد وقف الجيش كله على قدم الاستعداد .. وعرض فاشينو على بلاريون قيادة مـا أسماه (القمصان البيضاء) ، يعززه كارمانيولا على رأس بـاقي الجيش. على ان بلاريون رأى ان يتولى كارمانيولا قيـادة (القمصان البيضاء) فقال فاشينو :

– سيكون لهذه الفرقة شرف الموقف .. وقد اسندت اليك هذا الشرف لانه من حقك ..

فقال بلاريون : دع السيد كارمانيولا ينل هذا الشرف .لانه اذا دار قتال كان من نصيب القمصان الزائفة متى اكتشف حراس الباب زيفها .. وهذا شأن يفهمه كارمانيولا خيراً مني .

فقال كارمانيولا : هذا كرم منك يا سيدى .

فتطلع اليه بلاريون بحدة ليرى ان كان يسخر منه .. بيد انه رأى أمارات الاخلاص مرتسمة على وجهه لأول مرة .

وقد تم كل شيء كما رسمه بلاريون .

فقد رأى الحراس المعتقلون أسوار المدينة جيشـاً يبدو من بابها في ضوء الفجر الشاحب مرتدياً جنوده قمصاناً بيضـــاء

حسبوهم جنود فيناتي . فادليت القنطرة فوق الخندق وفتح الباب ودلف الجيش إلى داخل المدينة يهتف له الحراس هتافاً داوياً ما لبث ان انقلب فجأة صراخا ملؤه الغضب والخوف .. فانه ما كاد الفاتحون يستقرون على أرض المدينة حتى اعملوا هراواتهم في الحراس واحتلوا البـاب واتضحت الحقيقة بعد فوات الاوان .

وفيما كانت طلائع النهار تبدد جيوش الظلام أقبلت كتائب فاشينو فدخلت المدينة دخول الظافرين وما كادت تمضي ساعتان حتى استتب السكون في ارجاء المدينة وافطر فاشينو في قلعتها الحصينة يحف به قواده كما وعده بلاريون .

الفصل الرابع عشر

فراق

أصبح فاشينو حاكماً لمدينة « الساندريا » بحق الفتح ، ولأنه لم يعد يدين بالولاء لأحد من اسرة فسكونتي بعد ان قلب لهدوق ميلان ظهر المجن وجاهره بالعداء ، ولذلك غدا فاشينو يعمل لحسابه الخاص .

أما بلاريون فقد طبقت شهرتـه الآفاق وذاع صيته في انحاء ايطاليـا بعد هذا البلاء الذي أبلاه في « ترافو » وفي « الساندريا » .

لكن هذا المجد الذي ناله بلاريون لم يكن من شأنه إلا ان يزيد الكونتس بياتريس تودداً اليه وسعياً لاغوائـه . وعبثاً حاول بلاريون ان يردها إلى الصواب ويذكرها بما لفاشينو عليها من واجب الوفاء . فهي وان كفت عن التوده اليه فقد تنكرت

له وأفهمته صراحة أنه لا مفر له من ترك خدمة زوجها حتى لا يكون احتكاكه اليومي بها مذلا لكرامتها جارحاً لشعورها بعد ان اعرض عنها هذا الاعراض الاليم !..

ومما زاد حرج بلاريون ان فاشينو نفسه قد ساوره الشك وأصبح يتأذى بوجوده قرب زوجته .. فآلم بلاريون ان يكون شقي في خلق فاشينو ذلك الذي أنقذ حياته ومهد له سبيل المجد والشهرة وأظله برعايته حتى أصبح ينعم فيما هو ينعم فيه الآن .

وهكذا استقر عزم بلاريون على الابتعاد عن فاشينو .. وبرر هذا العزم برغبته في تكوين جيش لنفسه خاصة .. فلم تخف نيته عن فاشينو .. لكنه لا يمانع في ذهابه ، وان حمد له في نفسه هذا الموقف النبيل .. واستمر الرأي على ان يقصد بلاريون الى مقاطعة (كانتون) في سويسرا لتكوين الجيش المنشود ، وان يرافقه ستوفل حتى يكون واسطة بينه وبين مواطنيه ..

وفي صباح اليوم الذي حدد لرحيل بلاريون اتفق مع مالي في (الساندريا) على الاستيلاء على فدية (فيناتي) في مقابل صكوك تصرف قيمتها نقداً في (برن) بسويسرا لبلاريون ثم ذهب لوداع فاشينو ولكي يدلي اليه بمشروعه امضى ليله ساهراً يفكر فيه .. ومع ان بلاريون لم يكن مرتاح الضمير لهذا المشروع الذي يفضي إلى غايات غير التي يزعمها فقد كان له عزاء

في انه وان استخدم فاشينو أداة لتحقيق مطامعه الخفية فهو في نفس الوقت يعين فاشينو على ادراك أغراضه العاجلة ..

وقد كشف بلاريون عن مشروعه قائلا :

– هناك خدمة ربما كان في وسعي ان اقوم بها لك في طريقي . فأنت تضاعف جيشك وهو ما يقتضيك نفقات طائلة تنوء بها مواردك فهل فكرت في العدول عن هذه الوسيلة والاستعاضة عنها بالمحالفات ؟

– ومع من اتحالف ؟.

فأجاب بلاريون بهدوء : هناك تيودور الوصي على عرش (مونتفيرا) .

– والثمن الذي يطلبه لقاء هذا التحالف ؟.

– هو ثمن يسير .. فان للمركيز تيودور مطامع مثلي . هو يطمع في الاستيلاء على مدينة (فرسلي) والسيادة على مدينة جنوا والاستيلاء على فرسيلي ممكن في حرب يوم تشهرها على ميلان .

– هذا ممكن .. وفي وسعنا استفتاح الحرب باحتلال هذه المدينة لكن جنوا ..

فقال بلاريون : في الوسع ارجاء مسألة جنوا حتى تتحقق أغراضك انت .. وبهذه الشروط يمكن ان يتم التحالف بينك وبين (مونتفيرا) .

– يا الهي !. انت مسرف في التفاؤل ؟.

– كلا .. لكني أعلم ما لا تعلم .. فأنا أعلم مثلاً ان تيودور ذهب الى ميلان بدعوة من جابريللو ماريا لعقد تحالف مع الدوق جيان ماريا وفاقاً لهذه الشروط .. فلما رفض جيان ماريا قبولها عاد تيودور ناقماً . وهو رجل حقود فوق انه طماع . رفي وسعك الآن بهذا المشروع ان تلهب في صدره كلتا العاطفتين.

اقتنع فاشينو بهذا الرأي .. وجاهر باقتناعه .. فقال بلاريون :

– هل أعرج في طريقي على امارة (مونتفيرا) وأفاوض المركيز تيودور باسمك في عقد هذه المحالفة ؟.

– انك تطوقني بجميل اذا وفقت ..

– وذلك ما سيقوله تيودور حين أعرض عليه هذا المشروع.

– انت واسع الآمال .

– بل انا واثق .. وقد بلغ من ثقتي اني سأشترط على تيودور ان يوفد اليك الأمير جيان جياكومو لكي يكون يارك ..

– فأنت في حاجة إلى من يشتغل هذه الوظيفة مكاني .

– وماذا أفعل بجيان جياكومو بحق الشيطان !.

– اجعل منه رجلاً .. واستبقه رهينة وضماناً بين يديك .. ان تيودور يتقدم في السن .. والنوازل محتملة في الحروب .. وإذا لقي حتفه قبل ان تتحقق أغراضك وجدت أمير (مونتفيرا) بجانبك لاستمرار المحالفة ..

– يا الهي ! انت بعيد النظر ! .

– اني أطمع ان أرى شيئاً ذات يوم .. لقد قلت لك ان المركيز تيودور رجل ذو مطامع .. والذين هم من هذا الطراز يكرهون أن يتخلوا عن السلطان والنفوذ ... وقد لا يمضي عام حتى يبلغ الأمير جيان جيا كومو سن الرشد .. فاشمله برعايتك متى جاء اليك .

فقال فاشينو وهو ينفخ شدقيه :

– أنت تحيرني أحياناً .. فانك تسوق عشرات المسائل في وقت واحد .. وليست آراؤك بالمتسرقة أحياناً .

فقال بلاريون وهو يتنهد : ان آرائي تتلون دائماً بالاشياء التي تدور حولها .

الفصل الخامس عشر

عودة

وصل بلاريون الى مدينة « كازالي » على رأس فصيلة من الفرسان السويسريين قوامها خمسون رجلاً يتقدمهم ستوفل .. وقد استقبله المركيز تيودور بالاحترام الجدير بمقامه .

فقد كان المركيز في ميلان حين وثب بلاريون إلى المجد والشهرة ، ولم يشأ إلا ان يذكر ذلك وحده في ربيب فاشينو كاني ، كما تسامع كذلك بكيفية الاستيلاء على مدينة (الساندريا) ، وكان تقديره عظيماً لشاب بمثل هذه المواهب العسكرية الباهرة .. وفوق هذا فأنه لم يشر بكلمة واحدة إلى ما كان من مغامرات بلاريون في (كازالي) منذ سنة . بل رحب به في دهاء وصرح بأن بلاطه قد تشرف بحضور هذه الشخصية العظيمة النابهة ،

وتمنى ان يجد بلاريون في هدوء (مونتفيرا) ما يزيل عناء المعارك .. فقال بلاريون :

قد تجد في حضوري مكدر لهذا الهدوء يا سيدي المركيز .. فاني جئت اليك موفداً في مهمة من قبل والدي الكونت بياندراتي .

– وما غايتها ؟ .

ان الاغراض التي لم توفق في تحقيقها في ميلان قد تحقق في (الساندريا) .

تنفس تيودور من اعماق رئتيه . وقال :

لا بأس ! . لا بأس ! . سنتكلم في هذا الشأن بعد الغداء . انتلجهتهم براحتك أولاً .

لكن بلاريون أيقن ان هذا الثعلب الماكر قد فطن إلى الغاية المقصودة ، وانه يلتمس الوقت للتفكير والموازنة قبل المناقشة في المشروع .

وقد تناول بلاريون طعام الغداء في حفل جمع بين المركيز تيودور ، والاميرة فاليريا ، والأمير جيان جيا كومو ، ومربيه كورساريو ، ونديمه كاسانروشيو .. ورغم انقضاء عام على خروج بلاريون من (كازالي) فانه لم ير تبدلاً يذكر سوى ان الامير الشاب قد زاد انخطاطه الصحي وتبرمه بسبب هذه الحياة الفاسدة التي رسمتها له مطامع عمه الوصي على عرشه ، كما ان

www.liilas.com

الاميرة فاليريا قد باتت شاحبة اللون بادية الهم والانقباض . على انها ما كادت ترى بلاريون امامها فجأة حتى فارقها شحوب لونها وتوهجت عيناها حنقاً لرؤية هذا الذى تعرفه كاذباً مخادعاً قاتلاً والذى كانت تعزو إلى غدره وخيانته تهدم آمالها ! . بيد ان المركيز سارع إلى تقديمه وإلى ذكر الدور الذي لعبه في الاستيلاء على (الساندريا) ، لكنها قالت تعليقاً على القصة :

– هي خداع في خداع !.

فقال بلاريون في غير خجل : هو ذاك .

لكن تيودور قال معترضاً : بل هي اكثر من ذلك . فليس في تاريخ الحروب خطة تفوق هذه في براعة التفكير وجرأة التنفيذ .

واستمر الحديث اثناء الطعام دائراً حول هذه الشؤون . حتى اذا فرغوا منه انسحبت الأميرة فاليريا والامير الفتى واستأذن كاستروشيو في الذهاب ، ثم صرف المركيز تيودور المربي كورساريو واستبقى بلاريون في حضرته قائلاً :

– لن ابقيك طويلاً يا سيدى ، فأنت في حاجة إلى الراحة لكن لا بأس ان تخبرني قبل انصرافك بهذا الذى يقترحه السيد فاشينو ، حتى يتسنى لي ان ادرسه قبل ان نتكلم فيه تفصيلاً هذا المساء ..

فقال بلاريون وقد ادرك انه يوشك ان يدخل في مساجلة يحشد فيها كل دهائه :

سأتكلم اذن بايجاز ، انك ترغب يا سيدى في استرداد (فرسيلي) واستعادة السيادة على جنوا ، ولا تستطيع وحدك ان تحقق هذه الاغراض ، ومن ناحية اخرى فان والدى فاشينو قد اشهر الحرب على دوق ميلان ، وهو من القوة بحيث يستطيع ان يقف موقف المدافع ، لكنه يريد ان يتحول إلى الهجوم لكي يطرد (مالاتستا) من ميلان ويفرض شروطه على الدوق ، وان محالفة تعقد بينكما كفيلة بتحقيق الأغراض المشتركة التي يسعى كلاكما اليها ..

راح تيودور يسير في الغرفة قبل ان يدلي بالجواب ، ثم واجه بلاريون قائلاً :

وما هي الضمانات التي يقدمها الكونت بياندراتي .

فقال بلاريون بهدوء دون ان يكشف عما جاش في نفسه من الطرب :

ضمانات ؟ ..

– نعم الضمانات التي تكفل وفاء بنصيبه متى قمت بنصيبي.

فابتسم بلاريون ابتسامة بارعة ، وقال :

– ان فاشينو يقترح استفتاح الحملة بتمليككك (فرسيلي) .. وهذه الخطوة افضل من أي ضمان .. فهي دفعة سلفاً ..

لمعت عينا المركيز ، بيد انه تغلب على شعوره ، وقال بغير انفعال :

– دفعة سلفاً ؟ .. وبعد ذلك ؟ ..

لكي تعزز موقفك ، يجب توجيه الخطوة التالية ضد ميلان نفسها ..

أطرق المركيز ، ثم قال في رصانة :

ـ سأفكر في الأمر ، وسأعقد المجلس الخصوص للتشاور معي ، ومهما تكن النتيجة ، فاني تشرفت بهذا الاقتراح ..

وهنا تظاهر المركيز بالهدوء والبعد عن التلهف والانفعال . ثم دعا الوصيف وعهد اليه بضيفه ، واستأذن منه في رقة وتلطف .

الفصل السادس عشر

رهينة

احد بلاريون يتنزه في حدائق القصر في المساء برفقة كورساريو .. ورأى الاميرة فاليريا تتجول بدورها مع وصيفتيها فانتهز فرصة استئذان كورساريو لبعض شأنه ، ودنا من الاميرة وانحنى امامها ، فقالت له ببرود :

ـ لا أظن يا سيدى اني دعوتك .

فلم يستاء بلاريون ، بل قال لها :

ـ سيدتي .. اني اضحي بكل شيء لاقناعك بأني خادمك .

فقالت له : ان اساليبك لا تختلف يا سيدى .. ولكن لم تختلف ؟ . اليست هي الاساليب التي جاءتك بالشهرة ؟ .

ـ ارجو رجاء حارا ان تبتعدي قليلا عن وصيفتيك .. ان

السيد كورساريو قد يعود بين لحظة وأخرى .

ترددت فاليريا قليلا .. وما لبثت ان اشارت إلى وصيفتيها بالتخلف عنها .. فقال بلاريون فورا :

– اني احب ان ادلي اليك بكلمة لا اقصد بها الا التحذير حتى لا يدفعك الشك في امري إلى الانزعاج والتوجس مما ارجو ان افعله .. واذا نجحت في المهمة التي جئت لاجلها فان شقيقك سيرسل غدا أو بعد غد لكي يبقى في رعـــاية فاشينو في (الساندريا) .

امتقع وجهها حين سمعت هذا الكلام ، وقالت :

– رباه ! . ماذا تريد الآن ؟ . أي شر تدبر ؟ .

– اني اريد ان اقصيه عن متناول يد المركـيز تيودور ، واضعه في مكان امين حتى يحين الوقت لجلوسه على العرش .. هذه هي الغاية التي اسعى إلى تحقيقها ..

– انت تسعى اليها ؟. انت ؟ . هذا شرك ! . شرك لكي. وكفت عن اتمام جملتها وهي في اشد حالات الجزع والرعب. فقال بلاريون :

– اذا كانت هذه نيتي فلم اصارحك بها ؟ . ان علمك بهـــا سلفاً قد يفسدها .. اني افعل هذا لخدمتك .. وقد جئت إلى هنا لاقترح عقد محالفة بين فاشينو وبـين (مونتفيرا) لسببين : الأول لتحقيق اغراض فاشينو والثاني لضمان القضاء على المركيز

تيودور نهائياً وقد تؤجل هذه الغاية إلى حين .. لكنها آتيـــة لا ريب فيها .. ولكن، اجعل شقيقك بأمن في فترة الانتظار فسأجعل من شروط المحالفة ان ينتقل الامير جيان جيا كومو إلى (الساندريا) كرهينة عند فاشينو .

– آه ! . فقد بدأت الآن افهم اغراضك ! .

– يعني انك بدأت تسيئين الفهـم .. اقنعت فاشينو بان الامير جيا كومو سيكون رهينة بين يديه ضماناً لاخلاص المركيز تيودور وسأحمل المركيز على الاقتناع بان ذلك هو غرضنا الوحيد لكن الغاية الحقيقية هي ما صرحت لك : لجعل أخيك في مأمن من كل سوء وان فاشينو سيلقنه كل ما يجب ان يلقن لأمير .. وسيحمله على نبذ العادات والنزوات التي تسير به الآن في طريق العار والهلاك .. سيدتي ارجو ان تصدقيني وتثقي بحسن نيتي .

فاه بلاريون بهذا الكلام في اخـــلاص وحرارة .. فهتفت الاميرة في الم :

اصدقك ؟ . نعم ! .. ان ماضيـــك معي يدفعني إلى تصديقك ! وهو اصدق شاهد على اخلاصك ! . انك ما وصلت الى هذه المكانة الحالية الا بالتضليل والخداع والخيانة ؟ . ومع ذلك تطلب الي ان اصدقك ! ما الذي .. ما الذي يدفعك إلى عمل كهذا ؟ . واي مغنم تطمع ان تناله ؟ .

تطلع بلاريون اليها في الم وشقاء . وقال .

– اني اسألك يا سيدتي للمرة الثانية : مـــاذا يدعوني إلى ابلاغك نيتي اذا كنت أرمي بهذا العمل إلى ايذاء شقيقك ؟ .

– ولم تبلغني اطلاقاً ؟ .

– لكي ازيل من نفسك أسباب القلق والازعاج اذا نجحت في ابعاده عن المركيز .. لكي تعرفي صدق رغبتي في خدمتك اذا قدر لهذه المحاولة ان تخفق .

وقفت الاميرة صامتة مضطربة لا تدري مـــاذا تعتقد .. وكانت متلهفة للوثوق بكلام بلاريون .. لكنها كانت تحجم كلما تذكرت ما تعرفه عن ماضيه .

وفي هذة اللحظة عن لها كورساريو عائداً ادراجه .. ففغمغم بلاريون بهدوء :

– اذا قدر لي ان اعيش يا سيدتي فسوف تسألينني الصفح عن رأيك القاسي في شخصي .

والتفت بلاريون إلى كورساريو واستأنف معه الحديث في شؤون كافية ببنما انضمت الوصيفتان إلى الاميرة وابتعدت الثلاث في أرجاء الحديقة .

وبعد انتهاء السهرة دعا المركيز بلاريون إلى غرفته الخاصة لمناقشته في شروط المحالفة المقترحة .. فقـــال له انه فكر في الموضوع وانتهى إلى قبول عقد المحالفة .. وكان يتـوقع ان يجد من بلاريون اغتباطـــاً وسروراً ... بيد انه خيب ظنه إذ قال له :

– لا ريب ان سموك تتكلم بموافقة مجلسك التام .

فقال المركيز عابساً : مجلسي ؟ .

ان سيدي فاشينو يحب ازاء خطورة الموضوع ان تنال هذه المحالفة موافقة « المجلس المخصوص » في (مونتفيرا) لكي لا يكون هناك مجال للتراجع .

فقال تيودور في شيء من البرود :

– في هذه الحالة يحسن بك يا سيدي ان تحضر بنفسك امام المجلس غداً لكي تطمئن .

والواقع ان ذلك هو عين ما كان بلاريون يسعى اليـه . ولم يتكلم بعد ذلك في الموضوع هذة الليلة بعد ان فاز بالغرض الذي لم يفطن اليه المركيز تيودور .

وفي اليوم التالي مثل بلاريون أمـام « المجلس المخصوص » المؤلف من خمسة اعضاء من نبلاء « مونتفيرا » على رأسهم رجل وقور يدعى المركيز كاريتو ، فبسط لهم المركيز تيودور شروط المحالفة ، وتناقش الاعضاء فيما تستطيـع « مونتفيرا » ان تقدمه من المساعدة في هذا الشأن ، ثم ابلـغ المجلس بلاريون استعداده لعقد المحالفة وشكره للكونت بياندراتي على التفكير فيها .

وبعد ذلك وقف بلاريون بينهم وهنأ أعضاء المجلس بهـــذا القرار بأسلوب أثار حماستهم . فقرر لهم ان استرداد فرسيـــلي والسيطرة على جنوا لن يكونا الا فاتحة لما ما بعدها . فانه يمكن

متى تمت هذه الخطوة ، غزو المنطقة الفاصلة بين « مونتفيرا » العليا والسفلى حتى تصبح الامارة وحدة متصلة الاجزاء .. حتى اذا تعززت بهذه الخطوة لا يبقى ما يمنعها من بسط نفوذها الشمالية إلى جبال الألب والجنوبية حتى البحر .. وبذلك تتحقق احلامها القديمة وتقف على قدم المساواة مع حكومة « سافوي » المجاورة ، وبوجود ميلان المتداعية عند حدودها الشرقية تستطيع « مونتفيرا » ان تظفر بالسيادة في ايطاليا الشمالية ..

استهوت هذه الكلمة انتباههم .. وما كاد بلاريون يعود إلى مكانه حتى راح اعضاء المجلس يلحون في عقد المحالفة وهكذا تولى بعض الكتاب صياغة موادها مادة مادة بينما كان المركيز تيودور وأعضاء المجلس يغبطون انفسهم لاعتقادهم انهم فازوا بنصيب الأسد بهذه المحالفة

على انه ما كاد يتم تحرير الوثائق حتى القى بلاريون كلمة نزلت كالماء البارد على حماستهم إذ قال :

— والآن لم يبقى إلا موضوع الضمان المطلوب منكم لفاشينو.

— الضمان ! . أي ضمان ؟ .

— الضمان على ان « مونتفيرا » ستفي بالتزامها من المشروع .

فقال المركيز تيودور : ويحك يا سيدي ! . هل يساورك الشك في شرفنا ؟ .

— ليست المسألة مسألة شرف يا صاحب السمو ، بل هي صفقة ينبغي تحديد شروطها في غير لبس دفعاً لكل تنازع من

الجانبين في المستقبل .. وهل ذكر كلمة « الضمان » مما يسوء سموكم ؟ . كلا بلا ريب .. لانكم أول من أستخدمها فيما بيننا .

تطلع أعضاء المجلس إلى الوصي على العرش .. فتذكر المركيز وشعر بالحرج .. بينما استطرد بلاريون :

لقد سألتني سموك بالأمس عن ماهية الضمان الذي يقدمه فاشينو دليلاً على وفائه بالتزامه .. فلم أصرح محتجاً بان هذا مما يمس الشرف ، بل قررت فوراً ان احتلال (فرسيلي) العاجل سيكون ضمانكم المنشود .. فكيف اذن يا سادتي تحتجون اذا سألتكم بلسان سيدي شيئاً مماثلاً أو كفالة مادية تضمن انكم تزحفون معه على ميلان في الوقت الذي يراه ، متى تم لكم احتلال فرسيلي ؟ .

فقال المركيز تيودور في تبرم :

— لكن اذا لم نفعل هذا فلن يتيسر لنا غزو جنوا .

— لو لم تفعلوا لبقيت فرسيلي في ايديكم رغم ذلك ، وهو أمر لا يستهان به .

ضايقهم هذا التطور بعد ان سار كل شيء سيرا مرضياً منذ البداية ثم تدخل أحدهم قائلا :

— ألا يحسن يا صاحب السمو ان تعرف ما هية الضمان الذي يرغب الكونت بياندراتي في الحصول عليه ؟ .

أقر تيودور هذا السؤال .. وتكلم بلاريون قائلا :

– هذا الضمان هو في شكل رهينة تكفي كافة الاحتمالات.. فانه اذا اتفق مثلا ان ولى الأمير جيان جياكومو لن يجلس على العرش قبل اتمام المشروعات ، فقد لا يبعد الا يميل إلى التقيد باتفاقاتكم .. ولو لم يكن إلا هذا السبب لكفى هذا وحده مبررا لكي يطلب فاشينو ان يعهد اليه بامير (مونتفيرا) كرهينة للوفاء بالتزامات هذه المحالفة .

انتفض المركيز تيودور بعنف ، على انه لم يلبث ان تغلب على انفعاله وجلس في مكانه شاحب الوجه يفكر ويدبر .

أما أعضاء المجلس فقد ناهضوا هذا المطلب العجيب وقرروا انهم لا يسلمون به بحال .. ثم التفت أحدهم إلى المركيز قائلا :

– ان سموك لم تقل كلمة بهذا الشأن ؟ .

فتململ تيودور في مكانه وقال برصانة :

– أنا مشدوه مثلكم.. وانتم قد أعربتم عن رأيي بما قلتموه.

فقال بلاريون وهو يبتسم متكلفاً الحيرة والعجب :

– أسمحوا لي يا سادتي ان أقرر لكم انفعالكم هذا يملأني عجباً ! . وكان سيدي فاشينو يتوقع ان يجد منكم هذا الاقتراح ترحيباً .

فهتف المركيز كاريتو :

– ان اختبار الحياة في بلاط ومعسكر أجنبيين هو من أهم العناصر في تثقيف أمير مستقبل .. وهذه الفرصة قد أتيحت الآن إلى الأمير جيان جياكومو على نحو تتحقق به غايتان في

وقت واحد .

وضع هذا التعليل اليسير حدا لمعارضتهم ، وهتف أحدهم :

– لكن اذا ناله سوء وهو بين يدي فاشينو .

– هل تحسبون يا سادتي ان فاشينو لا يجزع من هذه النتيجة جزعكم . هل تظنون انه يقصر في اتخاذ الاجراءات الكفيلة بالمحافظة على سلامة الأمير وضمان راحته .

خيل إلى بلاريون انهم اطمأنوا بعض الاطمئنان إلى كلامه ، فاستطرد :

– لكن ما دمتم تبدون مثل هذه المعارضة القوية فما أحسب ان فاشينو يحب ان أمعن في الحاحي .. ويبقى بعد ذلك يا سادتي ان تدلو برأي آخر .

فقال كاريتو بلهجة الاسف : ان الوقت سيضيع في ابلاغ الأمر للكونت بياندراتي .

وبدا من هيئة الجميع واشاراتهم ان التلهف قد عاودهم لعقد هذه المحالفة التي تفيد منها (مونتفيرا) الشيء الكثير .. فقال بلاريون :

– ان فاشينو قد خولني تفويضاً مطلقاً..وليس امامنا وقتا لكي نضيعه .. واذا لم تتم هذه المحالفة غدا فان التعليمات التي لدي تبيح لي ان أواصل طريقي إلى مقاطعة (كانتون) لايجاد الجنود الذي نحتاج اليهم .

تبادل الجميع النظرات حائرين .. ثم قال المركيز تيودور :

ـ لا يسعنا تقديم هذا الضمان .

فقال المركيز كاريتو : ومع ذلك .

لكن تيودور قاطعه في غير رفق : لا يوجد (مع ذلك) في موضوع كهذا ! ..

راح أعضاء المجلس يتبادلون النظرات للمرة الثانية .. وأخذ القلق يساورهم .. فقد رأوا هذه المزايا العظيمة التي صورها لهم بلاريون تذوب فجأة أمام أعينهم وتتلاشى كالسراب .. وادرك بلاريون ما يدور برؤوسهم .. فنهض قائلا :

ـ لا ريب انكم تفضلون في موضوع دقيق كتدبير الضمان ان تتداولوا في غير حضوري.

وانحنى أمامهم مستأذناً في الانصراف ، ثم وقف وقال :

ـ وانه ليكون من المؤسف حقاً ان تحقق مثل هذه المحالفة المنشودة من الجانبين والتي تبشر (مونتفيرا) بخير كثير لغير سبب معقول .. سأكون رهن اشارتكم يا سادتي .

وانحنى بلاريون للمرة الثانية وخرج . على انه لم يكد يبتعد خطوات حتى نفذ إلى سمعه ضجيج حوارهم . فابتسم راضياً وهو يمضي إلى غرفته ، وهنأ نفسه مغتبطاً لانه أرجأ كل كلام في موضوع الوهينة حتى وقف أمام المجلس . إذ لو كان تفوه بكلمة واحدة في هذا الشأن في حديثه التمهيدي مع المركيز تيودور لكان نصيبه الطرد فورا .. وهو الآن قد أوقع المركيز

في حيرة واضطراب شديدين وتركه عرضة لافتضاح مآربه .

على انه دعي بعد نحو ساعة امام المجلس حيث أبلغ الموافقة على هذا الشرط ، فادرك ان المركيز تيودور قد اضطر مكرها تحت ضغط أعضاء المجلس إلى القبول حرصا على مصالح الدولة ، وحتى لا يتهم في أغراضه .. غير انه أشترط ان يرافق الأمير كورساريو ونديمه كاستروشيو وطبيب وبعض الخدم ، فلم يستطع بلاريون ان يرفض إذ لم يجد تعليلا يبرر به هذا الرفض .

بيد ان بلاريون بعث برسالة إلى فاشينو ابلغه فيها فيما أبلغ من توفيقه إلى عقد المحالفة وشروطها ، ان مربي الامير ونديمه هما صنيعة المركيز تيودور ورسولاه لافساد الأمير ، وأوصاه ان يأخذهما بالشدة وان يعمل على انقاذ الأمير من براثنهما وان يشرف على تقويم انحرافه فيسدي بذلك خدمة انسانية فيغير طباع الأمير كلها .. ثم اختتم رسالته بهذه الفقرات :

« ويؤسفني ان أضطر إلى تكدير صفوك بهذه الشؤون الثانوية . لكني أعتقد انك لن تضيق بهذا الثمن في سبيل تحالف يضع تحت تصرفك جيشا قوامه ستة آلاف من المحاربين .. وستتهيأ لك الآن القوة الكافية لمواجهة ذلك الدوق الجاحد ومعاقبته بما يستحق .

« أرجو ان تبعث الي باوامرك مع (فينزل) حامل هذه الرسالة الذي سيرافق الامير وحاشيته غدا إلى « الساندريا » ،

والذى سيعود الى الاجتماع بي في « لوسرن » .. وساغـــادر « كازالي » في الصباح حاملا ببرحها الامير جيان جياكومو قاصدا إلى الساندريا .

« اقبل باجلال يدي سيدتي الكونتس .. وادعو الله مخلصا ان يشملك بعنايته وان يهيء لك اسباب التوفيق » .

« خادمكم بلاريون »

القسم الثالث

الفصل الاول

بلاريون القائد

مضى عام على افتراق بلاريون عن فاشينو الف لنفسه في خلاله جيشاً قوامه الف ومائتان من الجنود السويسريين الاشداء البواسل واشتبك في كثير من المعارك لحساب كثير من الامراء فأصاب فيها من النصر ما جعل اسمه يتردد على كل لسان في ايطاليا .

وفيما كان بلاريون مقيماً في مدينة فلورنسا حيث كان في خدمة أميرها تلقى الرسالة التالية من فاشينو :

« ولدي العزيز

« انا في حاجة اليك .. فتعال الي على عجل مع كل جندي تستطيع اجتلابه .. ان الدوق جيان ماريا قد ضج من طغيان (مالاتستا) واستعان عليه بالفرنسيين ، فجاء « بوشيكو » نائب ملك فرنسا إلى ميلان على رأس ستة آلاف من الجنود ، وعين حاكماً للمدينة .. وإذا لم ابادر بتوجيه ضربتي قبل ان توجه الي الضربة انتقلت ميلان الى حكم الفرنسيين نهائياً ، ان شعب ميلان نفسه يستنجد بي .. ومن نكد الحظ ان داء السرطان الذي برئت منه منذ بضعة اشهر قد عاودني الآن وأصبح ينغص علي حياتي .. وهو ينتابني كلما كنت في حاجة الى قوتي . ابعث الي بكلمة مع حامل هذه الرسالة لابلاغي انك قادم على جناح السرعة » .

لم يتردد بلاريون في تلبية الدعوة .. ومن حسن الحظ ان تعاقده مع جمهورية فلورنسا قد انتهى منذ ايام قلائل وكانت المفاوضات تدور لتجديده .. فاعتذر بلاريون واستأذن مودعاً ، وما هي إلا اربعة ايام حتى وصل الى (الساندريا) على رأس جيشه فاستقبله فاشينو بالعناق والتقبيل ..

وقد وصل بلاريون في الوقت الذي كان فاشينو مجتمعاً بقواده وحليفه المركيز تيودور الذي جاء من فرسيلي ، لتقرير خطة الهجوم على ميلان .. وقال بلاريون لفاشينو وهو يسير معه الى حيث كان المجلس الحربي منعقداً في قلعة (الساندريا) .

— اذن فالمركيز تيودور هنا ؟.

— بل هو مغتبط بالحضور .. وقد كان دائم التململ في فرسيلي وجعل يلح علي لمساعدته في استعادة جنوا .. لكني أوقفته عند حده فأنا لا أثق بهذا المركيز تيودور ولا آمن ان افي بالتزاماتي من المحالفة قبل ان يقوم هو بشيء من نصيبه فيها .. هو ثعلب ماكر ومخلوق غادر .

فقال بلاريون : وكيف حال الامير جيان جياكومو ؟

فأجاب فاشينو ضاحكاً : انك لن تعرفه . فقد نضج عقله واستقامت أخلاقه .. وهو يفكر في لبس مسوح الرهبان .

فحدق فيه بلاريون مشدوهاً وقال : لكن كيف .. كيف وفقت الى هذا ؟.

— بطرد مربيه ونديمه وباقي أفراد حاشيته وتخليصه من براثنهم فقد أسكره كاستروشيو وكورساريو ذات ليلة حتى الثمل ، فأرجعتها إلى تيودور مع رسالة طلبت اليه فيها ان يعاقبها بما يستحقان لسوء استغلالهما الثقة التي وضعت في شخصيهما ، كما أبلغته اني سأعهد بالأمير الى من أوليهم ثقتي .. ويرى ماذا يفعل صاحبنا المركيز الا ان يكتب الي شاكراً ؟. وهل كان في وسعه غير ذلك اتضحك ؟. الحق ان هذا مضحك مطرب .. وقد ضحكت وطربت انا ايضاً ، وان كان ذلك لم يمنعني من ان اوالي السهر على الامير .

ولما وصل كلاهما إلى غرفة المجلس الحربي المنعقد حيث

اجتمع المركيز تيودور، وكارمانيولا، وكونجزهوفن، وجيازوني تروتا، والأمير جيان جياكومو، نهض الجميع مرحبين واستقبلوا بلاريون استقبالاً طيباً .. وقد دهش بلاريون من هذا التطور الذي طرأ على الامير الفتى فقد اكتسبت هيئته سمات الجد والرصانة وفارقته ظواهر الرخاوة والانحلال التي كادت تودي به ، حتى كاد بلاريون ينكره . لكنه حمد في نفسه لفاشينو هذا الجميل .

وجلس بلاريون بينهم فأطلعوه على القرار الذي انتهوا اليه . وكان يتلخص في ان ينضم بلاريون بجيشه المكون من الف ومائتين من الجنود الى جيش من (مونتفيرا) قوامه ثلاثة آلاف بعد ترك حامية كافية في فرسيلي .. وبانضمام هذين الجيشين الى جيش فاشينو يتقدم هذا القائد الكبير الى الميدان على رأس قوة كبيرة تعدادها ثمانية آلاف من الجنود ..

ثم استفسر بلاريون عن خطة الغزو .. فاذا هي تتلخص في الزحف على ميلان بهذا الجيش الضخم لاستعادتها .. فما كاد بلاريون يقف على هذه الخطة حتى تأمل قليلاً ، ثم قال :

– هناك جانب لم تفكروا فيه .. فان بوشيكو قد جمع في يده اكثر مما يستطيع الاحتفاظ به .. ذلك انه باحتلاله ميلان التي يناهض أهلها السيادة الفرنسية قد سحب كل قواته من جنوا التي يمقته سكانها لاسرافه في البطش والقسوة .. وانكم بهذه الخطة تخلطون الأمور خلطاً . فقد وضعتم خطتكم على اساس

ان ميلان هي العدو ، في حين ان غريمكم الحقيقي هو بوشيكو .. لكي يتحصن هذا القائد في ناحية فقد كشف نفسه من ناحية ثانية فلم توجهون ضربتكم الى قلبه الذي يحميه بدرعه ، وفي وسعكم ان توجهوها إلى رأسه الذي لا تحميه حتى خوذة ؟.

لم يجب احد .. وجعلوا ينظرون اليه في طلب الجواب ، فقال :

– ازحفوا اذن ، لا على ميلان ، بل على جنوا التي تركها بحمقه مكشوفة لكل هجوم .. ولن يبدي اهل جنوا أنفسهم أية مقاومة ويمكنكم ان تستولوا على المدينة دون اراقة دماء .

حبذ المركيز تيودور هذه الخطه بحرارة .. لكن فاشينو الذي ساءه انيحقق كل مطامع تيودورقبل ان يفي هذا بالتزاماته قاطعه قائلا :

– صبراً !. صبراً !. كيف يمكننا الاستيلاء على ميلان من اخضاع جنوا ؟.

فأجاب بلاريون : ان الاستيلاء على جنوا سيستدرج بوشيكو من معقله الحصين في ميلان إلى العراء وستتوزع قواته لاضطراره إلى ترك حامية في ميلان لاستبقاء سيطرته عليها في أثناء غيابه.

بدت هذه الخطة بارعة حين تأملها فاشينو حتى لقد تغلب على نفوره من مساعدة المركيز تيودور على تحقيق أطماعه في هذه المرحلة . على انه أعرب عن هذا النفور لبلاريون حين انفرد به فيما بعد ، فأجابه الشاب :

– انك تفعل هذا لنفسك ، لا لأجـــل تيودور .. أما فيما يختص بهذا المركيز ، فلست في حاجـة الى ان تنفس عليـه هذا التوفيق .. فانه لن يدوم طويـلا .. ان يوم الحساب قريب ..

تطلع فاشينو الى ربيبه مجفلا ، وقال في لهجة العجب :

– ما هذا يا ولدي ؟. مـاذا بينك وبين المركيز تيودور ؟.

– ليس بيني وبينه سوى علمي انه مخلوق شرير ..

– إذا كان في نيتك ان تكون نقمة على الأشرار فلن تفرغ من ذلك طوال حياتك .. هذه شهامة محضة !.

فقال بلاريون وهو يخلد التفكير : لك ان تنعتها بهذا الاسم.

الفصل الثاني

موقعة (نوفي)

زحف فاشينو على جنوا بجيش يقارب عدده تسعة آلاف من الجنود ، فخضعت له المدينة بغير ادنى مقاومة خوفاً من النهب والسلب وتم الاتفاق على ان يبقى فاشينو بجيشه خارجها بشرط ان يعلن اهلها ولاءهم للمركيز تيودور ويرضوا به اميراً عليهم ..

وكذلك دخل المركيز هذه المدينة دخول الظافرين على رأس قوة من رجاله قوامها خمسمائة جندي ، فرحب به سكانها ونعتوه باسم منقذهم ، بينما ارتد فاشينو بجيشه الى جهة (نوفي) انتظاراً لقدوم بوشيكو وجيشه ..

ولم يطل به الانتظار حقاً .. فان أنباء استيلائه على جنوا ما كادت تبلغ سمع بوشيكو حتى أرغى وأزبد وأسرع بجيشه

فوصل به مكدوداً الى السهول القريبة من (نوفي) .. ولم ينتظر لكي يتدبر موقفه ويقدر خطواته .. فقد علم ان فاشينو انتقل إلى جنوا حين أقعده الداء وعهد بالقيادة إلى ربيبه بلاريون .. ولذا قرر بوشيكو ان يضرب بسرعة قبل ان يتعافى فاشينو ويعود لملاقاته .

تقدم بوشيكو على رأس جيشه وحمل حملة عنيفة على قلب العدو المؤلف من جيش بلاريون .. فلم تصمد هذه القوة أمام حملته وإنما جعلت تتقهقر أمامه وان لم يفطن الى ان تقهقرها كان منظماً .. بل لم ينتبه الفرنسيون في نشوة الحماسة التي استولت عليهم إلى الشرك الذي ينصب لهم .. فبينما كان قلب الجيش يتقهقر بانتظام صمد الجناحان اللذان كانا بقيادة كارمانيولا وتروتا ولم يتزحزحا شبراً واحداً .. حتى إذا حانت اللحظة المناسبة أبدى بلاريون اشارة متفقاً عليها .. فاذا قلب الجيش المتقهقر المؤلف من جنوده يصمد للفرنسيين المنخدعين ويحمل عليهم ، وإذا الجناحان يطبقان عليهم ويضربان في غير رحمة ، حتى ترنح الفرنسيون وأدرك بوشيكو غلطته بعد فوات الأوان .. وعبثاً حاول ان يدفع عن جيشه هذه الكارثة .. فقد كانت الهزيمة ساحقة ولم يجد بوشيكو الا ان يهرب وينجو بحياته ، ومن بقي من جنوده ألقى سلاحه وسلم .

وقد صدق بلاريون حين قال ان بوشيكو جمع في يده أكثر

مما يستطيع الاحتفاظ لدعوة الدوق جيان ماريا .. وهو في هذه المعركة لم يفقد فقط ميلان ، بل فقد جنوا كذلك .

وفي الليلة التالية أقيمت وليمة عشاء ابتهاجاً بهذا النصر في قصر الحاكم في جنوا حيث اتخذ المركيز تيودور مقره وحيث أقام فاشينو مؤقتاً حتى يشفى من مرضه .. وشهد هذه الوليمة المركيز تيودور وفاشينو الذي راح يتوكأ على عكازين وسائر قواده ، كما شهدها بلاريون بطل الساعة الذي كان يتقبل تهاني هذا الجمع الحافل في تواضع ورقة .

وقد انتحى المركيز تيودور بالقائد الشاب واقترح عليه ان يستخدمه وجيشه لقاء أجر ضخم يفوق ما كان يناله في فلورنسا. فلم يدهش بلاريون من هذا العرض وأيقن ان هذا الرجل الجشع بات يرمي إلى مضاعفة قواته حتى يتحلل من التزاماته نحو فاشينو بعد ان تحققت أطماعه .. كما تبين له ان المركيز توهم مغامراً نفعياً لا يتوخى إلا فائدته الخاصة ولا يبالي شرفاً ولا ولاء .

وقد راح بلاريون يحاربه بما عهد فيه من الدهاء وسعة الحيلة حتى وقف على أغراضه الجشعة .. فاذا هو يرمي إلى غزو أقاليم واسعة لم يكن بد لكي يسيطر عليها ان يستولي على (الساندريا) وطائفة أخرى من البلدان التي تؤلف دوقية ميلان .. كما يتعين عليه ان يشهر الحرب على فاشينو الذي يضطر لقضاء البقية الباقية من حياته في مناهضة هذا الطامع ورد غزواته .

والواقع ان بلاريون كان من اللباقة والدهاء بحيث أنخدع

المركيز تيودور أو أمير جنـــوا في أمره . ووعد ان يمنحه اقطاعيات واسعة ويخلع عليه لقب كونت (آمتي) اذا تعاقد بلاريون معه على تحقيق هذا المشروع الضخم .. واستقر الرأي على ان يجتمعا في الغد اجتماعاً ثانياً لتحرير الوثائق وتبـــادل التصديق عليها ..

وفي صباح اليوم التالي تم هذا الاجـــتماع في غرفة المركيز تيودور الخاصة بحضور كاتب واثنين من أعيـــان (مونتفيرا) وستوفل الذي كان بحكم نيابته عن بلاريون في قيادة جيشه مهتماً بهذا التعاقد .

وقرأ الـكاتب شروط العقد فأقرها بلاريون جميعاً .. ثم تلا نص المنحة التي تخلع على بلاريون لقب كونت (آمتي) وتمنحه سلفاً اقطاعيات واسعة . وقدمت هذه البراءة إلى بـــلاريون ممهورة بتوقيـــع المركيز لكي يحتفظ بها ، كما قدمت له وثيقة التعاقد لامضائها فتناولها بلاريون ونظر إلى المركيز قائلاً :

— ان الوثائق معرضة للضياع ،والمسائل التي تتضمنها الوثيقة على جانب كبير من الخطورة .. ولذلك قد جئت معي بشاهد يستطيـع وقت الضرورة ان يكون شاهـــداً على التزاماتك يا سيدي المركيز .

فقال المركيز تيودور هابساً : دع اذن السيد ستوفل يفحص الوثيقة بنفسه .

— لست أعني السيد ستوفل يا صاحب السمو . فاني أفضل

شاهداً آخر منتظراً في الغرفة المجاورة .

وتقدم بلاريون فوراً إلى البـــاب يتبعه المركيز بنظراته في دهشة ، وما كاد يفتحه حتى بدا فاشينو في المدخل مستنداً على عكازه ، تلوح على وجهه دلال الرصانة .

وتقدم فاشينو إلى داخل الغرفة وتناول الوثيقة التي قدمها اليه بلاريون . وأعقب ذلك صمت مروع لم يتمالك المركيز تيودور ان بدده آخر الأمر صائحاً .

— أيها المخادع الشقي ! . أيها المنافق الوضيع المغرور ! . كان يجدر بي الا أثق بك وان أحذر تقلبك وتذبذبك ! يا لك من ثعلب قذر ! .

فقال بلاريون : مخادع ! . منـافق ! . ثعلب ! . لكن لم هذه الأوصاف الضخمة ؟ . هل كان يمكن ان أوقع على هـــذا العقد قبل ان أحصل على موافقة والدي وقبوله ؟ .

— أتسخر مني أيها الكلب الدنيء ؟ .

رفع فاشينو نظرة على الوثيقة ، وقال في صرامة وقـــد توهجت عيناه :

فكر في وصف أقبح من هذا يا سيدي لكي أرده اليك ! . ان الأوصاف التي أستخدمتها حتى الآن لا تفي بغرضي ! .

لم يستطع تيودور ان يكبح جماح غضبه وحنقه ، فوثب على فاشينو كالثور الهائج ، بيد انه الفى بلاريون يعارض طريقه ويرمقه بنظراته الساخرة وقد أمتدت يده إلى خنجره خلف

www.liilas.com/vb3 ARAMAHEEN

ظهره ، وقال له :

– هل لنا ان نلزم الهدوء ؟ . يوجد فريق من رجـــالي في الغرفة المجاورة اذا أبيت الا العنف .

ارتد تيودور إلى مكانه تقدح عيناه شررا . بينما ضحك فاشينو وقال بازدراء :

– يا لك من خـــادر خائن ! . اني ملكتك « فرسيلي » ، وجعلتك أمير جنوا ، قبل ان أطلب اليك عملا واحدا في سبيلي فاذا بك تتأهب لاستغلال هذه القوة ضدي ! . هل تريد ان تطردني من « الساندريا » هل ترمي إلى أغواء أفضـــل قوادي لكي يشهر سلاحه في وجهي ؟ . لو كان بلاريون جاحدا ناكرا للجميل مثلك ، ولو لم يكن وفيا مخلصا وأنت ترميه بالخداع والنفاق ، لجهلت كل شيء عن هذا التآمر حتى تقع الضربة .. لكنني قد عرفتك الآن وعرفت طبيعتك الغادرة وأقسم بالله ان أيامك باتت معدودة ! . هل تدبر الحرب ضد فاشينو كاني ؟ . فان الحرب والله آتية اليك !.

وقف تيودور شاحب الوجه بين صاحبيه دون ان ينبس بكلمة ، بينما تأمله فاشينو بازدراء وقال له :

– اني ما كنت أصدق هذا لو لم أقرأ هذه الوثائق بنفسي.

ثم رد الوثائق إلى بلاريون وأستطرد :

– أعدها اليه ولتذهب من هنا .. فان مشهد هـــذا المخلوق يثير غصة في حلقي .

وخرج من الغرفة دون ان يفوه بكلمة أخرى .

أما بلاريون فقد تمهل قليلا وجعل يمزق الوثائق اربا .. ثم القاها على الأرض والحنى ساخراً وهم بالخروج مع ستوفل . فلم يتمالك تيودور ان قال له :

– ايها المخادع المتقلب ! . مـــا هو الثمن الذي أخذته من فاشينو عربوناً لهذا الغدر ؟ .

فوقف بلاريون في مدخل الغرفة ، وأجاب :

– لا ثمن ولا جعل يا سيدي المركيز ، بل شرط واحـــد حصلت عليه من فاشينو ، ان يعمل على انصاف ابن اخيك الأمير جيان جياكومو حالما يسوي مسألة ميلان ، وان يضع حـــدا لاغتصابك .

تطلع اليه تيودور مشدوهاً ، وقال في ذهول :

– وماذا يعنيك من أمر جيان جياكومو يا شقي ؟ .

– ان أمره يهمني ، والا لما بذلت من الجهد لجعله في يأمن منك باصراري على ان يكون رهينة .. اني كنت أعمل لاجله أكثر مما تظن يا صاحب السمو .

– كنت تعمل لاجله ؟ . أنت ؟ . ولحساب من ؟ ..

فتنهد بلاريون وأجاب : لا مفر ان تحسبني تاجرا ، حتى وان كنت أعمل لمجرد الخير والشهامة .

ورافق ستوفل إلى الخارج .

الفصل الثالث

عودة فاشينو

في نفس هذا اليوم غادرت فرقة من الفرسان مدينة جنوا قاصدة إلى (نوفي) حيث يعسكر جيش فاشينو، وكانت تتوسطها محفة تقل فاشينو نفسه الذي راح يفكر في جحود الانسان ونكرانه للجميل .

وبعد ثلاثة أيام واصل الجيش الزحف متجهاً إلى ميلان ، انه استقر عند بلدة (فيفانو) قبل اجتياح المدينة ، فان فاشينو صمم على دخولها ممتطياً جواده شاهرا رمحه ، وكانت حالته الصحية تتدرج إلى التحسن تحت رعاية طبيب معروف من أهل جنوا يدعى (مومبيلي) .

على انه لم يكد يمضي أسبوع حتى أخذ الرسل يتوافدون على معسكر فاشينو داعينه لغزو ميلان والمناداة دوقاً عليها .

وكان آخر الوافدين هو الدوق جيان ماريا نفسه ، ولا ريب انه لم يقدم على هذه الخطوة الا بعد ان تبين سوء موقفه وعجزه المطبق عن المقاومة وقد جاء برفقة (ديللاتوري) مستشار السوء ونديمه المستهتر (لوناتي) .

وحاول الدوق أول الأمر ان يتظاهر بالغضب وراح يرمي فاشينو بالتمرد والخروج عليه .. بيد ان فاشينو اخذه بالشدة وطرده من حضرته فلم يجد جيان ماريا الا ان يعود اليه في اليوم التالي مسالماً وابدى استعداده للسماح لفاشينو بدخول ميلان بغير مقاومة من جانبه ، واستعادة منصبه السابق كحاكم للمدينة . لكن فاشينو اشترط في حزم واصرار ان يبقى في هذا المنصب ثلاثة أعوام وان يقسم له أعضاء (المجلس الأعظم) يمين الطاعة والولاء ، وان تسلم اليه قلعة (بوتاجيوفيا) ، وان يطرد كافة انصار الحزب البابوي من مناصب الدوقية التي احتلوها ، كما اشترط فاشينو ان ينفي « ديللاتوري » و « لوناتي » من ميلان نهائياً .

وطبيعي ان جيان ماريا رفض التسليم بالشرط الأخير واقسم حانقاً ان هذه محاولة غادرة لتجريده من كافة أصدقائه .. وهكذا أنصرف للمرة الثانية غاضباً .. بيد انه لم تمض ثلاثة أسابيع حتى نزل الدوق على هذه الشروط وسلم بها تسليماً مطلقاً .

وهكذا دخل فاشينو ميلان على رأس جانب كبير من

جيشه لاستعادة منصبه السابق معتزما ان يستأثر هذه المرة بالسلطة المطلقة والنفوذ الشامل .. واستقبله الشعب استقبالاً حماسيا جديرا بمنقذه من جور الدوق وجبروته

اما الدوق جيان ماريا فقد انزوى في قصر « برولييتو » بغير نصير من أفراد الحزب البابوي يواسيه ويخفف عنه ، وراح ينصت إلى هتاف الشعب لفاشينو وهو يعض أصابعه غيظا ويرتعد حقدا وغضباً .

وما كاد الأمر يستتب لفاشينو حتى أنبرى لاخضاع الخوارج ممن كانوا يهددون الدوقية برفع راية العصيان بين حين وآخر . وكان آخرهم (فيليبو ماريا فسكونتي) أمير (بافيا) وشقيق الدوق نفسه .. فانه انتهز فرصة انهماك فاشينو في تأديب العصاة ونادى بنفسه زعيما للحزب الامبراطوري في شمال ايطاليا وشرع في تأليف جيش يحقق به هذه الغاية بحد السلاح. فزحف فاشينو على قاعدة حكمه في (بافيا) واستولى عليها عنوة وعين نفسه حاكما لاملاك فيليبو وملأ مناصب الحكم بأتباعه وجرده من كل سلطة . فلم يجد فيليبو الا ان ينزوي في قصره في (بافيا) حيث كان من هواة العزلة والاخلاد إلى المطالعة ، وترك فاشينو لشأنه طالما ابتعد عن التدخل في شؤون الحكم .

ثم جعل فاشينو من « بافيا » قاعدة لجيوشه واقام في قلعتها العظيمة وجاء اليها بزوجته الكونتس من « الساندريا » .. وجاءت الاميرة فاليريا برفقة الكونتس لكي تنضم إلى شقيقها

الأمير جيان جياكومو الذي لازم فاشينو طوال هذا الزمن ، ولكي تستحث فاشينو على تحقيق وعيده امها المغتصب وتهديده له حين غادر قصره في جنوا .

لكن فاشينو كان لديه شؤون اخرى تشغله في ذلك الوقت ، وصرح بانه لا مفر للمركيز تيودور من انتظار دوره .

اما بلاريون فقد عينه فاشينو نائبا في ميلان ، وحمل الدوق جيان ماريا على الانعام عليه بلقب كونت « جاني » تعويضا لما فقده مما كان يوشك ان يناله من هبة المركيز تيودور حين عرض عليه لقب كونت « آستي » كما حمل مجلس ميلان على التعاقد مع جيش بلاريون لمدة عامين بمرتب قدره ثلاثون الفاً من الفلورينات كل شهر

الفصل الرابع

العدالة

اقبل الشتاء .. وفيا كان فاشينو منهمكاً في حصار مدينة (برجامو) التي تحصن فيها (مالاتستا) عاوده الداء واشتدت عليه وطأته هذه المرة بعد ان كان قد استرد صحته ولم يعد في حاجة الى رعايـــة الطبيب (مومبيلي) الذي دعاه الدوق جيان ماريا ليكون طبيبه الخاص ، وهكذا لم يجـــد بداً من العودة الى « بافيا » تاركاً قيادة الجيوش الى بلاريون .. وأرسل في استدعاء الطبيب .

على انه ما كاد يمضي اسبوع حتى جاء إلى معسكر بلاريون سوار « برجامو » فارس يكاد يقتله الاعيـــاء ، والتمس بلاريون فوراً ، فلما مثل بين يديه عرف فيه بلاريون

(جيوفاني بوستارلا) الذي سعى فيا مضى إلى فاشينو مستنجداً من جور الدوق جيان ماريا حين قلب لفاشينو ظهر المجن واقصاه عن منصب حاكم ميلان ، كا مر بالقـارىء في الفصول السالفة .

فليس من عجب اذن اذا توجس بلاريون هذه المرة حين أقبل هذا الرسول وتوسم وراء قدومه الفجائي أنباء سيئة .. والواقع ان جيوفاني ما كاد يستقر به المقام حتى قال وهو ممتقع الوجه :

– اني جئت بأنباء سيئة يا سيدي الكونت ..

فقال بلاريون : هذا دأبك .. وتلك شيمتك !.

فحدق فيه جيوفاني ، ثم قال مبتهـلا : علي بالشراب !.. رباه !. ما أشد ظمأي !. اني جئت من (بافيا) الى هنا دون ان أقف الا مرة واحدة لابدال الجواد ..

فقال بلاريون مشفقاً : من (بافيا) ؟.

على انه تمالك وأمر للقادم بالشراب .. ثم سأله :

– ماذا حدث في (بافيا) ؟.

– لا شيء في (بافيا) .. لا شيء بعـد .. اني ركبت إلى (بافيا) لانذار فاشينو بما هو حادث في ميلان .. لكن فاشينو .. هو مريض .. وهو لا يستطيع ان يفعل شيئـاً لو أراد .. ولذا جئت اليك ..

ثم مال في مقعده الى الامام ، والقى قنبلته قائلا :

– ان (ديللا توري) عاد الى ميلان ، بدعوة من جيان ماريا ..

انتظر بلاريون .. ولما لم يزد الرسول شيئاً ، قال له :

– حسناً .. هل هذا كل شيء ؟.

– كل شيء ؟: هل تستخف بالنبأ الى هذا الحد ؟ ألا تعرف ان هذا البابوي اللعين الذي نفاه فاشينو وقد كان يجدر به ان يشنقـــه ، كان هو سبب المصائب والارزاء التي ألمت بفاشينو وبالامبراطوريين من أهـل ميلان ؟. ألا تدرك ان عودته تنذر بالشر ؟.

– وماذا يستطيع ان يفعل ؟. بل ماذا يستطيع جيان ماريا ان يفعل .. ان اجنحتهم جميعاً قد قصت .

فقال جيوفاني وهو ينهض انفعالا : لقد نبتت لهم أجنحة جديدة ومنذ عودة (ديللا توري) سراً إلى ميلان جعل يوفـد الرسل إلى المركـــيز تيودور و (فيناتي) المنهزم و (استورى فسكونتي) لتأليف جبهة واحدة متحالفة ..

فقال بلاريون ضاحكاً : ليتحالفوا ما شاموا .. إذا أقدموا على هذا العمل الجنوني فان فاشينو سيحطمهم تحطيما متى فرغ من حصار (برجامو) .. لقد نسيت انـه يسيطر الآن على أقوى الجيوش في ايطاليا كلها .

فقال جيوفاني دون ان يفارقه انفعاله : يا الهي ايخيـل الي اني اصغي الى فاشينو نفسه . فهو قد أجـــابني اجابة مبهمة

– اذن ما الذي كلفك مؤونة المجيء الي

– لقد جئت آملا ان ترى ما لم يره .. انك تقدر الامور خير

تقدير وبأن الجيش هو كل شيء .. وقد نسيت ان جيان ماريا شخص غادر ومخلوق حقود ، ومتى توفر الغدر والحقد فلتحذر النتائج ، اي رجاء يبقى لانصار الحزب الامبراطوري في ميلان ، إذا حدث لفاشينو شيء ؟ .

– وما الذي يمكن ان يحدث له ؟.. ما الذى ترمي اليـــه أيها الرجل ؟.

تطلع اليه جيوفاني بنظرات تشف عـن الغضب والرثاء ، وقـال :

– اين (موميلي) ؟.. لم يوجد إلى جانب فاشينو في هذا الوقت الذي يحتاج اليه ؟.. هل تعرف ؟

– لكن اليس هو يجانب فاشينو ؟.. الم يصل بعـــد من ميلان ؟

– يصل ؟.. لم أنسحب أصلا من خدمة فاشينو ؟.. لكي يكون طبيب الدوق الخـــاص .. لكن هذا يا صديقي عذر منحول لحرمان فاشينو من خدماته القيمة .. هل تعرف ان هذا الطبيب لم يعد يراه أحد منذ وصوله إلى ميلان ؟.. بـل هناك إشاعات تقول انه توفى ، وان الدوق قتله

جعل بلاريون يتأمل قليلا ، ثم هز كتفيه وقـــال : ان تصوراتك تخدعك يا جيوفاني .. لو كان جيان ماريا ينوي ان يضرب فاشينو لكان من المحقق ان يلتمس وسيلة اخرى أكثر إيجاباً وجدوى .

– اصارحك ان هذه الخطوة قد تكون تافهة .. لكنها بمثابة عود القش الذي يدل على اتجاه الريح .

فقال بلاريون : قد يكون مـــا تقول . لكن مهما يكن ، فانك لم تخبرني ماذا تريد مني .

– ان تذهب فوراً على رأس قسم كبير من جيشك الى ميلان لوضع حد لنوايا الدوق ، ولمعاقبة (ديللاتوري) .

– لا بد قبل ذلك من أمر فاشينو واذنه .. ان واجبي هنا يا جيوفاني ، ولا أجسر على التهاون فيه .. كما ان ما تشير اليه ليس بالامر العاجل .. ويمكن ارجـــاؤه حتى يتم اخضاع (برجامو) ، ولن يستغرق ذلك طويلا .

– بل قد يطول إلى أمد بعيد .

وعبثاً حاول جيوفاني ان يحمل بلاريون على العدول عن اصراره ولما يئس منه عاد خائباً من حيث جاء .

والواقع ان بلاريون لم ير في هذا المسعى الذي قـــام به جيوفاني سوى محاولة لاستخدامه أداة للثـأر من الدوق الذي اضطهد اسرة (بوسارلا) ونكل بأفرادها تنكيلا .. وما كادت تمضي ثلاثة أيام حتى حسب بلاريون انه وجد مـــا يعزز هذا الرأي .. فقـــد تلقى رسالة بخط الكونتس بياتريس وتوقيع فاشينو تنبئه بحضور الطبيب (مومبيلي) أخيراً إلى (بافيا) إجابة لطلب فاشينو ، وان فاشينو يرجو ان يتعافى قريباً .

وهكذا ضحك بلاريون نمـــا قرره جيوفاني بوسارلا

بشأن ما يشاع عن اغتيال الطبيب مومبيلي ، وسخر من مخاوفه .

على انه ما كادت تمضي ثلاثة أيام أخرى حتى اتجهت أفكار بلاريون اتجاهاً آخر حين جاءته رسالة ثانية بتوقيع الكونتس نفسها هذا نصها :

« ان سيدي الكونت يرجو حضورك فوراً .. وقد بلغ من اشتداد وطأة الداء عليه ان مومبيلي نفسه يئس من شفائه .. لا تتمهل دقيقة واحدة ، وإلا جئت بعد فوات الأوان » .

انقضت هذه الرسالة على بلاريون كالصاعقة ، واغرورقت عيناه بالدموع لمجرد التفكير في فقد هذا الرجل الذي ملأ حبه حنايا قلبه . وسرعان ما استدعى كارمانيولا وعهد اليـه قيادة الجيش وقصد من فوره إلى (بافيا) فلم يستروح لحظة حتى بلغها بعد ثلاث ساعات كلها سير مضن شاق .

وما كاد يبلغ قصر فيليبو ماريا الحصين حتى قصد من فوره إلى غرفة فاشينو الخاصة .. فألفـــاه ممدداً على فراشه جامد الحركة شديد امتقـــاع اللون يكاد يحسبه الناظر في عداد الموتى ، لولا تنفسه المجهد وبريق عينيـه الذي لم تطفئه وطأة العلة .

جثا بلاريون قرب الفراش وتناول اليد الباردة المتثاقلة بين يديه الدافئتين القويتين .. فانحدر الرأس قليلا فوق الوسادة .. وأشرق ذلك الوجه القوي المفضن بابتسامة .. وقـال فاشينو بصوت ضعيف :

– جميل يا بني .. انك لم تضيع وقتاً .. أنا انتهيت .. والواقع ان جسمي قد دب اليه الموت فعلاً .. وقد قال مومبيلي ان السرطان دب إلى قلبي .

تطلع بلاريون .. فرأى الكونتس واقفة قرب الفراش مضطربة وشاهد مومبيلي عند نهاية الفراش .. وبصر بخادم في أقصى الغرفة .

سأل بلاريون الطبيب : هل هو كذلك ؟. الا تجدي براعتك شيئاً في هذا المقام ؟ .

فغمغم مومبيلي : هو بين يدي الله .

فقال فاشينو وهو يومىء بعينيه إلى الطبيب والخادم :

– أرسلهما إلى الخارج . لم يبق الا وقت يسير ، وعندي ما أقوله لك .. يجب ان نعد العدة لما يأتي ..

على انه لم يقل كثيراً .. فقد سأل بلاريون ان يرعى الكونتس ويشملها بعنايته ، وأوصاه خيراً بفليبو ماريا . وقال له :

– حينما توفى جيان جالياز و ترك ابنـاءه في رعايتي .. وسوف القاه نظيف اليدين نقي الصفحة .. اني رعيت الامانة ، وبوتي القيها على عاتقك .. تذكر ابداً ان جيان ماريا هو دوق ميلان ، ومهما يبد لك من عقوقه وجحوده ، فابق على الولاء له لأجلك ان لم يكن لاجله كما تحب ان يواليك فوادك .

ولما أبدى فاشينو حاجته إلى الراحة وصرف بلاريون من جـواره خرج الشاب إلى (بهو المرايا) حيث الفى الطبيب

مومبيلي يذرع الأرض جيئة وذهاباً ، فأرسله إلى فاشينو ، وراح هو يسير في أرجاء البهو غير مكـترث باعيائه وحاجته إلى الراحة .

وبعد نصف ساعة عاد اليه مومبيلي قائلا : هو نائم الآن .. والكونتس بجواره .

فقال بلاريون : هل دنت النهاية ؟ .

– ان نهايته مرهونة بارادة الله . وقد يعيش اياماً .

تطلع بلاريون إلى وجه الطبيب وتفرس فيه لاول مرة منذ حضوره .

كان مومبيلي في الخامسة والثلاثين من عمره .. وقـد عرفه بلاريون قوي البنية موفور الصحة .. بيد انه رآه الآن مهـدم القوى شاحب اللون . متلبد العينين غائر الفـك كأنه شيخ محطم . واذا تكلم خرجت الكلمـات كالفحيح من فم مجرد من اسنانه .

هتف بلاريون : ويحك يا رجل ! . ماذا أصابك ؟ .

انكمش مومبيلي على نفسه ازاء هذا السؤال وتحت وطأة هذه النظرات الفاحصة . وأجاب متلعثماً :

– كنت .. كنت .. كنت مريضاً ! .. مريضاً جداً ! .. ووجودي اليوم على قيد الحياة هو معجزة .

– ولكن اين اسنانك ؟ .

– فقدتها كما ترى ، هذه نتيجة المرض .

استولى على بلاريون شك مروع حين تذكر الاشاعات التي رددها جيوفاني بوساتولا .. فجذب الطبيب إلى النافذة ، وسأله :

– ما اسم هذا المرض ؟ .

لم يكن مومبيلي يتوقع هذا السؤال فقال متلعثماً :

– هو لون من سرطان القدم .

– وايهامك ؟ لم هو معصب ؟ .

إستولى الرعب على مومبيلي . وارتعد فكاه ارتعاداً مؤلماً . وقال :

– هذا ؟ . هو لا شيء . مجرد جرح .

–انزع الضمادة .. انزعها يا رجل ! . احب ان ارى هذا الجرح هل تسمعني ؟ .

لم يسع مومبيلي أخيراً الا ان يمتثل .. فازال الضماد عن ابهام يده اليسرى .. وما كاد بلاريون يرى الابهام مجردا حتى امتقع وجهه واشتد جزعه .. وهتف : انهم كانوا يعذبونك يا حضرة الطبيب ! . ان جبان ماريا أوقع عليك (الصوم) .

كان (الصوم) الذي ابتكره جبان ماريا لونا من العذاب يدوم أربعين يوماً .. في كل يوم ينتزع من الفريسة سن حتى تذهب الاسنان جميعاً .. ثم تنتزع الاظفار . كل يوم ظفرا .. ثم تسمل العينين في يومين متتاليين ثم يقطع اللسان اخيرا .. حتى اذا غدت الضحية صماء بكماء وعجزت عن الادلاء بالاعتراف المنشود رحمها الموت أخيرا ووضع حد لعذابها الهائل الوحشي

اختلجت شفتا مومبيلي اختلاجاً عنيفاً حين سمع كلمات بلاريون .. ونوح في مكانه حتى اسنده الجدار ، بينما كان بلاريون يراقبه بنظرات مرعبة فاحصة .. وقال له أخيرا :

– لاى غرض كان يعذبك ؟ . ماذا كان يريد منك ؟ .

– لم أقل انه عذبني .. هذا غير صحيح ..

– انت لم تقل هذا حقاً .. لكن حالتك تنطق به .. انت لم تقل هذا ، لا تجسر .. لم فعل بك هذا ؟ .

ثم أمسك به من كتفه ، وقال : أجب ! .. إلى أى حد حملك العذاب على الاستسلام ؟ . تكلم !.

جعل الطبيب يتأوه . وتخاذلت ساقاه .. وكاد يغمى عليه لكن بلاريون لم يأخذه بأي رفق .. بل جره جرا وهبط به درجات السلم حتى وصل إلى حيث كان بعض جنود من حرس فاشينو واقفين في الفناء ، فاسلم الطبيب اليهم قائلاً : إلى غرفة العذاب ! .

صرخ مومبيلي صراخاً مؤثرا يفتت الاكباد .. بيد ان بلاريون لم يترفق به .. بل أشار إلى الجنود ان يمضوا به كما امرهم .. فقادوه إلى غرفة حجرية اقيم فيها دولاب التعذيب المروع ، حيث أمرهم بلاريون ان يجردوه من ملابسه ، فامتثل الجنود كارهين ان يقوموا بدور الجلاد ، بينما كان صراخ الطبيب التعس يدوي بين ارجاء هذه الجدران الصماء .

على انه لم يلبث ان تملص من ايدي الجنود والقى بنفسه عند

قدمي بلاريون وراح يقول مستعطفاً :

– أتوسل اليك بكل مقدس يا سيدي ان تشفق علي ! .. لن أحتمل أكثر من هذا ! . اشنقني اذا شئت ، لكن لا تعذبني أكثر مما تعذبت .

تطلع بلاريون إلى هذا التعس متفطر القلب اسى ورحمة ، بيد انه اصطنع القسوة ، وقال :

– ليس عليك الا ان تجيب عن اسئلتي ، فيكون لك ما تريد .. وتشنق بغير عذاب جديد .. لم جعل الدوق يعذبك؟. ولم كف عن التعذيب ؟ . وما هي المطالب التي خضعت لها ؟ .

فراح الطبيب التعس يقول : انك تكهنت بالحقيقة يا سيدي وهذا هو السبب في معاملتك لي على هذا النحو ! . لكن هذا ليس من العدل ، والله على ما أقول شهيد ! . من اكون سوى رجل بائس وقع في شراك مطامع الغير ؟ . اني جعلت اقاوم طالما بقيت لي القوة للمقاومة لكني لم احتمل أكثر مما احتملت. ولو كان الموت هو كل ما توعدوني به لاحتملته صابرا .. أواه يا سيدي ! . لو اني كنت ثريرا لما كان ثمة مجال للتعذيب .. انهم جعلوا يلوحون لي بمكافأة مالية ضخمة تستهوي قلب رجل فقير ، وكان يمكن ان تغنيني مدى الحياة . فلما رفضت توعدوني بالموت اذا لم انفذ ارادتهم الشائنة . وقد تحديت هذا الوعيد وصممت له فسلطوا علي هذا العذاب الطويل الذي ينعته هذا الدوق جحودا والحادا باسم (الصوم) . وجعلوا ينتزعون كل

يوم سناً من فمي بوحشية وعنف لا يوصف حتى ذهبت أسناني جميعاً . وأمضيت اسبوعين ذقت فيهما أهوال الجوع والآلام . ثم أخذوا في نزع أظفاري . بيد انهم ما كادوا ينتزعون ظفر ابهامي اليسرى حتى ذهب احتمالي ولم أعد أطيق اكثر مما أطقت . فخضعت لغرضهم الشائن .

أشار بلاريون إلى الجنود ، فأوقفوا مومبيلي على قدميه . بيد انه لم يجسر على مقابلة نظرات بلاريون المرعبة . وقد قال بلاريون :

– انك خضعت لطلبهم الذي يتلخص في دس السم لفاشينو تحت ستار مداواته . هذا أمر لا ريب فيه . لكن من تعني بقولك (هم) ؟.

– الدوق جيان ماريا . وانطونيو ديللاتوري .

فتذكر بلاريون كلمات جيوفاني بوسارلا حين وصف الدوق بالغدر والحقد . ثم قال الطبيب :

– يا لك من تعس مسكين ، انك تستحق شيئاً من الرحمة . وستنالها بشرط ان تصلح ما أفسدت .

فقال مومبيلي وهو ينتأوه ويلوي يديه يأساً : واأسفاه يا سيدي واأسفاه !. لا ترياق لهذا السم !. هو يسري ببطء ، ولكن فعله محقق !. اشنقني يا سيدي وارحمني !. ان الدوق هددني باستئناف العذاب حتى الموت إذا لم امتثل له . كما أقسم ان

رفضي لن ينقذ مولاي فاشينو الذي يستطيع ان يجـــد وسيلة أخرى للقضاء عليه .

وقف بلاريون يتراوح بين المقت والرثاء . ولكنه لم يفكر في شنق هذا الرجل الذي كان ضحية الدوق الشرير الغادر . ثم قال للجنود في نبرات جامدة :

– أعيدوا اليه ملابسه واحبسوه حتى أرسل في طلبه

وغادر الغرفة الحجرية متماسكاً مفكراً ..

وما كاد يصل إلى الفناء حتى استقر رأيه ، واعتزم ألا يدع جيان ماريا يفلت ولو دفع هو رأسه ثمناً لهذا العزم .

وهكذا عاد بلاريون إلى اعتلاء متن جواده دون ان يظفر بطعام او راحة ، وولى وجهه شطر ميلان مستحثاً جواده على الركض القاتل العنيف .

وكان يحسب انه سيكون أول من ينقل إلى أهل المدينة نبأ المنية التي توشك ان تعاجل فاشينو ا. لكن هذا النبأ سبقه بيوم ونصف ولم يكن يتضمن الاشارة إلى احتضار فاشينو ، بل انه مات حقاً .

وليس في التاريخ مثل أكثر عبرة وأبلغ عظة لمن يأثمون في حق الله والانسان من مثل هذا المصرع الذي أصاب جيان ماريا فسكونتي .

ففي يوم الجمعة السابق ليوم وصول بلاريون إلى ميلان ، يوم الاثنين علم جيان ماريا لا من مومبيلي فقـــط ، بل من أحد الجواسيس الذين بثهم في قصر أخيه فيليبو ، ان السم قد سرى في جسد فاشينو ، وان ساعاته باتت معدودة .. وإذ ذاك طغى الفرح والتشفي على نفس هذا الدوق الوغد وعلى نفسي صاحبيه (ديللاتوري) و(لوناتي) لخلاصهم من سلطان فاشينو الذي كان يسحقهم تحت قدميه كما تسحق الأفاعي الخبيثـة ، ولم يستطع جيان ماريا ان يكتم هذا النبأ في نفسه .. فأذاع في البلاط مساء هذا اليوم ان فاشينو قد قضى نحبه او يعالج سكرات الموت . وتسرب هـذا النبأ إلى خارج البلاط حتى ذاع وشاع في أرجاء المدينة ومـــا من أحد إلا كان يعلم به في صباح السبت التالي . فانقض هذا النبأ على أهل ميلان انقضاض الصاعقـة ، وأثار في قلوبهم من الجزع ما لم يعرفوا مثله منذ ان ولى جيان ماريا امور الدوقية . فقد كان فاشينو في منصب الحاكم الفعلي ، سند الشعب الوحيد ودرعه التي تدفع عنه مظالم الدوق الطاغية وعدوانـه وقساوته ووحشيته . وكانوا إذا غاب فاشينو عنهم يعللون النفس بالآمال ويصبرون على ما يصيبهم مـا دامت عودته اليهم محققة لا ريب فيها . لكن وفاة فاشينو كانت تعني اطلاق العنان لبطش الدوق وتمليكه رقاب الناس يطأها بقدميه . وهكذا اسودت الدنيا أمام أنظارهم وانتهى كل رجاء وانطفأ كل أمل . واستولى اليأس المطبق والقنوط الأليم على كافـــة النفوس في صباح هذا

www.liilas.com/vb3

اليوم .. ولو علم الدوق بحالة الناس لضحك منهم ساخراً دون ان يدري انه متى تملك اليأس النفوس نجحت الكوارث .

وفيما كان سواد الشعب مستسلماً للجزع والذعر كان بين الخاصة من رأى الموقف يستوجب العمل العاجل ، وعلى رأس هؤلاء زعماء الحزب الامبراطوري .. وأخصهم جيوفاني (بوسترلا) الذي استهدفت اسرته لأفدح الوان المصاعب والنكبات على يدي الدوق .

ولم يكن أحد يرتاب في ان الدوق هو وحده المسؤول عن مصرع فاشينو واستقر في اذهان الجميع ان موت فاشينو قد خلق موقفاً لا علاج له إلا بالقضاء على الدوق .. وكان الدوق هو الذي خلق هذا الموقف باغياً عامداً .

وبينما كان الدوق جيان ماريا يغادر مخدعه في صباح يوم الاثنين منتعش الخاطر قاصداً إلى كنيسة القصر الفي طائفة من الاشخاص لا عهد له برؤيتهم في غرفة الجلوس المجاورة .. وقبل ان يصدر الدوق امره بطردهم انقض عليه ثلاثة منهم فأغمد (جيوفاني بوسترلا) خنجره في عنقه صائحاً :

– هذه من (بوسترلا) !.

واستقر خنجران آخران في جنبيه . فسقط مضرجاً بدمائه .

وكانت النتيجة ان بلاريون حين وصل إلى ميلان في مساء

هذا اليوم الفى بابها موصداً في وجهه ، ولم يسمح له بالدخول إلا بعد ان ابان لهم شخصيته .. فأبلغوه ما حدث .

والواقع ان سخريـــة هذا الحادث اثارت في نفسه طرباً مروعا . فقال تعليقا عليه لمن كانوا واقفين حوله :

– يا له من اعمى البصيرة ! انه لم يفكر في انه وهو يسلط على موميبيلي عذابه كان يوقع بنفسه صك موته .

وضحك بلاريون ضحكة رهيبة وواصل سيره إلى داخل المدينة بينما كان السامعون يحسبونه فقد صوابه .

وفيما كان بلاريون يجتاز احد الشوارع المائجة بالناس الفى الرجال جميعا متقلدين سلاحهم .. ورأى باب بيت محطم وقد تناثرت فوقه أشلاء جثة رجل علم من الناس انها بقايا سكارشيا حارس كلاب الدوق الذي مزقه الغوغاء اربا ثم علقوه على باب داره .

ولمـــا بلغ بلاريون قصر (بروليتو) ووصل إلى مدخل الكنيسة شاهد جثة الدوق مضرجة بدمائها دون ان يتقدم حتى أحد من أهل القصر لمؤازرة صاحبها .. ثم عرج بلاريون على الاصطبلات وعرف اربابها بنفسه وطلب اعداد جواد له .. وهكذا في شوارع المدينة التي كانت تزداد اكتظاظا بالجماهير وراح يجتاز للمرة الثانية في نفس اليوم تلك العشرين ميلاً التي تفصل ميلان عن (باقيا) .

وبعد منتصف الليل كان بلاريون في مخدع فيليبو ماريا الذى جلس في فراشه ينظر مشدوها الى هذا القادم المترنح المغطى بالوحول وقال له :

– هذا انت يا سيد بلاريون ؟. لعلك علمت ان فاشينو توفي ، رحمه الله .!

فأجابه صوت أجش بهذه الكلمات : اجل .. وقد انتقم الله له يا مولاي الدوق .

سرت رعدة في جسد فيليبو .. وانفرجت شفتاه عن هذه الكلمات :

– تقول « الدوق » ؟

– ان شقيقك دوق ميلان قد مات يا مولاي .. واصبحت انت دوق ميلان .

لاحت على وجه فيليبودلائل الخوف والحيرة والاضطراب.. وقال :

– دوق ميلان .؟ انا ..؟ وجيان ماريا .. انقول انه مات.

فقال بلاريون في غير مجاملة : ان طائفة من اهل ميلان أرسلوه إلى جهنم في صباح اليوم .

– هتف فيليبو وهو يرتعد : رحماك يا ربي ؟. مات قتيلا ! وانت ؟.

وأومأ بيده نحو بلاريون متهما .. فضحك بلاريون ضحكة غريبة وقال :

– انهم قضوا عليه وهو في طريقه إلى الكنيسة في صباح اليوم وقت وصولي الى هنا من « برجامو » .

فقال فيليبو : هذا ما كنت اتوقعه .. وقد توفي جيان .. مات قتيلا .. رحمه الله !. أخبرني بما حدث .

فقص عليه بلاريون ما يعرفه ، ثم استند إلى ذراع خادم وقصد إلى الغرفة التي أعدت له وهو يجر قدميه جرا .

الفصل الخامس

امير (فالساسينا)

دفن فاشينو كاني في حفل مهيب شهده قواد اللدين دعوا من « برجامو » لوداع قائدهم الراحل الوداع الاخير ، وكان على رأسهم بلاريون كاني ، كونت « جوفاني » ، ربيب فاشينو ، ولم يتخلف سوى « كونجز هوفن » وجيازوني تروتا اللذين بقيا مع الجيش المحاصر « برجامو » .

وعقب اتمام مراسيم الدفن اجتمع القواد في « بهو المرايا » في قصر « بافيا » للوقوف على وصية فاشينو وارشاداته الأخيرة ، وقد تولى فتحها وتلاوتها سكرتير فاشينو بحضور الكونتس التي كانت متشحة بالسواد يعلو وجهها نقاب كثيف .

وقد نصت الوصيـــة على ايلولة اقطاعية (فالساسينا) إلى بلاريون ربيب فاشينو (عربونا على المحبة الابوية ومكافأة له على

ولائه واخلاصه) كما نصت على منح كارمانيولا مبلغاً معيناً من المال .. وفيما عدا ذلك فقد آلت كافة ممتلكاته الواسعة من مدن وأرض وحصون إلى أرملته مضافاً اليها مبلغ ضخم لا يقل عن اربعماية الف من الجنيهـــات . واعرب فاشينو في الوصية عن رغبته في ان يخلفه بلاريون في قيادة جيوشه ، وذكر قواده بما في الاتحاد من قوة ، واوصاهم ان يتحدوا ويتكاتفوا تحت قيادة بلاريون حتى تستتب السكينة في أرجاء الدوقية على الأقل كما اوصاهم جميعاً بارملته وحثهم على العمل لما فيه استقرارها التام في الممتلكات التي خلفها عليها .

ولما تمت تلاوة الوصية نهض القواد واتجهوا إلى الكونتس بباتريس حيث كانت جالسة كتمثال على رأس المائدة .. فجرد كارمانيولا سيفه من غمده بحركة مسرحية كعادته في كل افعاله وعاهدها على ان يعمل في خدمتها كما عمل في عهد زوجها .. واقتدى به سائر القواد وفي جملتهم بلاريون الذي كان يمقت هذه المظاهرات المسرحية ، ولكنه احتذى المثـــال الذي وضعه كارمانيولا مكرهاً .

وقد اعربت لهم الكونتس عن شكرها واغتباطها بهـــذا الولاء ، ثم صرفتهم جميعاً الا بلاريون الذي استبقته في حضرتها وكاشفته ولم يبرد زوجها في قبره ، بحبها القـديم ، وصارحته برغبتها في الاقتران به حتى يشاطرهـــا هذه التركة الضخمة ويعمل على تحقيق حلمها القديم ان تصبح يوما من الايام دوقة .

لكن بلاريون صمد أمام هذا الاغراء ولاء منه لذكرى فاشينو العظيم ميتا كما والاه حيا .. واعتذر لها عن قبول ما تعرضه ، وان قرر انه سيبقى خادمها الأمين .

على ان بلاريون الذي كان قد رأى من فيليبو ماريا ميلا إلى الكونتس اثناء اقامتها في قصر « بافيا » خطر له انه يستطيع استغلال هذا الميل في تحقيق مطامع الكونتس في العظمة والمجد وجعلها دوقة على ميلان كما تشتهي نفسها الجشعة .

فسعى إلى فيليبو ماريا واقنعه بأن من الخير له ان يلتمس عند الكونتس ما هو في حاجة اليه من الأموال لكي يستعين بها في تمكين نفوذه في الدوقية التي تنتظره وانه لا سبيل إلى تحقيق ذلك الا بزواج الكونتس ، وما زال به حتى اقتنع واعتزم ان يفاتح الكونتس في هذا الشأن .

وقد سارت الامور كما قرر بلاريون ودبر ، واقترن فيليبو ماريا الذي لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره بالكونتس بياتريس التي كانت في التاسعة والثلاثين .

كان الطمع وحده هو الذي دفع هذه المرأة وهي بعد فتاة صغيرة للاقتران بفاشينو الذي يكبرها بعشرين عاما .. ولنفس هذا السبب كذلك اقترنت للمرة الثانية بشاب في نصف سنها ، دون ان يدور بخلدها ان فارق السن الذي كانت تنقمه من فاشينو سيكون نقمة عليها بدورها .. لكن بلاريون رأى في النهاية خير عقاب يحل بها جزاء عقوقها وتهافتها على المطامع الدنيوية

الزائلة .

وكان (استوري فسكونتي) في هذه الأثناء قد أغار على ميلان مطالباً بعرشها بعد مصرع الدوق جيان ماريا فسكونتي .. فانبرى بلاريون لمعالجة هذا الموقف بما يجب .. وأشار على فيليبو ماريا ان يذهب لحصار ميلان بمساعدة جيش قوامه سبعة آلاف من الجنود بقيادة كارمانيولا .. بينما عاد هو إلى (برجامو) لوضع حد لحسارها واستخلاصها من قبضة (مالاتستا) .. وقد وفق في ذلك ومنح (مالاتستا) شروطاً سهلة انسحب بمقتضاها من المدينة انسحاباً كريماً .. حتى إذا وطد بلاريون دعائم الأمن والنظام في المدينة ولى وجهه شطر ميلان حيث احتل قلعة (بورتا جيوفيا) ودعا أهل ميلان من فوق أسوار القلعة إلى تسليم المدينة بغير مقاومة ولا قتال لولي الأمر الشرعي فيأمنوا العقوبات الصارمة التي تفرض عليهم إذا استمروا في المقاومة ، وقد انتشر هذا النبأ بين أهل ميلان انتشار النار في الهشيم ، وما ان وافى المساء حتى تنكر لأستوري فسكونتي هؤلاء الذين اضطرهم للانضمام اليه ، وفتح باب المدينة لجيش الدوق فيليبو ماريا بينما كان استوري فسكونتي يغادرها من باب آخر ..

وقد كافأ فيليبو قواده بسخاء جزاء معاونتهم له واستدامة لولائهم وعلى الأخص بلاريون الذي كان الدوق يعد نفسه مديناً له بكل شيء .. فرفع اقطاعية (فالسينا) إلى مرتبة الامارة

وجعل بلاريون أميراً عليها ، كما اتخذه قائده العام ومستشاره العسكري ..

وقد نعم الدوق فيليبو بهذا الفوز الذي ناله وباستتاب الأمن في أرجاء دوقيته ومال إلى حياة الدعة والمسالمة وترك حدود الدوقية كما آلت اليه وفكر في الاستغناء عن الشطر الأكبر من هذا الجيش الضخم الذي يكلفه مالاً كثيراً، لولا ان بلاريون راح يستحثه ويحفزه إلى العمل قائلاً :

ـ هل تترك هؤلاء اللصوص الذين سطوا على ممتلكات والدك العظيم ينعمون بما نالوه منهـــا ؟. هل تصم أذكراه بهذه الوصمة يا مولاي الدوق وتسيء إلى اسمه ؟

وما كان بلاريون في الحق ليحفل مثقال ذرة امتدت رقعة أملاك الدوق أم تضاءلت وانكمشت . ولكنه كان يرمي من هذه الحملة التي راح يغري الدوق بشنها على المغيرين على ممتلكات والده ، الى القضاء على المركـــيز تيودور الوسي على عرش (مونتفيرا) . وبذلك يستطيع بلاريون أخيراً ان يتمم الخدمة التي كرس نفسه لأجلها منذ خمسة أعوام ، والتي كان ينتظر أوانها صابراً .

وقد استمع الدوق لمطالب بلاريون الجريئة وعقد مجلساً من وزراء الدولة وقواد الجيش لوضع الخطة التي تتبع في تحقيقها . فبادر بلاريون فورا إلى حثهم على البدء باستعادة (فوسيلي) التي كانت ضرورية لضمان سلامة الدوقية وتأمين حدودها .

لكن هذا الرأي أثار اعتراض الوزير بيكاريا الذي قال :

ـ هذا اقتراح غريب إذا تذكرنا ان المركيز تيودور استولى على (فوسيلي) بسعي الأمير بلاريون نفسه وموافقة الكونت بياندراتي .

لكن بلاريون سحق هذه المعارضة في مهدهـــا ، إذ قال فورا :

ـ لا غرابة هنا يا سيدي .. فقـد رأيت من الضروري في ذلك الوقت حين كان تيودور حليفنا ان يستولي على فوسيلي .. أما ونحن معادون له فأرى من الجوهري ان نطرده منها ..

ساد الصمت . وأدار فيليبو نظره في أعضـــاء المجلس قائلاً :

ـ ما رأي القادة العسكريين ؟

فأجاب كونجزهوفن فورا : لست أرى إلا مـــا يراه بلاريون. اني تبعته زمناً كافياً يجعلني أطمئن دائماً الى رأيه .

وأعرب جيازوني تروفا عـــن هذا الرأي ايضاً . فالتفت فيليبو ماريا إلى كارمانيولا الذى كان جالساً ملتزمـــاً الصمت والتفكير . واستطلع رأيه ، فدفع كارمانيولا رأسه الوسيم الى الخلف . وتأهب بلاريون للنضال .. وشد مـا كان ذهوله حين انضم كارمانيولا إلى رأيه لأول مرة إذ قال :

ـ اني ارى رأى بلاريون يا صاحب السمو . ونحـن الذين كنا مع فاشينو خـــين لحالف مع تيودور نعرفه رجلا ماكرا

جريئاً لا حد لمطامعه واحتلاله الآن لفرسيلي خطر على سلامة الدوقية .

وكذلك أعرب سائر القواد عن موافقتهم على رأي بلاريون فجعل الدوق يتأمل قليلا ، ثم قال :

– لعلكم لا تنسون يا سادة ان بين يدي رهينة ثمينة ضماناً لحسن مسالك تيودور ، في شخص الأمير جيان جياكامو الذي يحكم تيودور باسمه . هل تضحك يا بلاريون !.

– ان هذه الرهينة لم تكن للاستيثاق من ولاء تيودور ، بل لضمان سلامة امير (مونتفيرا) الحقيقي . وقد قرر كارمانيولا لسموك ان تيودور رجل ماكر جريء طماع . ومن بين مطامعه ان يقيم نفسه حاكماً مطلقاً حيث هو الآن مجرد وصي على العرش. فلتفكر سموك اذن فيما إذا كان احتمال وقوع ضرر على هذه الرهينة يضع حدا لمطمع المركيز .

واستمروا في جدال ونقاش بعض الوقت ، ثم اعلن الدوق انه سيفكر في الأمر ويبلغهم قراره النهائي متى وصل اليه . وانفض المجلس .

وفيما كان الأعضاء يغادرون قاعة المجلس تأبط بلاريون ذراع كارمانيولا وقال له :

– انك تسدي خدمة في هذا الشأن يا سيد كارمانيولا إذا بعثت برسالة الى الأميرة فاليريا وشقيقها تستحثها فيها على المجيء فورا الى ميلان وتقديم ملتمس إلى الدوق لاجلاس الأمير

جيان جياكومو على عرشه . انه بلغ الآن سناً كافية ، وغيابه عن (مونتفيرا) يمكن تيودور من الاستمرار في الوصاية على العرش .

نظر كارمانيولا إلى بلاريون مرتاباً ، وقال :

– لم لا تبعث انت بهذه الرسالة ؟

فهز بلاريون كتفيه قائلا : لست موضع ثقة الأميرة فاليريا. وقد تسيء تأويل الرسالة إذا صدرت مني .

راح كارمانيولا يحدق فيه دون ان يفارق ارتيابه ، وقال :

– ما هي اللعبة التي تلعبها ؟

– اراك ايضاً ترتاب في !

– اني ارتاب دائماً فيك .

– هذا ثناء منك يا كارمانيولا .

– لست اراه كذلك .

– لو كنت تراه ثناء لما تفوهت به. انك صريح يا كارمانيولا وانا اجل فيك هذه الصراحة . وانا لست صريحاً . ولكنك قد تكبر هذا في ايضا اذا اتيح لك ان تفهمني . تسألني ما هذه اللعبة التي العبها ؟. هي لعبة بدأت منذ زمن طويل ، وهذا آخر ادوارها ان التحالف الذي عقدته بين فاشينو وتيودور كان دورا في هذه اللعبة . والاستحواذ على شخص الأمير جيان جياكومو كرهينة كان دورا آخر كما كان تمكين تيودور من احتلال (فرسيلي) والسيادة على جنوا دورا ثالثا . وكانت غايتي

الوحيدة في كل هـــذه الأدوار ان اطلق العنان لمطامع تيودور حتى يصبح خطرا على الدوقيـة ثم يكون واجبي ان اشير على الدوق بالقضاء عليه قضاء مبرماً .

اتسعت حدقتا كارمانيولا . ولاحت امارات الذهول على ملامح وجهه الوسيم ، وهتف :

– يا إله السموات !. ما اعمق هذه اللعبة !.

فقال بلاريون باسما : اني التزمت الصراحـة معك .. وقد بسطت لك اغراضي . ومع ان هذه مهمة سهلة فهي ضروريـــة للتغلب على ارتيابك وضمان معاونتك .

– لكي تجعلني مخلب القط في هذه اللعبة التي تلعبها ؟.

– هذا غـير صحيح . فان كارمانيولا لا يكون ابدا مخلب قط .

– كلا والله !. ويسرني انك تقرر هذا .. والآن اخبرني ما الذى ترمي اليه من هذا التدبير كله ؟

فتنهد بلاريون وقال : ربمـــا كنت اقول هذا لكي اسلي نفسي . ان فاشينو نعتني بالدهاء .. وان هذه الخطة التي رسمتها على مسرح الحيـــاة تستهويني وتطابق اهواء نفسي .. والآن ، هل تبعث بالرسالة ؟.

أخلد كارمانيولا الى التأمل .. فهو قد حلم حلماً ، وكانت امامه كذلك لعبة يريد ان يلعبها ويتخذ بدوره لتحقيقها مخلب القط من هذا الزميل الذى يروم ان يجعـــل منه هذا المخلب .

ثم قال اخيراً :

– سأذهب إلى الأميرة بنفسي في (بافيا) ..

وذهب كارمانيولا حقاً الى الأميرة لكي يزيل قلقها ويضع حداً لانتظارها الطويـل إجراء العدالة التي كادت تيأس منها .

قال لها كارمانيولا وقد عول على ان يلعب لعبته :

– اني جئت اليك يا سيدتي لكي أدعوك الى المساهمة في رد الحق الى شقيقك .. وكل ما يطلب منك الآن هو تقديم التماس الى الدوق لاقناعه باتخاذ الخطوة التي أشرت بها عليه .. أعني الزحف على تيودور المغتصب واقصائه عن مكانه ..

كتمت الأميرة أنفاسها دهشة ، وقالت : هل أشرت عليه بذلك ؟. انت يا سيدي ؟ دعني أستقدم أخي لكي يشكرك ، ولكي يعلم ان له على الأقل صديقاً باسلا مقداماً في هذه الدنيا ..

– هو صديقه وخادمك يا سيدتي .

ورفع يدها الى شفتيه ولثمها ، واستطرد بينما كانت تنظر اليه وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

– ان آمالي ، وجهودي ، وتدبيري لأجلك ، ستثمر جميعا ثمرها المرجو أخيراً ..

– تدبيرك لأجلي ؟.

فقال كارمانيولا ضاحكا : تدبيري لايجاد مبرر يحمل دوق ميلان على العمل ضد المركيز تيودور الوصي .. ان الساعـــة حانت يا سيدتي .. ولم يبـق الا ان تتقدمي بالتماسك الى الدوق

فيليبو ماريا ، فيزحف الجيش . وطالمـــا لي ان أقود الجيش ، فسأعمل على انصاف شقيقك ورد الحق اليه ..

– اتيح لك ان تقود الجيش ؟ . ومن سواك يقوده ؟ .

فقال كارمانيولا وقد تصنع الكآبة : هناك بلاريون كاني .

فانكمشت الأميره على نفسها وبدت عليها امارات القلق ، وقالت :

– ذلك الشقي ؟ . هو صنيعة المركيز تيودور . وهو الذي ساعده في الاستيلاء على فرسيلي والسيطرة على جنوا .

فقال كارمانيولا : انه ما كان يفعل ذلك لولا اني استصوبت هذه الخطوة ورأيت فيها سبباً يبرر العمل ضد المركيز متى حان الوقت .

– آه ! . هذا دهاء ويعد نظر ! . فهمت ! . انك أردت ان تغذي مطامعه حتى يتجاوز حدوده ! .

فقال كارمانيولا مزهوا : انها كانت لعبة عميقة . لكننـــا نقوم بالدور الأخير فيها . واذا كنت ترتابين في بلاريون هذا .

– أرتاب فيه ! .

وضحكت الأميرة فاليريا ضحكة مريرة وانشأت تقص عليه كيف عرفته جاسوساً أرسله المركيز تيودور للايقاع بها ، وكيف قتل صديقها الوفي المخلص الكونت سبينو .

وهكذا راح كارمانيولا لا يغذي ارتيابهـا وسوء ظنونها في بلاريون وأشرك جيان جياكومو في هذا الاحساس ، ثم عـــاد

بها إلى ميلان واستأذن لها في مقابلة الدوق .

وقد استقبل فيليبو ماريا الأميرة فاليريا وشقيقها مقابلة ودية بسطت له خلالها ملتمسها ، فلما فرغت أومـأ في تؤدة وأرسل سكرتيره في طلب أمـــير (فالـاسينا) . ولم يثر هذا الاسم في نفسها اهتماماً غير عادي لانها لم تكن سمعت بمـــا نال بلاريون أخيراً من هذه المكانة السامية .

وقال لها الدوق أخيراً : سأبلغك قراري فيما بعد يا سيدتي . وأنا أوشك ان انتهي إلى هذا القرار ، وعلى النحو الذي ترغبين . ومتى تشاورت مع أمير (فالـاسينا) واستعرضت المعدات التي بين ايدينا أرسلت في طلبك . وفي اثناء ذلك سيرافقك السيد كارمانيولا وشقيقك إلى الدوقة التي سيسرها ان تهتم بـك .

المحنى الأمير ان استعدادا للخروج .. وفيما هما كذلك عاد السكرتير وفتح الباب معلناً قدوم أمير (فالـاسينا) .

أقبل الأمير في ملابسه الفاخرة الأنيقـــة والمحنى وهو في مدخل الغرفة إلى الأمير جيان جياكومو ، ثم إلى الأميرة فاليريا التي جعلت تحدق اليه في رعب فجائي .

على انها ردت تحيته برغمها وعجلت بالخروج مع كارمانيولا وشقيقها .. ولكنها كانت تشعر في هذه اللحظة بعبء ثقيـــل المحط على صدرها ، ولم تتمالك ان أفضت بمخاوفها إلى كارمانيولا وقررت له انه لم يبق لها رجاء ما دام العمل ضد تيودور منوطاً برأي هذا الرجل .. فطمأنها كارمانيولا قائلا :

– مهما يكن فليس له فضل يذكر . ونحن لاندين له بالولاء وانما ندين به إلى الدوقة بياتريس. فاجتهدي ان تضميها إلى صفك وبذلك تسير الأمور على النحو الذي ترغبين، ولا سيما اذا عهدت الي بالقيادة العامة .

وفي هذه الاثناء كان الرجل الذي تسيء الظن به وترتاب فيه مختلياً بالدوق للمشاورة، وقد ابلغه الدوق هذا العامل الجديد الذي اجتمع إلى سلسلة العوامل الأخرى ضد المركيز تيودور ، وقال له :

– انها ترغب الينا ان نقوم بعمل لأجل شقيقها .. لكن امارة (مونتفيرا) موالية لتيودور . وأهلها لا يعيرون جيان جياكومو اهتمامهم .. واذا فرضنا على الناس أميراً لا يحبونه أثرنا عداوتهم لنا ..

– اذا صح ما تقول سموك ، وان كنت لا أشاطرك هذه المخاوف فاني برغم ذلك أشير باتخاذ الخطوة التي بينتها .. ان أعمالاً كهذه مع شخص مثل تيودور رجل تجعل منه اطماعه جاراً خطراً يخشى منه اما جيان جياكومو فهو شاب وديع رقيق ، وقد كانت ميولة منذ صلاحه وساتقامته تتجه وجهة دينية . . فإذا أجلست هذا الشاب على عرش أجداده جعلت منه جاراً موالياً وخادماً يلهج بشكرك .

وترتب على هذا الحديث ان اجتمع في هذه الليلة مجلس القواد وشهدته الدوقة بياتريس والامير جيان جياكومو

وشقيقته .

وتصدر الدوق فيليبو ماريا صدر المجلس وجلست الدوقة عن يمينه وبلاريون عن يساره ، وأعلن اليهم نيته في اعلان الحرب فوراً على الوصي على عرش مونتفيرا لسببين : الأول احتلاله لمدينة فرسيلي المتاخمة لميلان والثاني اغتصابه حكم امارة (مونتفيرا) بعد ان بلغ الامير جيان جياكومو سن الرشد.. وطلب الدوق إلى قواده ان يبسطوا المعدات التي بين ايديهم ثم يقرروا بعد ذلك من يضطلع بهذه الحملة .

افتتح كارمانيولا الحديث ، فقدر القوة التي يستطيع تيودور اعدادها بستة آلاف من الجنود .. ثم تناقشوا في مدى القوة التي يستطيعون تخصيصها لهذه الحملة بغير اخلال بنواحي الدفاع الأخرى فادلى بلاريون بالرأي اللازم في هذا الشأن ، وصرح بانه يمكن تأليف الحملة من جيوش (كونجزهوفن) وستوفل و (جيازوني تروتا) و (مارسيلو) أحد قواد فاشينو .. وبذلك يتسنى ادخار باقي الجيوش لمختلف الطوارىء ، وفي جملتها جيش كارمانيولا .

وهنا تدخل كارمانيولا والتمس ان يعهد اليه هو بالقيادة العامة ، وعزز هذا الرأي بما قد يجد من الطوارىء التي تستوجب خدمات أمير (فالسينا) لكن كونجزهوفن وستوفل أعلنا في اصرار انهما لا يسيران الا تحت امرة بلاريون . فتدخلت الاميرة فاليرا، والتمست ايكال القيادة إلى كارمانيولا . بدعوة

ان بلاريون كان صديقاً للمركيز تيودور وقد تحالف معه ومكنه من استعادة (فرسيلي) والسيطرة على جنوا .. فقال الدوق :

– ان هذا التحالف كان باسم فاشينو لا باسم (فالساسينا) .

وكان بلاريون في ذلك الوقت يعمل تحت امرته .. وكذلك كان كارمانيولا .. فما الفرق بين الاثنين ؟ .

فاجابت الاميرة فاليريا : ان السيد كارمانيولا كان يعمل حينذاك واضعاً نصب عينيه خدمة أخي .. واذا كان قد ساهم في تمكين المركيز تيودور من احتلال فرسيلي فقد كان يرمي من وراء ذلك إلى جعل المركيز في موقف يؤدي إلى ان يشهر عليه دوق ميلان الحرب في النهاية .

فضحك بلاريون ضحكة خافتة حين تجلت الحقيقة امام عينيه وفهم الدور الذي لعبه كارمانيولا مع الاميرة فاليريا .. بينما واجهه كارمانيولا قائلا :

– هل تسخر من هذا القول يا سيدي ؟ . هل تجسر على ان تتكهن بما كان في نيتي في ذلك الوقت ؟ .

– اني كنت اجل فيك صراحتك يا كارمانيولا .. لكن يظهر انك تستطيع ان تتوسل بالدهاء كذلك .

وهنا تدخل الدوق وضرب المائدة بيده قائلا :

– اننا نشط عن الموضوع يا سادة .. ولا بد لنا من البت في هذا الامر .

فقال بلاريون : هناك اذن حل لهذا الخلاف قد ترضونه

سموكم .. فلا بأس ان يذهب معي جيش كارمانيولا بدل جيش (مارسيليو) .. وهكذا نسير معاً ونتقاسم هذه الحملة .

فقال كونجزهوفن : لكن اذا لم يتول بلاريون القيادة العامة يا سيدي الدوق ، فأرجو ان ترسلوا جيشاً آخر غير جيشي .

وهم ستوفل ان يبدي مثل هذا الرأي ، لكن الدوق عيل صبره ، وقال :

– كفى ! . كفى ! . انا دوق ميلان ، وعني تصدر الاوامر انتم هنا لابداء الرأي ، لا لتقرير ما يعن لكم ! . ليكن كما قرر « فالساسينا » ، ما دام كارمانيولا متحمساً للمساهمة في الحملة .. لكن « فالساسينا » سيتولى القيادة العامة .. هذا هو القرار النهائي . ولكم ان تتصرفوا .

www.liilas.com/vb3 RAYAHEEN

الفصل السادس

قناطر كارمانيولا

دب الخلاف من اول الامر بين كارمانيولا وبين بلاريون في اثناء المدة التي استغرقها حشد الجيش للزحف على فرسيلي .. فانتهز تيودور هذه الفرصة وتحصن في داخل المدينة وادخر فيها من المؤن والذخيرة ما يمكنه من مقاومة حصار طويل الامد .

وقد بدا هذا الخلاف جليا حين طلب كارمانيولا افتتاح الحملة بالاستيلاء على مدينة (مورتازا) الموالية لتيودور حتى لا يكون بقاؤها كذلك خطراً على مؤخرة جيوشهم . لكن بلاريون رأى ان هذا الخطر ليس من الجسامة بالقدر الذي صوره كارمانيولا ، وانه متى تسنى لهم اخضاع (فرسيلي) سلمت (مورتازا) خوفاً من تلقاء نفسها .

وانقسم سائر القواد إلى فريقين .. فريق ناصر بلاريون في رأيه وكان مؤلفاً من كونجزهوفن وستوفل وتروتا .. وفريق حبذ رأى كارمانيولا وكان يتزعمه (أركول بلومو) قائد المشاة في جيش كارمانيولا ، و (اوجلينو داندا) قائد الفرسان وكان في وسع بلاريون ان يسكت هذه المعارضة ويقضي عليها لولا ان الأميرة فاليريا وشقيقها وقد رافقا الجيش في هذه الحملة ، آزرا كارمانيولا في رأيه ، وهكذا أخذ بلاريون برأي وسط ، فأرسل جيشاً بقيادة كونجزهوفن وتروتا فزحف على (مورتازا) لتأمين مؤخرة الحملة في زحفها على (فرسيلي) .

وسارت هذه الحملة المؤلفة من أربعة آلاف من الجنود الاشداء سيرا حثيثاً إلى (فرسيلي) .. على انها ما كادت تصل إلى (بورجو) حتى اضطرت للكف عن السير حين تبين ان تيودور قد نسف القنطرة المشادة على نهر (سيزيا) ، وبذلك وقف هذا النهر العميق الجائش حائلا بينهم وبين (فرسيلي) هدفهم المنشود ..

ولما تبين بلاريون ان هناك قنطرة عند (كاربيناتو) على بعد عشرين ميلا لم يمسها العدو بسوء قرر ان ينتفع بها في اجتياز النهر .. فعارض كارمانيولا هذا الرأي أيضاً بدعوى ان المسافة التي يضطر الجيش لقطعها ذهاباً واياباً ستنهك قواه وستنال منه واختتم معارضته قائلا :

— في الوسع اقامة قنطرة عند ملتقى نهر « سيزيا » بنهر

« سيرنا » حيث المجرى أقل عمقاً . وبذلك نضمن سهولة الاتصال بالجيش الباقي في « مورتازا » .

فقال بلاريون : لقد بدأت تدرك بعض أوجه الخطأ في ترك قسم من الجيش في (مورتازا) .

— لن يكون هذا خطأ اذا أسرعنا في العمل .

وللمرة الثانية أيدت الأميرة فاليريا رأي كارمانيولا ، فاتركها بلاريون لشأنها ، وأوفد ستوفل على رأس قوة من المشاة والفرسان قوامها الف ومائة من الجنود إلى (كاربينانو) .. ولما علم كارمانيولا بهذه الخطوة ذهب إلى بلاريون برفقة الأميرة فاليريا وسأله عن سبب اتخاذه دون مشاورته ، فقال بلاريون .

— انك ستستغرق أسبوعاً في بناء قنطرتك .. وفي اثناء هذه المدة قد يخطر لتيودور ان يفعل ما كان يجب ان يفعله قبل الآن ، أعني تحطم القنطرة المقامة في (كاربينانو) .

فقال كارمانيولا : سأتم اقامة قنطرتي في خلال أسبوع ..

فقال بلاريون باسماً : متى أتممتها وأرسلت الفي جندي إلى الضفة الأخرى للمحافظة عليها أمرت ستوفل بالعودة من (كاربينانو) ..

— لكن في اثناء ذلك .

فقاطعه بلاريون بصرامة : في اثناء ذلك عليك ان تذكر اني هنا القائد ! . وقد يبدو لي ان أدعك والأميرة تفعلان ما يحلو لكما لكي أبرهن لكما على فساد رأيكما ، لكني لا أقبل ان

ارجح هذا الرأي على ما اراه صوابا .

وتركهما بلاريون وذهب لشأنه . فقال كارمانيولا بعد ذهابه :

— ان احترامي لك يا سيدتي هو الذي يمسكني عنه . وقد كان يجدر به وهو يخاطبني بهذه اللهجة ان يتذكر ان كفتي الآن راجحة على كفته بعد ان أبعد نصف رجاله . لكني ساحتمل كل هذا لاجلك . ولن يقع صدام بين رجالي ورجاله حتى تمكن لك ولشقيقك من الاستيلاء على (مونتفيرا) .

تأثرت فاليريا من هذا الأسلوب الدال على الاخلاص الذي كان كارمانيولا لا يفتأ يردده على سمعها طوال اقامتها وشقيقها معهم في معسكر الجيش . وانتهز كارمانيولا فرصة انهماك الجنود في قطع الاشجار واقامة القنطرة عند ملتقى النهرين ، فراح يحدث الاميرة فاليريا عن افعاله المجيدة وبطولته الحربية حديثاً بهرها واستأثر باعجابها . ولم تتمالك امام مظهره الوسيم الخلاب وازاء وحدتها وحاجتها إلى من توليه ثقتها إلا ان تداويه وتمنيه بالآمال حتى تم لهم النصر . ودخلوا (مونتفيرا) ظافرين .

واستغرقت اقامة القنطرة اسبوعاً كاملا . وفي المساء ذهب كارمانيولا إلى بلاريون في مضربه برفقة الاميرة فاليريا وشقيقها وأنبأه بانتهاء العمل ووجود خمسين من رجاله في شبه الجزيرة الكائنة بين النهرين . وطلب اليه ان يصدر الامر إلى الجيش باجتياز النهر عند الفجر .

فقال بلاريون : معنى هذا انك تفترض بقاء القنطرة حتى الفجر .

فاستاء كارمانيولا من مرمى هذه الاشاره ، وقال :

– ولم لا تبقى حتى الفجر ؟ .

وقال بلاريون ضاحكاً : سل نفسك من ذا الذي يحطمها ! . ولو كنت مكانك لألقيت على نفسي هذا السؤال قبل ان الجشم مؤونة اقامتها ! .

– وكيف يستطيع تيودور ان يعرف بوجودهـــا وهو متحصن في (فرسيلي) على بعد ثمانية اميال من هنا ؟ .

وسرعان ما تلقى كارمانيولا جواب سؤاله . فقد ارتفع في هذه اللحظة من ناحية شبه الجزيرة الكائنة عند ملتقى النهرين دوي يشف عن الغضب والرعب ، ممتزجاً بضربات معاول والتحام اسلحة . بينما قال بلاريون وهو يضحك للمرة الثانية :

– يظهر ان تيودور قد عرف ! .

وقف كارمانيولا ممتقع الوجه مطبقاً يديه غضباً واهتياجا . ثم دار على عقبيه واندفع من المضرب صارخا .

اما الاميرة فاليريا فقد القت على وجه بلاريون الساخرة نظرة صارمة ، ثم دعت شقيقها وسارت في اثر كارمانيولا .

ولم يلبث بلاريون ان اسدل على كتفيه عباءة وسار الهوينا في اثر الجميع حتى وصل إلى بداية القنطرة التي أقامهـــا كارمانيولا . فاذا هو يرى ما كان يتوقعه . فقد شاهد شرذمة

من الجنود هم الناجون من الفصيلة التي ارسلها كارمانيولا . امـا الباقون فقد احيط بهم وأسروا . وجـاء في اعقابهم (اركول بارمو) يصرخ في جنـــون ويقسم بالقديسين انهم ذهبو ضحية الخيانة والغدر . وفيما هو يهذي بهذه الكلمـات كانت اصوات المعاول والفؤوس تعمـل في القنطرة عند ضفة النهر الاخرى ، فقال بلاريون وهو يضحك للمرة الثالثة :

– ها هي ذا قنطرتك تذهب . رحمها الله .

فصاح كارمانيولا مهتاجا : هل تسخر مني . لعنة الله عليك؟

والتفتت فاليريا فجأة إلى بلاريون قائلة : لم تضحك ؟ .

– انا من البشر يا سيدتي . ولا اخلو من التشفي .

– هل هذا سبب ضحكك ؟ . هل بلغ من تشفيك ان تضحك لانتصار العدو الذي يسد جهود ايام طويلة .

ثم ازدادت حدة ، واستطردت : انك كنت تعرف ! . كنت تعرف ان القنطرة ستهدم هذه الليلة . وقد قررت هذا بنفسك . فكيف عرفت ؟ . كيف عرفت ؟ .

فهتف كارمانيولا مروعا ، ولم يشأ رغم عدائه لبلاريون ان يصدق انه يمثل دوراً مزدوجا :

– ماذا تقصدين يا سيدتي ؟ .

فقال بلاريون في هدوء وازدراء : هي تقصد ان تقول اني مجرد من الذكاء .

وانتهز (بلومو) الخائب هذه الفرصة ، وراح يضرب على الوتر قائلا :

– ان سموها تقصد أكثر من هذا .. هي ترى انك بعتنا إلى تيودور وغدرت بنا !.

وسرعان ما تبدلت لهجة كارمانيولا وقال : هل تردد هذا القول انت ايضا يا بلومو ؟ . تكلم يا رجل ! . افصح عن غرضك !.

فقال بلومو وقد تغلب على خوفه من بلاريون : ان المعنى واضح اننا ذهبنا ضحية الخيانة !.

فقال بلاريون وقد آثر ان يعالج الموقف بالمنطق :

– أي معنى واضح يا مغفل ؟ . هل بلغ منك الجهل بالمهنة التي تمارسها إلى حد ان تتصور ان قائدا في موقف تيودور يتهاون في بث العيون والارصاد لمراقبة حركات العدو واستطلاع اغراضه ؟ . هل انت من الغفلة إلى هذا الحد ؟ . ان كان الامر كذلك فسافكر في عزلك من قيادة فرقتك !.

فتدخل كارمانيولا لنصرة بلومو الذي كان من رجاله ، ولأن نسبة العجز والقصور اليه كانت تعريضا بكارمانيولا نفسه . فقال :

– هل تزعم انك تنبأت بهذه الخطوة من جانب تيودور ؟.

– اني ازعم ان في وسع كل انسان ان يتنبأ بها الا الاحمق

او المغفل هذا عمل يفعله كل قائد في موقفه .. فهو يدعك تضيع وقتك وجهدك وتفسد معداتك في بناء القناطر ، ثم يهدمها في الوقت المناسب .

– لم لم تقل هذا إذن من عشرة أيام !.

فقال بلاريون بلهجة المتفكه : لأني لا اتعب بنفسي في جدال مع هؤلاء الذين لا يتعظون إلا بالتجربة .

فتدخلت فاليريا مرة ثانية : هل هذا كل ما عندك من تعليل؟ أصحيح انك تركت هذا الوقت والجهد بل هذا الاستعداد يذهب هباء لكي تبرهن للسيد كارمانيولا على فساد رأيه !. أبهذا الكلام تريد ان تقنعنا ؟.

فقال كارمانيولا صارخاً : هو يحسبنا نصدقه !.

فاعتصم بلاريون بالصبر وراح يقول : بل هناك سبب آخر حربي لا بد أن أخجل به ذكاءك . ان تسيير الجيوش كله من هنا إلى (كاربينانو) كان يستغرق يومين على الأقل ، أو ثلاثة أيام لكن في وسع فصيلة من فرسان تيودور ان تبلغ (كاربينانو) في غضون ساعات معدودة لهدم القنطرة .. ولو رأى تيودور اني أمرت بتسيير الجيش كله إلى هناك لأوفد هذه الفصيلة فوراً لتحطيم قنطرة (كاربينانو) .. وقد كنت أخشى هذه الحركة من جانبه في جميع الحالات ، حتى انخدع تيودور

بانهياكك في بناء قنطرة هنـــا واعتقد اني لم أفكر في (كاربينانو) . وهذا هو السبب في اني تركتك تمضي في اقامة القنطرة .. ومع ان قنطرتك ما كانت تنفع بحـال في تحقيق الغرض الذي أقمتها لأجله ، فانها أفادت كل الفائدة في اخفاء نيتي في اجتياز النهر عنـد (كاربينانو) ومتى زحف جيشنا غداً الى هناك فأكبر الظن ان فصيلة تيودور المشار اليها ستمضي الى « كاربينانو » لتحطيم القنطرة .. لكنهـا ستجدها في حراسة ألف جندي بقيادة ستوفل .. ومن المؤكد ان أسر هذه الفصيلة سيعوض ما خسرت من رجال هذه الليلة ..

ما كاد بلاريون يفرغ من هذا الكلام حتى خيم عليهم جميعاً صمت ملؤه الهزيمة والحيرة .. ثم تعـالى ضحك فريق من الجنود والضباط الذين وقفوا عـــن كثب . وعلى أثر ذلك سمع صوت قاصف جاء من ناحيـة النهر .. ثم اهتزت القنطرة هزة شديدة وتداعت أركانها وهوت إلى الماء في دوي عنيف بعد ان زلزلت قواعدها عند الضفة الثانية .

وقال بلاريون :

– لقد ذهبت قنطرتك يا كارمانيولا . لكن لا حاجة بك إلى ندب ما ضاع من جهودك .. فانها أفادت في تحقيق غايتي .

وضم بلاريون أطراف عباءته حول جسده وتمنى لهم ليـلة

طيبة وانثنى عائداً إلى خيمته . بينما وقف كارمانيولا مهموماً كاسف البال إلى جانب الأميرة فاليريا الصامتة .. أمـا بلومو فقد ضحك ضحكة مريرة وقال :

– انه عميق الغرور !. وهو لا يبدي دائماً ما يضمر .

الفصل السابع

فرسيلي

ما كاد بلاريون يصل بالجيش الى (كاربينياتو) بعد ثلاثة ايام حتى الفى كل شيء كما توقع . فقد أوفد تيودور فرقة من الفرسان قوامها مائة رجل ومعها الادوات اللازمة لتحطيم القنطرة .. لكن جيش ستوفل أطبق عليها وأسرها وجردها من سلاحها ..

وقد اجتاز جيش بلاريون نهر (سيزيا) عند « كاربيناتو »، وبعد مسير ثلاثة أيام أخرى على ضفة النهر اليمنى اجتاز الجيش نهر « سيرنا » بجسر بلدة « كوينتو » حيث عسكر الجيش واستقر بلاريون في القلعة الصغيرة التي كانت ملكاً لواحد من أحلاف تيودور المرابط معه في « فرسيلي » . واستقرت معه في

القلعة الأميرة فاليريا وشقيقها وكارمانيولا الذي تغلب على هزيمته في صدد القناطر وعاد إلى سالف اعتداده وعجرفته .

ومع ان بلاريون ضرب الحصار حول « فرسيلي » فانه لم يكن يعني حقاً هذه المحاولة التي كان واثقاً من عقمها وعدم جدواها لم تبين له من تحصن تيودور في داخل المدينة ولاقتناعه بوفرة مؤونته واقواته .. لكن هذا الحصار لم يكن من بلاريون إلا مجرد مناورة لما ما بعدها . بيد ان كارمانيولا لم يتعظ بما كان من غفلته وعاد إلى غروره الماضي تشد ازره الأميرة فاليريا وتوليه ثقتها دون بلاريون .. وراح كارمانيولا يلح في العدول عن حصار المدينة ويصر على مهاجمتها ضناً بهذا الوقت الذي يضيع في الحصار والانتظار .. وللمرة الثانية استسلم بلاريون لالحاح كارمانيولا . بل ترك له تدبير خطة الهجوم وقيادة الحملة المهاجمة . وقد حدث هذا الهجوم فعلاً وتكرر ثلاث مرات . ولكن كارمانيولا كان يرتد في كل مرة خائباً مدحوراً . فساورته الظنون وراح يعرب عن هواجسه ، لا إلى بلاريون ، ولكن إلى الأميرة فاليريا ، التي قالت له :

— هل تعني انه يوجد بيننا من يبلغ أخبارنا إلى تيودور ؟.

فأجاب كارمانيولا : هذا ما أصبحت أخشاه .

خيم الصمت بينهما .. وكانا جالسين في غرفة الأسلحة في (كوينتو) قرب النار المشبوبة في الموقد .. وما لبث كارمانيولا ان قال لها :

هجوماً زائفاً هنا ، في الجهة الشرقية ، بين المدينة والنهر ، لكي نستدرج المحصورين، فان هجوماً قوياً حقيقياً من الناحية الغربية جدير بأن يمكننا من اقتحام الأسوار ..

فقال بلاريون بتؤدة : قد يكون ما تقول .

ثم أخلد إلى التأمـــل ، واستطرد بعد لحظة : ان فكرة الهجوم الزائف فكرة جديدة .. ولها مزاياها .

– أتقر خطتي هذه المرة ؟! يا له من تواضع !.

فتجاهل بلاريون كلماته ، وقال : ولها مخاطرها كذلك .. فان الفرقة التي ستتولى الهجوم الزائف – ويجب ان تكون قوية وإلا انكشفت حقيقتها – يمكن بغير عناء قذفها في النهر بواسطة هجوم قوي من جانب العدو .

فقال كارمانيولا فوراً : لن يتطور الامر الى هذا الحد .

– لا يمكن ان تقرر هذا .

فقال كارمانيولا : ولم لا ؟. ان الفرقـــة المتكلفة الهجوم ستستدرج المحصورين الى هذه الجهة ، لكنهـم قبل ان يوجهوا ضربتهم سيفاجأون بالهجوم الحقيقي من الخلف ..

جعل بلاريون يتأمل هنيئة . ثم هز رأسه وقال :

– لقد قررت لك ان لهذه الخطة مزاياها . وهي تستهويني، لكني لن أجازف بقبولها .

أوشك كارمانيولا ان يهتاج من هذه المعارضة الهادئـــة . فقال :

– وأين المجازفة ؟. يا الهي !. قل انت قيادة الفرقة الاولى إذا شئت . وسأقود انا فرقة الهجوم ، ومتى قمت بدورك ، كما يجب فأوكد لك اني سأكون في قلب المدينة قبل طلوع النهار ، وان تيودور يكون بين يدي .

كانت فاليريا واقفة في الغرفة مولية ظهرها إليهما متجهة إلى الموقد . وحين سمعت كلمات كارمانيولا الأخيرة التي انعشت آمالها دنت منهمـا بتؤدة ، وخاطبت بـلاريـون تستعطفه :

– قم بهذه المحاولة على الاقل ، يا سيدي الامير !.

راح بلاريون يقلب نظره بينهما ، ثم قال :

– اني أفقد صوابي بينكما !. وأنتما لا تتعظان بالحوادث لسوء الحظ . لا بأس يا كارمانيولا . ليكن لك ما تريد . قد تنجح هذه المغامرة. لكن إذا أخفقت فلا تحاول بعد ذلك حملي على اتخاذ خطة لا أرى طريقي في ثناياها .

كانت الخطة خطة كارمانيولا . وتركـــه بلاريون يدبر تفاصيلها . وتقرر ان يكون الهجوم الزائف في منتصف الليلة التالية ، عقب سماع دقات ساعة (سان فتوري)، وهي احدى الساعات القلائل التي كانت تدق في ذلك العهد في ايطاليـا . وبعد انتظار يسير يهيء العدو ان ينهمك في المعركـة ، يقوم

المكسي أخفق وقد عجز عن القيام بمناورة اخرى في الظلام . آو ان يفوز من الغنيمة بالاياب ونفخت ابواقـــه تأمر الجنود بالتراجع والانسحاب .

والواقع ان كلا من الفريقين جعل يغبط نفسه لاستطاعتـه الانسحاب المنظم وتفادي الخسارة الفادحة

الفصل الثامن

اعتقال

اجتمـــع قواد الجيش في غرفة الاسلحة بقلعة (كوينتو) بحضور الاميرة فاليريا وشقيقها . وراح كارمانيولا ينزع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يصخب ويندد بالخيانة والخونة المارقين بينما كان بلاريون ينصت ساخراً الى هذا الصخب الذي عزاه الى مـــا يحسه كارمانيولا من خيبة لاخفاقه في تحقيق الوعود الرنانة التي بشر بها .

على ان بـــلاريـــون لم يلبث ان سئم هـــذا الصـخب الأجوف ، فقال أخيراً :

- ان الكلام لا يصلح شيئاً يا كارمانيولا .
- لكنه يحول دون التكرار .
- لن يكون هناك تكرار ما . لأنه لن تتم محاولة ثانية .

كارمانيولا طريقه قائلا . آه ؟ . لكن صبرا يا بلاريون .

فقال بلاريون بلهجة الآمر . الى الغد . حين تكون أعصابك هدأت وعاد اليك صفاء عقلك . اذا اجتمعتم هنا في ظهر الغد بسطت لكم خطتي . طابت ليلتكم .

وخرج بلاريون .

وقد اجتمع القواد حقاً في الغد . ولكن كان اجتماعهم قبل الظهر وبدعوة من كارمانيولا الذى جاء في اعقابهم تلوح عليه دلائل الانفعال الشديد . وكان ينتظره (بلومو) و (دانتدا) وستوفل وبعض قواد آخرين ، والاميرة فاليريا وشقيقها . ولم يشهد بلاريون هذا الاجتماع ، ولم يخطر به لاسباب بينها لهم كارمانيولا .

وقد دهش بلاريون حين جاء وقت الظهر تماماً ورأى المجلس الذي دعا إلى عقده ، منعقد فعلا وقد انهمك أعضاؤه في مناقشات حامية وجدال حاد دله على ان في الأمر شيئاً . وكان وهو يرتقي السلم الذي أجتمع عند قاعدته طائفة من رجال (بلومو) يسمع جلياً أصوات أعضاء المجلس وهم آخذون في جدالهم العنيف .

وما كاد بلاريون يدخل غرفة المجلس حتى خيم الصمت فجأة وشخصت اليه جميع الانظار . فحياهم باسماً وأغلق الباب . لكنه أحس ان وراء الاكمة ما ورامها .

تقدم بلاريون إلى المقعد الخاوي في نهاية الطاولة التي جلس كارمانيولا عند رأسها بين الاميرة وشقيقها ، وقال . فيم

تتناقشون .

فاجابه كارمانيولا بصوت جاف ولهجة عدائية وهو يتحاشى النظر اليه . كنا نوشك ان نستدعيك . لكن اكتشفنا الخائن الذي يتصل بتيودور ويبلغه حركتنا وقراراتنا ، مما أدى إلى كارثة الليلة الماضية .

– هذا نبأ لا بأس به ، وان كان يجيء بعد فوات الاوان . من هو الخائن ؟ . لم يجبه أحد . وكان الجميع يحدجونه بنظراتهم فيما عدا ستوفل الذي جلس بينهم يبتسم في استخفاف وازدراء ، وفيما عدا الاميرة فاليريا التي نكست عينيها . واخيراً رفع كارمانيولا رقاً مطوياً . أقرأ هذا .

تناول بلاريون الرق وفحصه . وشد ما دهش حين رأى عنوانه محرر باسم « السيد بلاريون كاني ، أمير فالساسيتا » ولم يتمالك ان عبس والتهبت وجنتاه ، ورفع رأسه وقال بصرامة . كيف ذلك ! . من يفض اختام رسالة موجهة الي ! .

فقال كارمانيولا آمراً . أقرأ الرسالة .

قرأ بلاريون الرسالة . فاذا نصها كما يلي .

« عزيزي وصديقي – ان اخلاصك لي ولمصالحي قد انقذ (فرسيلي) في الليلة الماضية من ضربة كان يمكن ان تفضي إلى هزيمتنا . لانه لولا تحذيرك لنا لفوجئنا بالهجوم وأخذنا على غرة فاحب ان تدرك تقديري لهذا الجميل وان توقن اني سأكافئك بسخاء مني واصلت خدمتي بهذا الاخلاص–تيودوربالبولوجو »

المستحيل ؟ . انها موجهة الي باسمي ، لكي لا يبقى شك في تحذير الشخص المقصود بهـا . وهي ممهورة بتوقيعه الـكامل . لكي يحزم لكل من تقع في يده ان يتكهن ، كما فعلت انت بمضمونها!

فقال كارمانيولا . لقد كان مقدر ان يحملها الرسول اليـك رأسا.

– أحقا ؟ اليس من العجب حقا ان يطرق الرسول معسكر جيشك في جهة لا تقع مباشرة بين « فرسيلي » و« كوينيو »؟. لكن لم نضيـع الوقت في مثـــل هذه الادلة التافهة ؟ . أقرأ الرسالة نفسها فهل تجد فيها شيئا يذكر . أو نبأ كان يتعذر نقله الي بغير هذه الوسيلة لو لم يكن الغرض الحقيقي من ارسالها هو التشكيك في والقاء الشبهـات حولي ؟ . ان تيودور قد أسرف في خداعه ودسه . وقد كشف عن غرضه الحقيقي حين أراد ان يقضي علي .

فقال ستوفل ! هذه هي عين الحجج التي سقتها اليهم .

فهتف بلاريون في ذهول ! وهل خابت في اقناعهم !

فصاح كارمانيولا : طبعا خابت ايها الخائن الغـــادر ؟ هي حجج بارعة . لكنها لا تبدو كذلك الا لمن تخبط تخبطك .

لست انا الذي يتخبط يا كارمانيولا . بل انت الذي توشك ان تتخبط في الشرك الذي نصبه لك تيودور !

– ولأي غرض ؟ لأي غرض ينصب هذا الشرك ؟ أجب عن هذا السؤال .

– ربما فعل ذلك لكي يبذر بذور الخلاف والشقاق بيننا . ولكي يتخلص من القائد الوحيد الذي يقدره ويخشى بأسه .

فقال كارمانيولا ساخراً : ما أشد تواضعك ؟

فهتف ستوفل بحرارة : وما أشد غفلتك يا كارمانيولا ؟

فقال بلومو : اذن فنحن جميعاً مغفلون . لأننا متفقون كلنا في هذا الرأي .

فقال بلاريون في كآبة : نعم . أنتم جميعـــاً سواء في خواء رؤوسكم . هذا واضح كالصبح . لا بأس . هاتوا لنا هذا الرسول لكي نستجوبه .

– ولأي غرض ؟

– لكي ننتزع منه التعليمات الصحيحة التي لقنت اليـــه ما دامت هذه الرسالة لا تكفي .

– انك تندفع وراء الخيال ، ان هـذه الرسالة تكفي كل الكفاية ، وقد فاتك انها ليست الدليل الوحيد ضدك .

– ماذا ؟. هل توجد أدلة أخرى ؟.

– هناك تخليط في الليلة الماضية عن القيام بالهجوم الزائف الذي أخذته على عاتقك ، وهناك تصريحك الارعن عن عزمك على رفع الحصار عن (فرسيلي) . ما الذي يدعوك الى رفع هذا الحصار إذا لم تكن صديق تيودور ، وإذا لم تكن ذلك الخائن الفاسد القلب الذي عرفناه فيك الآن ؟.

– لو أخبرتك بالسبب لما فهمت ، بل لزودتك بدليل جديد

www.liilas.com RAYAHEEN

على تحالفي مع تيودور .

فقال كارمانيولا ساخراً : هـــذا جائز ، استدع الحراس يا اركول .

فاه بلاريون بهذه الجملة وهو ينهض من مكانه حين نهض بلومو أيضاً ، كما تقدم ستوفل واضعاً يده على سلاحه ، لكن (اوجلينو داتندا) وقائدا آخر تغلبا عليه ، بينما أسرع القائدان الباقيان الى بلاريون ووقفا عن جانبيـــه ، فتطلع بلاريون اليهما والى كارمانيولا في ذهول ، قائلا :

– هل تجسرون على اعتقالي ؟

– حتى نقرر ما نفعل بك ، وان ندعك تنتظر طويلا .

– يا الهي !.

فاه بلاريون بهذه الجملة وراح يقدح زناد فكره بعد ان ادرك الخطر الذي يستطيعون الحاقه به في غير عناء ، فانه لم يكن بين أفراد الجيش المؤلف من أربعة آلاف وان ينحاز اليه سوى جنود ستوفل الثمانمائة ، أما سائر الجنود فسيتبعون قوادهم بلا ريب ، كما كان كونجز هوفن وروتا وهما القائدان اللذين يمكن التعويل عليهما بعيدين عنه في (مورتارا) . فلم يجد بلاريون إزاء هذا الخطر الذي لم يكن يتوقعه إلا ان يلتفت الى الاميرة فاليريا قائلا:

– اني أخدمك انت يا سيدتي ، وقد تشككت من قبل في أمري في صدد قناطر كارمانيولا ، لكن النتيجة حققت خطأ ظنك .

فرفعت عينيها وتطلعت اليه لاول مرة منذ قدومه الى المجلس وقالت له وهي شاحبة اللون كاسفة البال .

– هناك أشياء أخرى غـــير ذلك لا أستطيع نسيانها يا سيدي . منها موت (اينروسبينو) .

تراجع بلاريون كأنما لطمته ، ثم ضحك ضحكة غريبة وقال:

– سبينو؟. اذن فهو سبينو الذي نهض من قبره طلباً للثأر !

– بل طلباً للعدالة يا سيدي . وكان هذا وحده يكفي لو لم يبادر السيد كارمانيولا بادانتك .

– ادانتي ! اذن فأنا مدان بغير محاكمة ؟

لم يجبه أحد . وفي أثناء ذلك أقبل جنود بلومو وأطبقوا على بلاريون باشارة من كارمانيولا . ثم جرده أحـد القواد من خنجره والقاه فوق الطاولة . وإذ ذاك لم يتمالك بلاريون ان قال محتداً :

– آه !. لكن هذا جنون ؟ ماذا تنوون ان تفعلوا بي ؟

– سنتدبر في هذا . لكن لا تتعلق بالآمال الكاذبـــة يا بلاريون .

– هل ستقررون مصيري ؟ أنتم ؟.

والتفت الى الباقين موجهاً اليهم حديثـــه وقد اعتراه بعض الشحوب. فلم يتمالك ستوفل ان واجه كارمانيولا في عنف قائلا:

– ايها المغفل الاحمق المتهور !. ان كان يجب ان يحاكم بلاريون فليس بين العاملين تحت لواء الدوق من يستطيع محاكمته.

– انه قد حوكم وتمت محاكمته امامنا الآن . وادانته واضحة كالشمس ، ولم يقدم دليلا واحدا ينفي ذرة من التهمة عنه . ولم يبق الا تقرير الحكم الذي نصدره عليه .

فقال ستوفل في اصرار : ليست هذه المحاكمة صحيحة . ان المحاكمة لم تتم ، وليس في سلطتك اجراؤها .

اخطأت . فهناك القوانين العسكرية ..

– اقرر ان هذه ليست محاكمة . واذا لم يكن بد من محاكمة بلاريون فيجب ان تبعث به امام الدوق .

وقال بلاريون : وعليك في نفس الوقت ان تبعث بشاهدك الوحيد أعني الرسول الذي جاء بهذه الرسالة .. ان مجرد رفضك احضاره الى هنا هو أبلغ دليل على خبثك وسوء نيتك ..

تورد وجه كارمانيولا ، بيد انه لم يكترث بهذه التهمة وأمر الحراس ان يقودوا بلاريون إلى الخارج ..

بدا لبلاريون ان كل شيء قد رسم وفقاً لخطة مدبرة . فلم يقاوم ، بل رافق الحراس إلى خارج الغرفة في هدوء وامتثال .

وما كاد الباب يغلق حتى التفت اليهم ستوفل وراح يحادثهم محاولا اقناعهم وتحويلهم عن نواياهم السيئة .. فلما لم يجد بينهم جميعاً توعدهم بإثارة الجيش عليهم او على الأقل مقاومتهم برجاله ، فواجهه كارمانيولا وقال له في شراسة : اسمع ؟. اني اكلمك على لسان الجيش !. بلسان هؤلاء الذين لقوا حتفهم بالأمس نتيجة خيانته .. وفيما عداك انت ورجال فرقتك ، فليس في صفوف

الجيش قوادا وجنودا من لا ينادي بموت بلاريون !..

– أراك تعارف باذاعة النتيجة سلفاً قبل تقريرها هنا ؟ فيا لك من شرير حقود أطلق العنان لحقده وحسده !. ان هذا الحقد قد يدفعك الآن الى حد ارتكاب جريمة القتل .. لكن عليك ان تحاذر فيما بعد .. فستفقد رأسك الاجوف ثمناً لهذا العمل يا كارمانيولا ؟.

لكنهم أرغموه على السكوت وحملوه على الخروج .. ثم جلسوا لتقرير مصير بلاريون ..

الفصل التاسع

عهد

اجمع القواد على اعدام بلاريون.. ولم يشد عنهم سوى جهان جاكومو وشقيقته التي ازعجتها هذه الاجراءات العاجلة وراعها ان تساهم في القضاء على رجل مهما كان مداناً..وراحت تلح عليهم في وجوب ارساله الى الدوق لكي يتولى محاكمته . لكن كارمانيولا نهض من مكانه قائلا : .. ان ما تطلبين قد يفضي الى تمرد الجيش .. واذا لم ابعث برأس بلاريون غداً الى حليفه في فرسيلي ، ثار الجيش علينا وانتهى امر هذه الحملة .. فدعي عنك هذه الوساوس والمخاوف .. ان ادانته ظاهرة كالشمس.. وما عليك الا ان تتذكري

تصريحه عن رفع الحصار لكي تتجهني لحساب من كان يعمل .

وقد انحاز القواد جميعاً إلى صف كارمانيولا ، وقال (داتندا) وهو ينهض من مكانه متبرماً . ان الجنود بدأوا يتذمرون .. وقد حان الوقت لابلاغهم قرارنا تسكيناً لخواطرهم ..

– أصبت .. ولتذهب اليه يا بلومو لابلاغه حكمنا .. قل له ان يستعد للموت .. وسنمهله حتى فجر الغد للتوبة والاستغفار .

وخرج القواد من غرفة المجلس كل لانفاذ مهمته . بينما كانت فاليريا تحاول عبثاً ان تثني كارمانيولا عن عزمه .

ولما سمع بلاريون الحكم عليه وهو في سجنه بالطابق الارضي من القلعة تلقاه بالهدوء التام ولم يصدق انه قد ارتفع هذا الارتفاع وبلغ هذه المنزلة السامية لكي يقذف به من خالق ويهوى هذا الهوى الشنيع .. وكل ما بدر منه في هذا الموقف ان بسط يديه المقيدتين الى بلومو راجياً ان يفك قيدهما . لكن بلومو هز رأسه رفضاً .. فقال بلاريون غاضبا .. وماذا تفيد من هذا غير القسوة . ان النافذة مشبكة بالقضبان ، والباب حصين ، وأغلب الظن ان هناك حارسا عليه وليس في وسعي ان افر اذا اردت .

– سيكون املك اضعف اذا كنت مقيد اليدين ..

– سأعدك بشرفي .. ان ابقى اميرا .

– انت مدان بتهمة الخيانة ، وتعرف تماما ان وعد الخائن لا يعول عليه .

– لتذهب اذن الى الشيطان !.

وقد اغضبت هذه العبارة بلومو حتى استدعى الحراس وامرهم بتقييد قدمي بلاريون ايضا .. وتركوه على هذه الحال وانصرفوا .

وما كاد بلاريون يبقى وحده حتى تطلع الى النافذة .. : راح يثب حتى وصل اليها والقى نظرة من خلالها ، فاذا هي تطل على الفناء الداخلي .. وأدرك انه لا فائدة من محاولة الافلات من هذه الناحية .

وعاد بلاريون الى المقعد الذي كان جالسا فوقه وراح يفكر في موقفه حتى جيء له بالطعام المؤلف من رغيف من الخبز ووعاء من الماء .. فمد يديه الى الحارس قائلا :

– وكيف آكل واشرب وانا على هذه الحال ..

– تحرك بقدر ما يمكنك ..

وعالج بلاريون الاكل بيديه المقيدتين .. ثم انتقل الى النافذة التي كانت لها حافة داخلية من الحجر الصوان واخذ يحرك قيد يديه واستغرقته ساعات كاملة .

وحوالي المساء صاح منادياً حارسه ، فلما جاء قال متهكماً .

انك تستعجل الموت .. لكن هدىء نفسك .. فان الجلادين لن يأتوا قبل الفجر .

فقال بلاريون مهتاجاً وهو جالس خلف الطاولة .

– وهل كتب علي ان أهلك كالكلب ؟ . الا يجيء قسيس لغفران ذنوبي ؟ .

– آه .. قسيس .

وأسرع الحارس لمقابلة كارمانيولا .. الفاء غائباً إذ راح يعد الجيش لمواجهة وعيد ستوفل وتهديده بانقاذ بلاريون .. ولم يجد سوى الأميرة وشقيقها . فابلغها ان بلاريون يطلب قسيساً ، فصاح جيان جياكومو : ألم يرسلوا اليه قسيساً ! .

– انه لا يرسل اليه الا قبل موعد الاعدام بساعة .

ارتعدت فاليريا جزعاً .. وراح جيان جياكومو يسب في سره ثم قال : أدعوا له قسيساً باللهِ ! . أدعوا قسيساً من (كوينتو) ! .

ولم يحضر القسيس إلا بعد ساعة .. وكان رجلاً طويل القامة نحيل العود يضع عباءة سوداء طويلة فوق ملابسه البيضاء .

ووضع الحارس مصباحاً فوق الطاولة ونظر إلى السجين في

رثاء فالقاه كما تركه جالساً في مـــكانه مقيد اليدين والقدمين .. لكن حالة القيود تبدلت في خلال هذه المدة .. فانه مـــا كاد الباب يغلق حتى سقطت هذه القيود كخيوط العنكبوت ممـــا ازعج الراهب الطيب الذي جاء لكي يحله من ذنوبه وخطاياه . وقد اشتد انزعاج الراهب المسكين حين انقض عليه بلاريون فجأة وانشب أصابعه في حلقه حتى عجز الراهب عن الصراخ أو التنفس .. وراح يتلوى في هذه القبضة الحديدية حتى همس بلاريون في اذنه : الزم السكوت اذا كنت تطمع في الحياة ! . واذا تعهدت بالطاعة فاطرق الأرض مرتين بقدمك . فاتركك .

طرق الراهب الأرض بقدميه في جنون . فقال بلاريون :

– لكن تذكر انك اذا صرخت قتلتك بلا رحمة ! .

وتخلى بلاريون عن عنق الراهب الذي راح يستنشق الهواء بلهفة حتى كاد يختنق . وقال لاهثاً : لم .. لم تعتدي علي ؟ . اني جئت لاحلالك من ذنوبك و .

– انا أعرف خيراً منك سبب قدومك يا أخي . وانت تظن ان في وسعك أن تعدني بالخلود الابدي .. فاعلم اذن ان كل مـا أريده منك في الوقت الحالي هو الحياة الموقوتة .

وبعد نصف ساعة خرج الراهب الطويـــل القامة من غرفة السجين حاملا المصباح . وقـــال في صوت كالهمس : اني جئت بالمصباح يا ولدي فان سجينك يجب أن يخلو في الظـــلام إلى

أفكاره وخواطره .

فتناول الحارس المصباح باحدى يديه ، بينما كان يدس المزلاج بيده الثانية .. وفجأة أدنى المصباح من الوجه المحجوب .. فقد خطر له أن هذا القس يختلف بعض الاختـلاف عن القس الذي أدخله .. وما هي الا لحظة حتى أدرك الحارس انه أصاب في ظنونه حين القى نفسه منبطحاً على الارض والراهب قابض على عنقه .. وفي اللحظة التالية غاب الحارس عن وعيه ، فقد ضرب بلاريون رأسه بالأرض ضربة أفقدته رشده .

ولما فرغ بلاريون من ذلك أطفأ المصباح وجر الحارس إلى . أحد أركان البهو ، ثم سوى الرداء والغطاء فوق رأسه وخرج مسرعاً ..

ولم ير الجنود الواقفون في الفنـــاء في هذا الهيكل المغطي الرأس سوى الراهب الذي جاء لهداية السجين .. وقد غمغم بعض الدعوات حين فتح البـــاب الخارجي .. ثم مضي في الظلام ..

وقد كاد بلاريون يصطدم بأحد الحراس في الظلام .. فأخذ يسير محاذراً ... ورأى في طريقه حراساً كثـــيرين أوقفهم كارمانيولا على مسافات متقاربة دفعاً لخطر الهجوم الذي أنذر به ستوفل .

وكانت النتيجة أن بلاريون لم يصل إلى معسكر ستوفل الا

حوالي منتصف الليل .. فألفاه يموج بالحركة .. وما كاد الحراس يعرفونه حتى انتشر نبأ حضوره إلى المعسكر انتشار النار ..

ودلف بلاريون إلى خيمة ستوفل الذي كان لابساً كامل درعه وما ان وقع بصره عليه حتى صاح مشدوهاً .. فخلع بلاريون عباءه الراهب ووقف بملابسه العادية ، بينما قال ستوفل : كنا على وشك الحضور اليك .

– هذا عمل طائش يا ستوفل .. وماذا كنتم تستطيعون أمام ثلاثة آلاف رجل مسلحين ومتأهبين للقائكم ؟ .. من حسن حظي وحظكم اني كفيتكم هذا العناء .

فقال ستوفل : وماذا نفعل الآن ؟ .

– مر بفك الخيام حالا ، فسنزحف إلى (مورتازا) للانضمام إلى جيشنا الذي ما كان يجب ان ننفصل عنه ، وسنرى كارمانيولا وتيودور ماذا يستطيع تيودور بدون بلاريون ان يفعل .

وفي هذه الاثناء عرفت الحقيقة في (كوينتو) ودعي كارمانيولا من ميدان القتال للوقوف على التفاصيل من قس نصف عار وحارس معصب الرأس ، فهاج وماج وأرغى وأزبد ، ثم امضى بعض الوقت في المشاورة وتبادل الآراء مع قواده ، وخطر له أخيراً ان بلاريون لا بد ان يكون التجأ إلى ستوفل ، فاستقر الرأي على ان يزحف الجيش بكامل عدته إلى معسكر

السويسريين لكنه وصل بعد فوات الاوان ، فان هؤلاء آثروا ان يتركوا خيامهم بعد ان قدروا مدى الخطر الذي يهددهم من الابطاء ، وأسرعوا بالرحيل .

وعاد كارمانيولا إلى « كوينتو » وإلى الأميرة المهتاجة لابلاغها نبأ خيبته ، قائلا : من المحقق انه قصد إلى جيشه في « مورتارا » .. لكن كيف أستطيع مطاردته في الظلام وأنا لا أعرف أي طريق سلك ؟ .. كما ان مطاردته تحقق نيته الآثمة في رفع الحصار ..

وراح كارمانيولا يهدر ويصخب حتى تبرمت الأميرة فاليريا وراحت تندد بهذا الهياج الذي لا يجدي شيئاً ، فقال كارمانيولا : هل ترتابين فيما سيحدث بعد ذلك ؟ .. هل تحسبين اننا فقدنا بلاريون والجنود السويسريين فقط ؟ . ان سائر الجيش المرابط في « مورتارا » هو جيشه ، وهو يقارب أربعة آلاف ، وسيتفوق علينا بقواته .

تطلعت اليه الاميرة في جزع وقالت : هل ترى انه سيزحف علينا ؟ .

– وهل هناك غير ذلك ؟ .. السنا نعلم عن أغراضه ما فيه الكفاية ؟ .

– اذا زحف علينا فنحن هالكون ، فاننا سنقع بين جيشه

وبين جيش عمي .

فما كاد كارمانيولا يسمع هذا الكلام حتى عاد اليه غروره ، وقال ضاحكا :

– الا تثقين بي يا فاليريا ؟ . أنا لست حديثاً في فنون الحرب وما دمت بجانبي تشدين أزري فسأنتزع النصر انتزاعاً. وسأبعث رسالة إلى الدوق ابلغه فيها خيانة بلاريون وأطلب منه بعض النجدات . وليس فيليبو ماريا الذي يسكت عن تمرد أحد قواده وخيانته .

وضحك كارمانيولا معتمداً بنفسه . فاطمأنت الاميرة إلى ثقته ، وقالت له :

– أصفح عني يا صديقي واغفر لي شكوكي.. ولن اضايقك بمخاوفي .

فتناول كارمانيولا يدها بين يديه وقال لها . تعجبني منك هذه الروح النبيلة يا فاليريا . انت لي وحدي . وقد خلقنا الله كلانا للآخر .

فقالت باسمة وقد غضت نظرها حياء من حدة نظراته :

– لم يحن الوقت بعد .

فقال متلهفا : ومتى اذا تكونين لي ؟ .

– بعد ان يطرد تيودور من (مونتفيرا) .

– عهدمني ان الرجل الذي يحقق هذه الغاية يستطيع ان يطلبني حين يشاء . ذلك قسم لن أحنث به .

الفصل العاشر

واجب كارمانيولا

بعد أربعة ايام من فرار بلاريون اعتكف كارمانيولا في احدى غرف الطابق الارضي بقلعة (كوينتو) وراح يسطر الى الدوق فيليبو ماريا رسالة اقتضته كثيرا من الجهد والعنت وأغرقته في بحار من العرق لقصور تعليمه وافتقاره الى المادة الانشائية اللازمة .

وفي غرفة الاسلحة بنفس الطابق جلست الاميرة فاليريا وشقيقها يتبادلان الرأي ويتشاوران في الموقف .. وفيما هما كذلك اذ اقبل عليهما رجلان ما كاد يشاهدانهما حتى وثبا ذهولا وهتفت الاميرة من فرط الفرح والسرور : باربارسكو ! .. كازيللا ! .

فقال باربارسكو وهو يتدحرج بقوامه البدين : ومعنا نحو خمسمائة من مهاجري أهل (مونتفيرا) الذين جمعناهم في « بيدمونت » و (لومبارديا) لكي نزيد بهم جيش بلاريون العظيم ولكي نسوي حسابنا مع السيد تيودور ..

ولثم كلاهما يديها ويدي شقيقها ، وقرر كازيللا انهما انفقا شطراً كبيراً من حياتهما يعملان في سبيل الأمير ونصرة حقه ، وان تيودور قد حانت ساعته أخيراً . فتشددت الأميرة بهذا الكلام وعدت قدومهما في هذا الوقت العصيب فألاً حسنا . وقصت عليهما ما تطورت اليه الامور أخيراً . فما كاد يعلمان بانفصال بلاريون وجيشه القوي الذي يبلغ نصف قوة الحملة حتى بدا عليهما الوجوم ، وقال باربارسكو :

– هل تقولين ان بلاريون هو صنيعة تيودور ؟ .

– ان عندنا الدليل على ذلك .

وابلغته قصة الرسالة .. فاشتد ذهوله .. فقالت له :

– هل تدهشك إلى هذا الحد ؟ . لا ريب انه ليس فيها جديد عليك .

– كان يمكن الا تدهشني في وقت آخر . وقد حسبت في الماضي اني وجدت مثل هذا الدليل على اتصاله بتيودور .. وكان ذلك ليلة مصرع سبينو على يديه .. على انه ما كادت تمضي تلك الليلة حتى عرفت السبب في اغتياله سبينو ..

– عرفت السبب ؟ . لقد اغتاله لأن سبينو كان صديقي

وصديق أخي بل كان أوفى أصدقائنا ..

فهز باربارِيسكو رأسه الضخم قائلاً : لقد اغتاله لان سبينو هذا الذي كنا نثق به جميعاً كل الثقة كان جاسوساً يعمل لحساب تيودور .

– ماذا تقول ؟ .

فاهت فاليريا بهذه الجملة وقد شعرت بالفضاء يدور بها والدنيا تموج أمام عينيها ، بينما راح باربارِيسكو يضاعف من ذهولها قائلا :

– الموضوع في غاية البساطة والوضوح .. ان وجود سبينو مرتدياً ملابسه في غرفة السطح حيث سجن بلاريون جدير بأن يفسر لنا كل شيء . فكيف ذهب إلى تلك الغرفة ؟ . ان بلاريون كان معدوداً في نظرنا صنيعة لتيودور . ولولا تدخل سبينو لقضينا عليه في الحال . ثم حدث بعد ذلك ان سبينو سعى اليه في صميم الليل لتحريره ، وبهذا العمل ادان نفسه في عين بلاريون ، ولذلك لم يتردد بلاريون في القضاء عليه .. فاذا صح ان بلاريون كان جاسوساً عند تيودور ، فكيف يلتبس الأمر على رجلين يعملان لحساب شخص واحد ؟ .

فقالت فاليريا لاهثة : في وسعي ان افسر ذلك لو لم تكن أدلتك على اجرام سبينو قائمة على مجرد الافتراض ! .

فقال كازبللا ضاحكاً : افتراض ! . لقد عرجنا ليلة فرارنا من (كازالي) على بيت سبينو ، مدفوعين بما بدا لنا من الشك في

أمره ، فعثرنا بين أوراقه على رسالة موجهة إلى تيودور تسلم اليه عند وفاة سبينو أو اختفائه .. وفي هذه الرسالة الفينيا قائمة بأسمائنا ودور كل منا في المؤامرة التي كانت تدبر لاغتيال تيودور . وكان أسلوب هذه الرسالة أبلغ دليل على ان سبينو كان جاسوس المركيز تيودور وادائه للقضاء على الأمير .

فقال باربارِيسكو : ذلك هو الكونت سبينو أوفى أصدقائك ! .. ولولا بلاريون ..

وبسط باربارِيسكو يديه ضاحكاً .. بينما جلست الأميرة فاليريا منكسة الرأس حزناً .. ثم قالت اخيراً من قلب مكلوم : لقد كان صادقاً مخلصاً ! وقد تشككت فيه وارتبت في أمره ! . رباه ! . حينما افكر في انه كاد يشنق ، وبموافقتي ! . والآن ..

فقاطعها شقيقها قائلا : والآن .. والآن قد اقصيته انت وصديقك الاحمق المغرور كارمانيولا ، وربما دفعته إلى الوقوف ضدنا ! .

وفي هذه اللحظة أقبل (الاحمق المغرور كارمانيولا) ملوث اليدين بالمداد أشعث الشعر ، وما كاد يسمع هذه العبارة حتى وقف في مدخل الغرفة قائلا في وقار ورصانة : ما هذه ؟

فاخذ الأمير جيان جياكومو يقص عليه انباء هذا التطور الجديد باسلوب جاف شديد جعله يحمر ويصفر في وقت واحد .. على انه لم يلبث ان تمالك جأشه واستعان بوقاره قائلا : اني لا أعرف شيئاً مما قلت .. وقد يكون صحيحاً .. لكن لا شأن لي

به ولا يعنيني الا ما حدث هنا .. اعني اكتشاف اتصال بلاريون بتيودور وتصريحه بنيته رفع الحصار عن (فرسيلي) ، أضف إلى هذا افلاته من أيدينا ووجوده الآن طليقاً للعمل على هلاكك، ثم انظر بعد ذلك فيما اذا كنت محقاً في توجيه هذه الكلمات القاسية الي أنا الذي لولاي لكان هلاكك محققاً .

أحدثت هذه اللهجة تأثيرها في نفوس الجميع الا فاليريا التي لم تتأثر وقالت له : لقد نسيت ان اعتقادي بانه كان صنيعة لتيودور في الماضي هو ما جعلني أميل الى الاعتقاد بانه صنيعته في الحاضر .

فقال كارمانيولا في شيء من الاهتياج : لكن ما رأيك في الرسالة ؟ .

فزمجر باربارسكو : اين هذه الرسالة بالله ؟ .

— من انت حتى تستجوبني ؟ . أنا لا أعرف لك حقاً علي ، بل لا أعرف حتى اسمك ! .

فقدمته الاميرة إلى باربارسكو وكازيللا ، ثم قالت : هما من اصدقائي الأوفياء ، وقد جاء إلى هنا لخدمتي مع من جمعوا من الرجال .. دع السيد باربارسكو ير الرسالة ..

اخرج كارمانيولا الرسالة مكرهاً متبرماً .. وما كاد باربارسكو وكازيللا يطلعان عليها حتى قال الأول ساخراً : ان أي انسان به ذرة من الذكاء يرى انها أحبولة من تيودور الماكر الداهية للايقاع ببلاريون والتخلص منه . لا تنفخ يا صديقي

ولا تصخب ! . أعد قراءة الرسالة ، ثم سل نفسك هل كانت تذيل بتوقيع تيودور كاملا ويكتب عنوانها بهذه الصراحة لو كانت صحيحة ؟ . بل سل نفسك هل كانت تكتب على الاطلاق وهي لا تتضمن شيئاً سوى تقرير خيانة بلاريون ؟ .

فهتف الامير جيان جياكومو :

— هذه هي عين الحجج التي أدلى بها بلاريون .

وقالت الأميرة فاليريا بمرارة : ولم نشأ ان نستمع اليها ونصدقها ! . وقال باربارسكو : كيف لم تستجوبوا الرسول الذي جاء بها ؟ .

فاجاب كارمانيولا : لم يكن لهذا من فائدة سوى اضاعة الوقت .. فلم يكن هذا الرسول سوى فتى مسكين لا يكاد يفقه شيئاً .

على ان باربارسكو أصر على استدعاء الرسول . وايدته الاميرة وشقيقها ، بل طلبت الاميرة ان يكون استجوابه بحضور كافة القواد الذين ادانوا بلاريون وأصدروا عليه حكم الموت . فلم يسع كارمانيولا الا ان ينزل على هذا الرأي مكرهاً

ولما حضر القواد ابلغتهم الاميرة سبب استدعائهم ، واخبرتهم بما علمت من باربارسكو اخيراً .. حتى جيء بالرسول وكان فتى غريراً رعديداً . فتولت الاميرة استجوابه برقتها المعهودة . ووعدته ان ينال حريته اذا صدق وأدلى بالحقيقة .. وقد تبين من أقواله انه حين عهد اليه بالرسالة طلب اليه ان يحملها إلى

www.liilas.com/vb3 KAKAHEENA

السيد بلاريون ، والا يكترث باظهار نفسه للعيان، وقيل له أن يمضي رأساً إلى معسكر في الجهة الجنوبية قيل له ان معسكر بلاريون . (وهو في الحقيقة معسكر كارمانيولا) ، كما قرر الرسول رداً على بعض الأسئلة انه سمع اسم كارمانيولا يتردد على السنة الضباط الذين تولوا ارشاده إلى هذا المعسكر .

فما كاد الرسول يصل إلى هذا حتى ضحك (داتندا) بازدراء قائلا : احسب انه قد تبين الآن ان رسالة تيودور كان مقصوداً بها ان تفضي إلى النتيجة التي انتهت اليها .

ثم التفت إلى كارمانيولا وقال غاضباً : لم لم تستجوب هذا الرسول فورا ؟ . أو انه ..

فصاح كارمانيولا : ماذا تعني بحق الشيطان ؟ .

– انت تعرف ما أعني يا كارمانيولا .. انك غررت بنا وكدت تحملنا وزر ارتكاب جريمة ! .

ثم التفت إلى الاميرة قائلا : اني استأذنك يا سيدتي.. سأسير بجيشي من هذا المعسكر في خلال ساعة .

ولما تطلعت اليه الاميرة في كرب شديد قال لها : يؤسفني ذلك يا سيدتي .. لكنني أدين بواجبي لامير (فالساسينا) .. وقد صرفني عن هذا الواجب ظن التسرع .. وسأعود اليه فورا .

وانحنى القائد (داتندا) وسار إلى الباب ، فصاح كارمانيولا خلفه .

– قف مكانك ! . لا بد ان اسوي حسابي معك أولا ! .

فقال (داتندا) سأمنحك هذه الفرصة متى بينت لي أي شيء مغرض أنت حتى تدفعنا إلى هذا الموقف ، أم مغفل أحمق ! .

فاستشاط كارمانيولا غضباً واندفع في أثر « داتندا » لولا ان حال بينهما سائر القواد .. فارتد كارمانيولا إلى داخل الغرفة وهو يغلي من فرط الحنق والهياج ، والتفت إلى الاميرة قائلا هل تأذنين لي سموك ان اتبعه ؟ يجب الا نسمح له بالرحيل .

فهزت الاميرة رأسها قائلة : كلا يا سيدي .. لن أكره أحدا على ما يحب .. ويلوح لي ان القائد « جولينو داتندا » محق في مسلكه .

هتف كارمانيولا وهو يلوح بيديه نحو السقف : محق ! يا إله السموات ! .

ثم التفت إلى سائر القواد قائلا : وانتم ؟ . هل ترون انفسكم محقين في التمرد ؟ .

أعرب القواد عن ولائهم لكارمانيولا ومشاطرتهم رأيه . لكنهم كانوا خاملي الذكر ، ولم يكن لهم من التأثير في قوة الحملة ما لجيش « داتندا » المكون من الف جندي .

ثم قالت الاميرة : لقد نسينا هذا الرسول المسكين .

فالتفت اليه كارمانيولا كأنما يود ان يلوي عنقه ، بينما قالت له الاميرة :

– أذهب يا فتى .. انت حر ، دعوه يرحل بسلام .

فخرج الرسول مع حراسه .. ثم انصرف القواد على الاثر . بينما التفت كارمانيولا إلى الاميرة مهزوماً مدحورا ، وقال لها . ان تيودور ما كان يطمع في افضل من هذه النتيجة التي انتهينا اليها ماذا بقي الآن ؟ .

فتدخل باربارييسكو وقال في لهجة ناعمة . لو كان لي ان أدلي برأيي لقلت انك تحسن صنعا باحتذاء مثال القائد (داتندا) والعودة إلى بلاريون ..

فانحنى كارمانيولا نحوه وقال ذاهلا . أعود ؟ . أعود ؟ . واترك فرسيلي ؟ .

– ولم لا ؟ . انك بهذا تحقق رغبة بلاريون في رفع الحصار عن المدينة .. لا بد ان له غاية من هذه المناورة .

انا لا اهتم مثقال ذرة بغاياته . ولنتكلم بصراحة .. فلست ادين له بولاء . وانما ادين بولائي إلى الدوقة بياريس والاوامر التي تلقيتها من الدوق فيليبو ماريا تقضي علي بالمساعدة في اخضاع فرسيلي . هذا هو واجبي .

فقالت الاميرة بتؤدة . من الجائز ان بلاريون كان يفكر في خطة غير هذه للتغلب على تيودور .

حدق كارمانيولا اليها متقلص السحنة محزون النفس ، وقال .

– اواه يا سيدتي ! . كيف تنساقين وراء هذا الضلال ؟ .

كيف استحلت في لحظة ووضعت ثقة في شخص عرفته منذ أعوام شقيا مخادعا ؟ .

– وهل في وسعي ان أفعل غير هذا بعد ان ادركت غلطتي ؟ وهل لا تزال تؤمن بصحة حكمك بعد ان أوقفتنا هذا الموقف ، واوصلتنا إلى هذه النتيجة ؟ .

كانت هذه العبارة بمثابة ضربة قاضية قوضت آمال كارمانيولا وطعنة نجلاء مزقت كرامته .. فتراجع خطوة إلى الخلف ممتقع الوجه مرتعد الشفتين ، ثم تمالك جأشه وانحنى امامها قائلا .

– اراك يا سيدتي قد اخترت طريقك .. فادعو الله الا تندمي على هذا الاختيار .. ولا ريب ان الجنود الذين جاءوا في صحبة هذين السيدين يكفون لحراستك حتى (مورتازا) ، كما تستطيعين كذلك ان تلحقي بجيش (داتندا) . ومع انه لم يبق معي سوى نصف عدد القوة اللازمة لاتمام الغاية من هذه الحملة ، فلا مفر ان اسعى إلى اخضاع فرسيلي كما يقضي علي واجبي . وبذلك يمكن ان تحقق آمالك على يدي . صحبتك عناية الله يا سيدتي .

كان كارمانيولا يطمع ان يؤثر في نفسها بهذا الاسلوب ويحملها على تعديل قرارها .. لكن خاب فأله . فقد قالت له في تأدب ومجاملة .

– اشكر لك نواياك الطيبة نحوي يا سيدي ، صحبتك عناية

الله ايضا .

عض كارماتيولا على شفته ، ثم انحنى امامهـــا وخرج من الغرفة بهذا الانسحاب المنظم .. وكان هذا آخر عهدها به .

وما كاد الباب يغلق خلفه حتى لطم باربارسكو فخذه بعنف وقهقه ضاحكا .

الفصل الحادي عشر

احتلال كازالي

حينما سرح بلاريون بعزمه على رفع الحصار عن (فرسيلي) كان ينوي من وراء هذه المناورة ان يستدرج تيودور الى العراء بعد ما تبين له من استحالة اخضاع المدينة بالسرعة التي كان ينشدها .

وقد سار على رأس الجنود السويسريين سيراً حثيثـــاً حتى انضم إلى كولمجزهوفن وتروتا . ثم استأنف السير في طليعة هذا الجيش الموحد ولم يقف الا عند أبواب (كازالي) .

وقد سقط في يد قائد الحامية المرابطة عند الباب ، لم يجدمن القوة ما يصد به هذا الجيش الزاحف ، وهكذا تنحى برجاله عن الباب وافسح الطريق .. واستيقظ أهل المدينـــة في صباح هذا اليوم على صليل الاسلحة وصهيل الجياد ، فاذا هم يجدون مدينتهم

في أيدي جيش يعلن طليعته انه قائد عام جيش الأمير جياكومو ولي الأمر الشرعي في (مونتفيرا) .

وقد ذهب بـلاريون إلى (دار المجلس المخصوص) يحيط به قواده وجميع أعضاء المجلس ووقف بينهم قائلا : يا حضرات السادة ليس لكم ما تخافون من هذا الاحتلال . إذ لسنا نشهر الحرب على أهل المدينة وطالما انهم يبتعدون عن التحرش والاستفزاز فسيلزم جنودي جادة النظام والقانون .. ونحن ندعوكم إلى التعاون معنا في سبيل الحق والعداله .. لكن اذا ابيتم هذا التعاون فلن نكرهكم عليه ما بعدتم عن مقاومتنا والوقوف منا موقف العداء والمناضلة .

ان سمو الدوق فيليبو ماريا الذي سئم تحرش المركيز تيودور الوصي على عرشكم به وتهديده اراضيه وممتلكاته قد صمم على وضع حد لهذه الوصاية التي تطورت إلى لون من الاغتصاب والعدوان ، واجلاس الامير جيان جياكومو باليولوجو اميركم الشرعي على عرشه بعد ان بلغ سن الرشد الذي يؤهله لهذه الغاية . واني لادعوكم ان تقوموا بواجبكم كممثلين للشعب وان تؤدوا يمين الولاء لهذا الامير في مساء اليوم في الكاتدرائية الكبرى » .

كانت هذه الدعوة أمراً ملزماً .. فلم يسع أعضاء المجلس إلا ان يمتثلوا وان يؤدوا يمين الولاء للامير وهم لا يملكون من القوة ما يمكنهم من رفع راية العصيان .

ولما فرغ بلاريون من ذلك قصد إلى مكتب تيودور الخاص وجلس في نفس المقعد الذي استقبله تيودور جالساً فيه يوم ان استقبله لأول مرة وهو طالب علم مغمور ، وعكف على تسطير رسالة إلى الاميرة فاليريا يبسط فيها الاحداث التي تعاقبت منذ ان أخذ على عاتقه خدمتها وحللها تحليلا دقيقاً وفند ما عزى اليه من التهم والشكوك طوال هذه السنوات الخمس الماضية . مبينا لها انه اذا كان قد سكت عن الدفاع عن نفسه فقد فعل ذلك مدفوعاً بيقينه انه متى حقق غايتها القصوى في رد حق شقيقها المغصوب فان له من هذه النتيجة ما يدحض عنه كل تهمه ويدفع عنه كل ريب ومظنة .. ثم اختتم رسالته داعياً اياها وشقيقها إلى القدوم إلى (كازالي) معتمدين على حماية جيشه وولاء شعب لا ينتظر سوى رؤية أميره الشرعي لكي يلتهب حماسة ويلتف حول عرشه مؤيداً مؤازراً .

وقد بعث بلاريون بهذه الرسالة في اليوم التالي إلى الاميرة في (كوينتو) . لكنها لم تصل اليها إلا بعد اسبوع وهي في الطريق بين (الساندريا) و (كازالي) .

وفي صباح هذا اليوم استيقظت المدينة مروعة على زحف جيش قوي دخل المدينة بخيله ورجاله .. ولم يكن سوى جيش (أجولينو داتندا) الذي سار إلى بلاريون يعلن اليه خضوعه واصاعته وينبئه بما حدث في (كوينتو) على أثر قدوم باربارسكو .

وقد راح بلاريون ينهال على القائد بالاسئلة التي استفسره فيها عما دار من الحديث وماذا كانت أقوال الأميرة وحالتها النفسية وما وقع بينها وبين كارمانيولا . وما كاد القائد يفرغ من الادلاء باجوبته حتى عانقه بلاريون عناقاً حاراً وقد استفزه طرب شديد لم يعهده أحد في هذا الجندي الساخر اللاهي .

ولم يفت أحد من قواده وجنوده هذا الطرب الذي لازمه بعد ذلك وكان يطبع حركاته وأفعاله رغم الاحداث الجسام التي كانت تنتظره .

والواقع انه كان يخرج من المدينة كل يوم برفقة بعض قواده لمعاينة أرض شبه الجزيرة الكائنة بين نهري (سيزيا) و (البو) في شمالي (كازالي) .. اما في الليل فكان ينهمك في رسم الخرائط على ضوء ما يقف عليه من بيانات في غضون النهار .. وفي اثناء ذلك كله كان يطلع على حركات تيودور بمساعدة جيش من الجواسيس والعيون الذين بثهم على امتداد الطريق من (كازالي) إلى (فرسيلي) .

وبهذه البصيرة النافذة التي هي موهبة أفذاذ القواد استطاع بلاريون ان يحدد خطة العمل التي سيلجأ اليها تيدور . ولاجل هذا الغرض أصدر بلاريون أمره إلى (اجولينو دالندا) بالزحف بجيشه ليلا والمرابطة به في الغابات الكائنة حول (تورينو) حتى تجد الحاجة اليه .

ثم وصل الأمير جيان جياكومو وشقيقته أخيراً إلى (كازالي)

بحراسة المنفيين من أهل (مونتفيرا) وعلى رأسهم باربارياسكو وكازيللا . فخرج الشعب لاستقبال اميريه والترحيب بالاهل والاصحاب من العائدين إلى أحضان الوطن .. كما خرج بلاريون على رأس فرقة من حرس الشرف واستقبل الاميرين عند باب المدينة ورافقهما إلى القصر .

والحق ان ترحيب الشعب أجرى دموع التأثر في عيني الأميرة والهب وجنتي شقيقها غبطة وسعادة . وما كادت الاميرة تستقر في القصر حتى مضت إلى بلاريون مغرورقة العينين بالدموع وراحت تلتمس صفحه وغفرانه عما بدر منها ، وقالت له :

– ان رسالتك يا سيدي قد أحدثت في أعماق نفسي من التأثير ما لا أذكر انه عرض لي في حياتي .. ولك ان تومئني بالغفلة والحمق لما بدر مني في الماضي .. لكن لا تتهمني بالجحود ونكران الجميل . وان شقيقي سيبادر بالاعراب عن مبلغ شكرنا لجميلك حالما يمسك في يده زمام السلطة اللازمة .

فقال بلاريون : سيدتي .. لست أطلب دليلا على هذا ، ولا أنا في حاجة اليه . ان خدمتي لكم لم تكن وسيلة ، بل كانت غاية كما ترين .

– لكن ذلك لن يمتد إلى المستقبل . كما أرى الآن بكل وضوح .

فابتسم في شيء من الكآبة ، والمحنى ولثم انامله ، وقبل ان يهم بالكلام قطع عليهما ستوفل هذه الخلوة اذ اقبل يبلغ

بلاريون ان جواسيسه جاءوا ركضاً من فرسيلي قائلين ان تيودور قد استطاع ان يقتحم نطاق الحصار المضروب حول المدينة وان ينفذ بجيشه من صفوف كارمانيولا ، وانه زاحف على كازالي بجيش يتراوح بين اربعة آلاف وخمسة آلاف من الجنود .

وقد انتشرت هذه الانباء في المدينة وأحدثت في نفوس اهلها قلقاً وجزعاً فقد خشوا ويلات الحصار وبطش المركيز تيودور بهم لايوائهم اعداءه . لكن بلاريون أوفد رسل يبلغون أهل المدينة انها لن تستهدف لاى حصار وانه سيخرج بالجيش للاقاة تيودور وراء نهر (البو) .

الفصل الثاني عشر

المنهزم

دبر تيودور هجومه الفجائي على قوات كارمانيولا المحاصرة لمدينة فرسيلي عند الفجر ، وهكذا اخذه على غرة واحدث الذعر في صفوف جيشه حتى ارغمه على الفرار .

ولما تمت لتيودور هذه الخطوة التمهيدية زحف بكل قواته قاصداً إلى كازالي للاشتباك مع بلاريون .. وهكذا استطاع بلاريون بهاجمته نقطة حيوية تركها تيودور بغير تحصين ، أي مدينة كازالي ، ان يستدرج عدوه من نقطة أخرى أقل شأناً كان فيها تام التحصن ..

والواقع ان تيودور رأى : كما قدر بلاريون ، انه لا فائدة

من استبقاء مدينة نائية مثل فرسيلي اذا كانت كافة أملاكه توشك ان تنتزع من بين يديه .

على ان تيودور لم يكد يبتعد بجيشه عن هذه المدينة حتى لمّ كارمانيولا صفوف جيشه الممزق وزحف على فرسيلي فدخلها دخول الظافرين وأطلق العنان لجنوده يعبثون فيها نهباً وسلباً وفساداً .. وسطر رسالة إلى الدوق فيليبو ماريا قرر له فيها انه استطاع بما أبدى من البطولة والصبر ان يقهر المدينة وان يرغم تيودور على الفرار رغم مروق بلاريون ومن انضم اليه ، واختتم هذه الرسالة العجيبة قائلاً انه قد صار بهذا الفوز أهلاً لثقة الدوق وتقديره !.

وفي اثناء ذلك واصل تيودور زحفه على مدينة (كازالي) متخذاً معه من أدوات الحصار الثقيلة ما يخضع به هذه المدينة العاقة . وكانت النتيجة ان ثقل هذه المعدات عاقه من التقدم في أراض رخوة تنتصر فيها المستنقعات . وما كاد يشارف حدود المدينة حتى أبلغته طلائعه ان جيشاً عظيما خرج منها بقيادة أمير (فالساسينا) قاصداً إلى الشمال .

وقد فوجيء تيودور بهذا النبأ وانزعج من هذا التطور الذي لم يكن يحسب حسابه وقلب خطته رأساً على عقب .. فهو قد سار إلى (كازالي) واثقاً مطمئناً إلى نتيجة الحصار الذي يديره لها والذي جاء لاجله بمعداته الثقيلة .. فأما ان يهجر بلاريون

أسوار المدينة الحصينة ويسعى للاشتباك معه في العراء فذلك ما لم يكن تيودور يحلم به ويتصوره .

وللقارىء ان يتصور مبلغ الحيرة التي وقع فيها تيودور ازاء هذا التطور الفجائي .. والواقع انه راح يرتجل وسائل الدفاع ارتجالاً حتى يدفع عن نفسه الكارثة التي توشك ان تحل به . على انه توصل بالهدوء والشجاعة .. وعدل اتجاه الجيش إلى المنطقة الصلبة الكائنة بين خطين من المستنقعات آملاً ان يضطر بلاريون إلى مهاجمته من امام ..

لكنه لم يكد يسير نحو ميل حتى أطبق عليه جيش بلاريون من الجنب ومن المؤخرة .. فأخذه على غرة .. بيد ان تيودور صمد لهذا الهجوم .. ونشر صفوفه مما أثار اعجاب بلاريون واستطاع أن يتراجع بانتظام إلى منطقة الأرض الصلبة الكائنة بين خطي المستنقعات .. وأخذ يسير محاذراً وهو يصفع عنه الهجوم من أمام بينما كانت الأرض الصالحة للقتال تضيق تدريجيا حتى دب الاطمئنان إلى نفس تيودور واعتقد ان بلاريون لن يجسر بعد هذا الحد على مواصلة التقدم الذي يكون خطراً عليه ولا سيما لانصرام النهار وحلول الظلام .

وبينما كان تيودور يتعلل بهذه الآمال ويهنيء نفسه بهذه الخطة البارعة التي وفق اليها ، اذا ضجة عظيمة تسمع من خلفه على مسافة ربع ميل وقد اخذت تتزايد وتقترب حتى انجلت

عن جيش (اجولينو داتندا) الذي زحف عليه من المؤخرة من حيث لم يكن يتوقع .

نجحت هذه الحيلة البارعة التي أعدها بلاريون سلفاً ببعد نظره . وكانت الضربة ثقيلة على مؤخرة تيودور حتى تمزقت صفوفه الخلفية شر ممزق وتساقط جنوده غرقى في المستنقعات عن اليمين وعن الشمال . كما أحدثت ذعراً عظيماً في الصفوف الأمامية مكن بلاريون ان يواصل حملاته عليها .

دامت هذه المعركة المروعة نحوا من ثلاث ساعات .. ومن بقي من جنود تيودور على قيد الحياة القى سلاحه واعلن الخضوع والتسليم وجردوا من سلاحهم وخيولهم وطردوا للذهاب إلى حيث يشاؤون طالما كانوا بعيدين عن تخوم (مونتفيرا) .

وعاد الجيش الموفق إلى المدينة ودخلها دخول الظافرين تحت أضواء المشاعل وبين دقات النواقيس وحماسة الشعب الذى بحت أصواته من فرط الهتاف لبلاريون ، أمير (فالساسينا) ، منقذه من ويلات حصار يهلك الحرث والنسل ويصب عليه نقمة تيودور .

وسار المركيز تيودور في طليعة طائفة من الاسرى ذوي المكانة الذين جيء بهم إلى المدينة للحصول على فديتهم .. سار رافعاً رأسه ممتقعاً وجهه بين تنديد أفراد الشعب وسخريتهم واستهزائهم .. وقد احتمل المركيز هذا الاذلال متعالياً لاعتقاده

انه لو دخل المدينة دخول الظافرين لكان هذا الشعب الذي يستهزىء به الآن هو الهاتف له والمرحب بقدومه ! .

واقتيد المركيز إلى قصره ، وإلى نفس الغرفة التي لبث فيها أعواماً حاكماً مطلقاً يصدر الاوامر والنواهي ، ووقف عاري الرأس مجردا من درعه أمام ابني شقيقه اللذين جلسا على رأس مكتبه للفصل في أمره وهو الذي كان يفصل في الامور ويكيف المصائر .. وقال له الأمير جيان جياكومو في برود ووقار : انت تعرف اساءتك يا سيدي .. وتعرف كيف خنت الامانة التي عهد بها اليك والدي رحمه الله .. فهل لك ما تقول دفاعاً عن نفسك؟ .

انفرجت شفتا المركيز .. وراح يطبق ويبسط يديه انفعالاً . ثم تمالك وقال : ماذا أستطيع في ساعة الهزيمة الا ان أفزع إلى رحمتك .

– وهل نشفق عليك بعد هزيمتك ؟ هل يمكن ان ننسى ظروف هذه الهزيمة ؟ .

– لست أسألك هذا .. أنا بين أيديك أسيرا .. ضعيف الحيلة أنا لا التمس رحمة .. فقد لا استحقها .. ولا أطمع فيها . هذا كل ما يقال .

جعلوا يتأملونه ويتفرسون فيه .. فاذا هو مخلوق محطم مضعضع حقاً .. وقال الأمير جيان جياكومو : ليس لي ان أفصل في أمرك .. ويسرني ان يزاح عني هذا العبء .. لانك وان كنت

نسيت انني من دمك ، فلا أستطيع أنا ان أنسى انك من دمي. ابن عمو أمير (فالساسينا) ؟ .

راجع تيودور خطوة .. قائلا : هل تجعلني تحت رحمة هذا التذلل ؟ .

فنظرت اليه الأميرة فاليريا ببرود قائلة : انه نال القاباً متعددة منذ ذلك اليوم الذي زعم فيه انه جاسوسك ، لكي يقاوم شرك وخبثك .. لكن هذا اللقب الذي خلعته عليه الآن هو أسمى ما نال من القاب .. فان تسميته نذل بلسان نذل هو الشرف كل الشرف في حساب أهل الصدق والاستقامة .

ابتسم تيودور ابتسامة تشف عن الحقد .. بيد انه لم يفه بكلمة حتى فتح الباب وجاء بلاريون .

أقبل مستندا جنديين يتبعه ستوفل عن كثب .. وكانت درعه منزوعة وملابسه ممزقة ويده مشدودة إلى صدره ، كما كان شاحب اللون تلوح عليه امارات الاعياء والألم .. وما كادت الاميرة فاليريا تبصره على هذه الحال حتى نهضت ممتقعة وهتفت : هل جرحت يا سيدي ؟ .

فقال بلاريون باسماً : هذا ما يحدث للانسان أحياناً حين يخرج إلى ميدان القتال .. لكني أحسب ان جرح السيد تيودور أبلغ ..

ودفع ستوفل مقعدا جلس فيه بلاريون بمساعدة الجنديين .. وقال :

— ان واحدا من فرسانك يا سيدي قد حطم كتفي في اثناء المعركة الأخيرة .

— ليته حطم عنقك ! .

فانفرجت شفتا بلاريون الشاحبتان عن ابتسامة وقال :

— لقد كانت هذه نيته .. لكني معروف باسم بلاريون الموفق .

فقالت فاليريا في ازدراء : انه سماك الآن باسم آخر .. ان من لا يسالم قاضيه لهو رجل طائش مشهور .. وأحسب ان السيد تيودور قد أضاع دهائه فيما أضاع .

فقال بلاريون : نعم .. اننا جردناه من كل شيء إلا حياته . بل حتى قناع طيبته الكاذبة قد انحسر عنه ..

فقال تيودور : ما أنبلكم ؟ . انكم تحيطون كلكم بأسير واحد ؟ .. هل أبقى هنا هدفاً لسخريتكم واستهزائكم؟ .

فقال بلاريون : خذه يا (اجوليتو) .. ضعه تحت حراسة قوية ، سينال ما يستحق غدا .

فقال تيودور بلهجة الحقد الدفين : اني أنال جزاء ضعفي ، كان يجدر بي ان أدع القضاء يدق عنقك حين كنت أسيرا هنا في (كازالي) ..

فقال بلاريون : سأوفيك الدين غدا ، سيبقى عنقك فوق

كتفيك حتى تنسحب إلى جنوا وتقيم فيهـــا ، سيتم كل شيء غدا ..

وأومأ بلاريون بيده ، فدفع (أجولينو) المركيز الأسير إلى الخارج ، وما كاد الباب يغلق حتى تزايلت ارادة بلاريون من فرط الجهد والاعياء ، وأغمى عليه ..

خاتمة

حينما فتح بلاريون عينيه الفى نفسه ممددا فوق فراش ورأى الاميرة فاليريا تدلك جبينه بسائل منعش ، فلم يتمالك ان هتف: سيدتي ! .. هل تقومين بخدمتي ؟ .. لا يليق هذا .

– أنت ترى هذا غير كاف مقابل مـــا أسديت الي من خدمات .. لكن لا بد ان تمنحني وقتـاً كافياً يا سيدى ، نحن الآن فقط في البداية ..

– ان هذا لا يدور بخلدي على الاطلاق ..

– اذن فانت لا تفكر كما ينبغي . أنت ضعيف القـوى . وذهنك يفكر ببطء .. والا لتذكرت انـك وقد لبثت خمسة أعوام صديقا شهما وفيا كنت في ضلالي وغفلتي عدوة لك .

فقال باسما . آه ! . كنت أعلم اني سأقنعـك في النهاية .. ومثل هذا العلم يلهم الصبر والتماسك .

www.liilas.com/vb3
ALYAHEEN

فقالت في عجب . أو لم يخامرك الارتياب لحظة ؟ .

فاجابها :

لقد كنت شديد الثقة بنفسي . والآن وقد حققت غايتي فسأعود إلى (سليانو) راضيا مطمئنا حالما أقوى على السير ..

– وماذا تفعل في (سيليانو) ؟ .

– ماذا أفعل . أفعل ما يفعل اخواني في الدير .. ان رئيس الدير كان صادقا محقا .. فهناك السلام الذي أحن اليه الآن بعد ان اقمت غايتي موفقا .. ولم يبق لي شيء في العالم الدنيوي .

فقالت في ذهول : لا شيء ! . وقد ظفرت في خمسة أعوام بما ظفرت ! .

فقال في رفق وودعة : ليس فيما ظفرت به ما اشتهيه . ان هو إلا غرور كاذب ، وجنون ، وجشع ، ووحشية .. أنا لم أخلق لهذا العالم ، ولولاك لما اتصلت به واندمجت فيه اما الآن فقد انتهى كل شيء .

– وممتلكاتك الواسعة .. في (جافي) و (فالساسينا) ؟ .

– اني اخلعها عليك يا سيدتي ، اذا تنازلت وقبلتها هدية الوداع من هاتين اليدين ..

تنهدت من اعماق قلبها . ثم قالت له : احسبك محموما . هو جرحك ولا ريب .

فتنهد بدوره وقال : نعم .. لك ان تفكري على هذا النحو. فمن العسير على انسان تربى في هذه الدنيا ان يصدق ان مخلوقا لا يستهويه بريقها الخالب . لكن صدقيني اني أتركها وليس في النفس الا حسرة واحدة .

فقالت لاهثة : ما هي ؟ .

– حسرتي على ان الغاية التي دخلت هذا العالم لاجلها لم تتحقق على اني لم أدرس اللغة الاغريقية .

دنت منه الاميرة بتؤدة وهي شاحبة اللون حزينة النفس ، وقالت :

– الا وزن لي في حسابك يا بلاريون ؟ .

فابتسم في كآبة لا حد لها ، واجاب: هل يجب ان تسأليني الآن هذا السؤال ؟. الست تجدين الجواب في حياتي التي أمضيتها في هذا العالم الدنيوي ؟ . هل تجدين رجلا تهافت على خدمة امرأة ما تهافت أنا ؟ .

انحنت فوقه مرتعدة الشفتين وقالت .

– هل تصر على انك لا تشتهي شيئاً يا بلاريون ؟ .

فاشرق محياه وقال : نعم شيء واحد يجعل تفاهة العالم بحرا زاخرا من المجد والجلال .. شيء واحد يضرم نار الحياة والوجود رياه ! . ماذا أنا قائل ؟ هل جننت هل افصح .

– فاجابته لم تسكت يا بلاريون ؟ .

– أنا خائف .

– مني ؟ . هل يوجد شيء اضن به عليـــك وانت الذي وهبت كل شيء في خدمتي ؟ . الا تطلب شيئاً لنفسك ؟ .

– فاليريا ! .

فقالت : ان كراهتي لك طوال هذه الأعوام كانت حباً مستكناً . ان روحي رفرفت حولك منذ ان رأيتك لأول مرة الحديقة في تلك الليلة الخالدة ، ولذلك حز في نفسي وعز بي ان اتوسم نذالة في افعالك . . وكان يجدر بي يا بلاريون ان أصدق قلبي واكذب حواسي الخادعة . . لقد حذرتني حين قلت اني غير بارعة في الإستدلال . . وقد قاسيت ما يقاسيه هؤلاء الذين يتمردون على نفوسهم .

تفرس بلاريون في محياها ، ثم قال في كآبة : اجل ! . اني محموم كما قررت منذ لحظة . . لا اكاد اصدق اني مثالك حواسي .

فقالت له لا تخف سأعود واحبيك بعد هذا العناء وان اميرتك وعدوتك التي رحمتك ساعة جئت، الآن تدعوك لتعود للحياة ليس من اجلك بل من اجل فاليريا اميرتك وسيدة قلبك

يا بطل : ما رأيك يا بلاريون أميرتك فاليريا تدعوك للحياة ما قولك اجبت اخالف لك اي مطلب وسابقى مخلصة لك ما حييت . . .

تمت